منطقة الغموض

فريق متميزون
E-BOOK

م. عبد الوهاب السيد الرفاعي





الطبعة السابعة

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

منطقة الغموض

عبد الوهاب السيد الرفاعي

تنويه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول: أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

اتصال..

لم يتبقّ الكثير من الوقت لأضع خطتي قيد التنفيذ.. وهذا ما يزيدني قلقا وتوترا.. ورعبا!!!!.. إنني مقبل مساء الغد على أكبر مغامرة في حياتي.. فقد قررت أن أترك زوجتي وأبنائي إلى الأبد بعد أكثر من 25 عاما من الزواج والاستقرار العائلي!!!.. لماذا؟ !!.. لأنني عثرت على حبي الحقيقي أخيرا.. نعم.. عثرت عليه بعد كل هذه السنوات وبعد أن تجاوز عمري ال 50 عاما بقليل.. لكن هذا ليس خطأ.. لأنني أدرك جيدا الآن أنه لا يوجد حب يأتي متأخرا.. إنه يأتي فحسب.. يدق باب قلبك في أي وقت مهما كان عمرك.

ورغم أنني سافرت إلى كثير من البلدان لعقد صفقاتي التجارية وقابلت الكثير من الفتيات اللاتي يخلبن لب أي رجل في العالم.. إلا أنها المرة الأولى التي تستوقفني فيها فتاة كهذه.. لم يكن السبب جمالها أو رقتها.. بل شيء آخر لا أعرف كيف أصفه.. شعور قوي تملكني وسيطر على كياني لأدرك فجأة أنني لا أستطيع الحياة دون هذه الفتاة.. ولم أجد أي تفسير لمشاعري تلك سوى الحب.. إنني أحبها دون شك.. أحببتها من أول نظرة.. كنت أسخر كثيرا من هذه المقولة في السابق.. لكني الآن أفهم من يعشقون من النظرة الأولى.. أفهمهم جيدا.

ورغم أن حبيبتي تصغرني بسنوات طويلة حتى لتبدو لمن يرانا معا وكأنها ابنتي!!!.. لكن الحب لا يعرف التمييز بين الأعمار كما تعلمون.. الحب عطاء.. الحب شعور.. الحب طاقة صافية.. هذا ما أردده لنفسي طوال الوقت.. وأعتقد أنني محق.

لقد تفجرت مشاعري حين التقيت بها أول مرة وهي تقدم طلبها للعمل في شركتي كونها حديثة التخرج وتبحث عن العمل في القطاع الخاص.. فقد أسرتني وسرقت قلبي حتى رحت أتصرف أمامها وكأنني طفل صغير.. وبالطبع.. وافقت على عملها في الشركة مباشرة دون تردد لكي أراها وأكون إلى جانبها كل يوم.

وبعد أسابيع قليلة من مباشرة عملها.. صارحتها بحبي.. وبينت لها أنني على استعداد لأضحي بكل شيء وأقع تحت قدميها كي أكسب رضاها.. ورجوتها أن تمنحني الفرصة لأبين لها حسن نواياي مع وعود لا تنتهي بأنني سأكون الرجل الذي تتمناه طوال حياتها رغم فارق السن الواضح بيننا.

لا أنكر أنها حاولت أن تصدني في البداية.. بل ونبهتني أكثر من مرة إلى أن زواجنا هذا غير متكافئ إطلاقا لأسباب عديدة لا تخفى عليكم.. لكنها في النهاية.. اقتنعت بحبي لها وبصدق مشاعري ورغبتي الحقيقية في الزواج منها.. اقتنعت بأنني لن أكون سعيدا سوى معها.. وأنني مستعد أن أضحي بكل شيء لأكون معها.. فتوطدت علاقتنا أكثر وأكثر.. وتحول الحب -خلال فترة وجيزة - من جانب واحد.. إلى علاقة قوية بين حبيبين لن يفرق بينهما شيء سوى الموت.

لم أكن أشعر بأي تأنيب ضمير كوني أخون زوجتي وعلى وشك تركها مع أولادي.. وأرجو ألا يلومني أحدكم على ذلك.. فأنا لم أذق طعم الحب يوما.. وحتى زواجي الحالي كان تقليديا للغاية.. إذ تزوجت إحدى قريباتي بعد إلحاح شديد من والدتي رحمها الله.. لنعيش بعدها سنوات طويلة لا أنكر أنها كانت هادئة بعيدة عن المشاكل أنجبنا خلالها 3 أولاد.. ولا أنكر أنها كانت نعم الزوجة.. حيث كافحت ووقفت معي في أسوأ الظروف إلى أن أصبحت مع مرور السنوات رجل أعمال يحسب له ألف حساب.. نعم.. توجد بيننا ألفة كبيرة دون شك وسببها السنوات الطويلة الهادئة التي عشتها معها.. لكن رغم ذلك.. كان هناك شيء ينقصني.. شيء لم أعرف ما هو إلا

عندما التقيت بحبيبتي هذه.. وأدركت عندها معنى الحب الحقيقي.

وها أنا الآن بعد سنتين من علاقة حب ظلت كالشعلة التي أنارت حياتي بأكملها.. قررت أخيرا القيام بالخطوة الأهم والأخطر في حياتي وحياة حبيبتي أيضا.. إذ قمت ببيع الكثير من ممتلكاتي وأودعتها في البنك دون علم زوجتي وأبنائي.. وأعددت العدة للهجرة إلى (كندا) حيث سنبدأ هناك حياة جديدة هادئة أشعر أنني أستحقها تمام الاستحقاق.. بعد سنوات طويلة من العمل المتواصل والمسؤوليات العائلية المرهقة والمنافسة التي أنهكتني مع كبار رجال الأعمال.. فالبدايات الجديدة حق متاح للجميع.. ووسيلة رائعة ليشحن الإنسان طاقاته ويشعر أن الحياة قد أعطته فرصة ثانية.

ولا أنكر أنني عانيت كثيرا في البداية لإقناع حبيبتي بالهروب والهجرة معي.. إذ لم يكن الأمر سهلا عليها بطبيعة الحال.. لكنها وافقت أخيرا أمام إلحاحي الشديد.. خاصة وأنها تعاني بدورها من مشاكل عائلية كثيرة بسبب شقيقها الوغد الذي يتحكم تماما في حياتها.. بل ويأخذ جزءا من راتبها أيضا رغما عن أنفها.. كما ترون.. وكأن كل شيء كان يجرنا إلى الهجرة!!!.

كنت أعد العدة للهرب دون علم زوجتي وأبنائي بالطبع.. إذ سأكتفي بإبلاغهم بقراري هذا من خلال رسالة سأتركها لهم بخط يدي.. ماذا؟ !!.. تسألونني لماذا لا أواجه الجميع وأبلغهم بأمر علاقتي بتلك الفتاة بنفسي؟ ؟!.. حسنا.. الجواب هو: لأنني لا أمتلك الجرأة!!!.. نعم.. هكذا بكل بساطة.. أنا لا أمتلك الجرأة لمواجهة أبنائي وزوجتي وأقاربي والمجتمع بأسره لأخبرهم أنني أنوي الزواج من فتاة في عمر ابنتي ومن مستوى اجتماعي أقل بكثير.

فحتى لو واجهتهم بذلك وكنت قويا.. أعرف جيدا أنني سأخوض حينها صراعات عائلية طويلة متعبة لم أعد أحتمل مواجهتها.. وربما سيؤثر ذلك على حبيبتي أيضا بصورة أو بأخرى.. فلا أستبعد أن يتعرض لها أفراد عائلتي أو عائلة زوجتي لإبعادها عني بشتى الوسائل.. لذا وجدت أن الحل الأنسب هو الهرب والبدء بحياة جديدة.. خاصة وأنني أمتلك المال الكافي لهذا.. دون أن أنسى -بالطبع -ترك مبلغ محترم من المال لزوجتي وأبنائي لتأمين مستقبلهم.

لماذا لا أتزوج حبيبتي بالسر؟ !!.. لقد فكرت بذلك في بادئ الأمر بالفعل.. خاصة وأنني قمت باستئجار شقة فاخرة دون علم أحد.. حيث نلتقي فيها بين الحين والآخر بعيدا عن أعين الناس.. لكن.. لم أكن أحب تلك النوعية من الحياة.. فزواج كهذا قد ينكشف في أي لحظة.. ولا أستبعد أن يصل الخبر إلى الناس بوسيلة أو بأخرى.. أمور كهذه لا يمكن أن تستمر في الخفاء في بلد صغير ك(الكويت).. صدقوني.. لقد فكرت بكل شيء.. فلا داعي أن تصدعوا رؤوسكم باقتراحات أخرى.

تنساب تلك الخواطر إلى ذهني المشتت وأنا أركن سيارتي بالقرب من البيت محاولا أن أبدو طبيعيا وألاّ أثير شكوك زوجتي بشيء.. خاصة مع جو الترقب الذي كنت أعيشه.. والساعات التي تمر علي ببطء شديد مع اقتراب موعد الهرب والهجرة إلى (كندا).

كانت الأجواء في البيت هادئة كئيبة كالعادة.. حيث وجدت زوجتي -كعادتها أيضا -جالسة في غرفة المعيشة تشاهد التلفاز.. أما أبنائي.. فقد كانوا جميعا في الخارج.. إنهم في سن يملك فيها كل منهم حياته المستقلة.. وباتوا يخرجون ويدخلون دون أن أعرف أي شيء عنهم!!!.

رحت أنظر إلى زوجتي نظرة طويلة دون أن تنتبه.. شاعرا بشيء من تأنيب الضمير لما سأفعله.. لكني رغم كل شيء.. حاولت التغاضي عن نداء الضمير هذا وألقيت عليها التحية محاولا رسم

ابتسامة توحي لها أن الأمور على ما يرام.. لتبادلني بابتسامة مماثلة وتسألني إن كنت أريدها أن تعد لي شيئا لآكله.. فهززت رأسي نفيا بامتنان وتركتها تشاهد التلفاز.. ثم ذهبت لآخذ حماما ساخنا بعد هذا اليوم الشاق. جلست بعدها في غرفة النوم محاولا أن أندمج في قراءة أحد الكتب.. فيسرح ذهني للحظات أفكر فيها بالخطوة التي سأقدم عليها مساء الغد والتي ستغير حياتي بأكملها.. لكني أعود وأحاول التركيز فيما أقرأه.. قبل أن.. قبل أن أفقد تركيزي تماما عندما تلقيت اتصالا صاعقا على هاتفي النقال.. اتصالا مخيفا كان هو البداية الحقيقية لقصتي هذه!!!.

كان الاتصال من حبيبتي.. أرى رقمها واضحا على شاشة هاتفي النقال.. لقد حذرتها أكثر من مرة ألا تتصل بي في مثل هذا الوقت كي لا أثير شكوك زوجتي أو أولادي.. خاصة وأنها تعلم جيدا أنني في البيت الآن ولست معتادا على السهر في الخارج.. وقد التزمت تماما باتفاقنا هذا طوال السنتين السابقتين.. فلماذا تتصل الآن؟!!.

أمسكت هاتفي النقال.. ورحت أسترق النظر إلى باب الغرفة الموارب لأتأكد من أن زوجتي ما زالت تشاهد التلفاز في غرفة المعيشة وليست في طريقها إلى غرفة النوم مثلا.. ثم أجبت على حبيبتي بصوت هامس فيه شيء من التوتر:

-لماذا تتصلين بي الآن؟ ؟!.. ألم نتفق ألا نتصل ببعضنا على الإطلاق في مثل هذا الوقت؟!.. إنني موجود في البيت الآن وأخشى أن ....

قاطعتني بصوت مرتجف وهي تسألني:

-هل.. هل أنت على ما يرام؟!.

أجبتها بالإيجاب باستغراب واضح لهذا السؤال السخيف.. فأردفت بتوتر وخوف:

-لقد.. لقد اتصلت بي زوجتك للتو!!!!.

قلت كالملسوع وقد اتسعت عيناي هلعا:

-ماذا؟!!!!.. زوجتي اتصلت بك؟!.. هل أنت متأكدة؟!!.

ردت باكية:

-لقد كانت تتحدث بصرامة أخافتني كثيرا.. فأخبرتني أنها لن تسمح لي أن أهرب معك!!!.. وقالت أيضا إنه من الأسهل لها أن تقتلني من أن تراني أدمر حياتك وحياة أسرتك.

سألتها بشيء من الشك:

-هل أنت واثقة أنها زوجتي؟!.. إنك لا تعرفين صوتها!!.

ردت بعصبية بالغة وكأنها تريد أن تتجاوز تلك النقطة:

-إنها زوجتك (مريم) بالفعل.. لقد أخبرتني بذلك بنفسها قبل أن تهددني مرة أخرى بالقتل وتقفل السماعة بوجهي مباشرة بعدها!!!.. لقد اتصلت بي من هاتف البيت كما هو مبيَّن عندي في كاشف الرقم.

ارتجف قلبي بقوة إزاء كلامها هذا.. ورحت أنظر حولي بذعر بالغ.. قبل أن ألتقط أنفاسي وأطلب منها أن تبقى في البيت وتتجاهل ما جرى.. بل وقمت بالتأكيد عليها أن تذهب إلى المطار في الموعد المحدد مساء الغد حسب اتفاقنا دون أن تأخذ معها أي حقائب كي لا تثير شكوك أحد في

بيتها.. وألا تتصل بي إلى ذلك الحين.. على أن أتصل أنا بها متى ما سنحت الظروف.

أنهيت الاتصال.. وجلست أفكر بقلق حقيقي.. من أخبر زوجتي بالأمر؟!.. إنني شديد الكتمان في علاقتي مع حبيبتي.. بل إن موضوع هروبي معها لا يعلم به أحد سوانا.. ثم.. لماذا تصرفت معي زوجتي بصورة اعتيادية للغاية عندما وصلت إلى البيت قبل قليل؟ ؟!.. لماذا لم تواجهني لو كانت قد علمت بأمر علاقتي بهذه الفتاة؟!!.

الغريب أن زوجتي امرأة مسالمة للغاية.. وهي من نساء الجيل القديم.. فلا يمكن أن تتصرف بهذه الطريقة البوليسية المريبة.. بل ولا أتخيلها أن تتصل بحبيبتي وتهددها بالقتل!!!.. أنا لا أفهم شيئا.. يا إلهي.. ما الذي تخططين له يا زوجتي؟ ؟!.. أعرف جيدا أن الغيرة قد تجعل المرأة تتصرف بصورة مغايرة تماما لطبيعتها.. حتى لتبدو لك وكأنها شخص آخر وليست زوجتك التي عرفتها طوال تلك السنوات وعشت معها في بيت واحد!!!.

و.. تلاشت أفكاري مع وصول زوجتي إلى الغرفة.. حتى أنني ولأول مرة في حياتي أشعر بالخوف منها!!!.. فازدردت لعابي بصعوبة.. وقلت متظاهرا ببعض المرح:

-هل أعجبك الفيلم؟!.

نظرت إلي بلطف وقالت بابتسامة واسعة وصوت يوحي وكأن الأمور على خير ما يرام:

-أحب الأفلام العربية القديمة.. أحبها جميعها دون استثناء.

ضحكت بهدوء محاولا إخفاء توتري.. ثم قبلت جبينها.. ودسست جسدي تحت اللحاف مفكرا بما يحدث وما سيحدث.. شاعرا بتوتر شديد وأنني عاجز تماما عن النوم.. لكني وجدتها فرصة كي أحلل الأحداث وأفهم ما يدور حولي دون مقاطعة من أحد.. أقول هذا لنفسي وزوجتي تقوم بتفريش أسنانها في الحمام.. ثم.. أسمع خطواتها وهي تقترب من الفراش وتقوم بإطفاء النور استعدادا للنوم.

دقائق قليلة قبل أن أسمع تنفسها المنتظم مما يوحي بذهابها فعليا إلى عالم الأحلام.. أما أنا فكنت بعيدا تماما عن النوم.. الأفكار تصطرع في ذهني وتساؤلات لا تنتهي تنهال علي.. حتى بت أطرح السؤال ذاته مرة أخرى.. لماذا لم تواجهني زوجتي بأمر خيانتي لها؟ !!.. لماذا تتصرف بهذه الطريقة البوليسية؟!!.

يا له من أمر غريب.. لقد واجهت عمالقة في عالم التجارة وهزمتهم وكسبت احترامهم جميعا.. لكن.. لم أظن يوما أنني سأكون ضعيفا في اختبار كهذا قد يبدو سهلا للكثيرين.. ربما هو الشعور الشديد بالذنب.. لأنني أعلم جيدا أن زوجتي طيبة للغاية ولا تستحق ما سأفعله بها.. قد يكون هذا سبب توتري وخوفي.

و.. شعرت أنني أنزلق بدوري إلى عالم الأحلام بعد أكثر من ساعة قضيتها مفكرا تحت اللحاف.. إلى أن نمت أخيرا بالفعل وغرقت في سبات عميق.. أو هذا ما ظننته.. قبل أن أشعر بشيء مريب يحدث حولي.. شيء لم أعرف ما هو.. لكنه يحاول بإصرار أن يوقظني من النوم!!!.. هل هي الحاسة السادسة؟!.. ربما.

فتحت عيني لأجد ضوءا مألوفا يشع في كل أنحاء الغرفة.. إنه.. إنه ضوء هاتفي النقال بعد أن ألغيت خاصية الصوت كي لا يزعجني أحد أثناء نومي.. هناك من يتصل بي في مثل هذا الوقت والساعة تتجاوز الثانية صباحا؟؟!!.. أمسكت الهاتف.. وحاولت أن أغطي بيدي الضوء الخارج

منه كي لا يوقظ زوجتي.. ثم نظرت إلى الشاشة لمعرفة هوية المتصل.. إنها.. إنها حبيبتي.. ماذا يحدث هنا؟ ؟!.. لماذا تتصل بي مرة أخرى في مثل هذا الوقت؟؟!!.

خرجت من الغرفة بهدوء شديد ممسكا هاتفي النقال.. وتوجهت إلى غرفة المعيشة والهاتف ما زال يرن بإلحاح لكن دون صوت طبعا.. ثم:

-ماذا تريدين؟!.

قلتها بطريقة غير لائقة.. لكن.. ردت بما لم أتوقعه إطلاقا:

-زوجتك.. لقد اتصلت مرة أخرى قبل قليل.. وأقسمت بأنها ستقتلني قبل أن أرحل معك إذا لم أتراجع عن قراري.. أرجوك افعل شيئا.. أنا خائفة للغاية!!.

كان هذا آخر ما أتوقعه!!!.. فقلت بذهول حقيقي:

-كيف بالله عليك؟!.. إن زوجتي نائمة الآن.. بل وكنت نائما بجانبها قبل أن تتصلي!!!.

ردت بحنق:

-ربما استيقظت أثناء نومك وجاءت لتتصل بي.. ثم عادت بعدها إلى النوم.. من يدري.. هل كنت لتشعر بها لو فعلت هذا؟!!.

بهتُّ تماما لسؤالها.. بالفعل.. لا أعتقد أنني كنت سأنتبه لو فعلت زوجتي ذلك أثناء نومي.. ولكن.. راح السؤال يتكرر في ذهني.. لماذا تتصرف زوجتي بهذه الطريقة الغريبة أصلا؟!.. لماذا لا تواجهني بدلا من تلك الاتصالات المخيفة وتهديد حبيبتي بالقتل؟!!.

لم أبحث عن الإجابة على أسئلتي تلك.. بل توجهت مباشرة إلى غرفة النوم مرة أخرى.. ونظرت طويلا إلى زوجتي المتدثرة تحت اللحاف حيث كنت على وشك إيقاظها والتحدث إليها.. لكن.. هاجس غريب أوقفني.. فكرة غريبة لم تخطر ببالي من قبل رغم بساطتها!!!.. ترى.. هل.. هل.. هل تخدعني حبيبتي؟ ؟!.. هل تتلاعب بي كي أواجه زوجتي وأنهي زواجي بنفسي بدلا من الهرب؟ ؟!.. ربما تفعل ذلك لأنها لا تريد الهجرة معي وتريد أن أتزوجها هنا وأعلن زواجي منها أمام الجميع؟ ؟!.. وربما هي تحبني من أجل المال فقط.. يا لي من أحمق.. لماذا لم أفكر بذلك سوى الآن؟ ؟!.. بكل تأكيد هذا ما قد يخطر ببال أي شخص يعرف عن علاقتي بها.. هل تحاول حبيبتي استغلالي وخداعي.. لا أعلم.. التساؤلات لن تنتهي أبدا.

ذهبت إلى الفراش وموعد السفر يقترب شيئا فشيئا مع مرور الساعات.. لا أعرف كيف ستسير الأمور.. لا أعرف إن كان أهل زوجتي سيعثرون علي في (كندا) وينتقمون مني بوسيلة أو بأخرى.. وإن كنت سأرى أبنائي مرة أخرى بعد أن تهدأ الأمور ويتقبل الجميع أمر زواجي وهجرتي؟!.. لقد كنت أنتظر لحظة الهروب بفارغ الصبر.. لكنها الآن وقد اقتربت.. أشعر بشيء من الخوف!!!!.

في اليوم التالي.. استيقظت مبكرا وكان مزاجي متعكرا بشكل واضح بعد تلك الليلة السوداء.. حتى إنني توجهت إلى المكتب بعد أن ألقيت تحية سريعة مقتضبة على زوجتي وأبنائي حيث كان كل منهم يتأهب للذهاب إلى.. إلى.. لا أعلم في واقع الأمر.. فكل منهم له حياته الخاصة الآن كما أخبرتكم.. لكن لم يكن هذا المهم.. بل هو السؤال الذي يكاد يقتلني.. هل يجهل أفراد أسرتي ما سيحدث بالفعل؟؟!!.. من الذي يتصل بحبيبتي إذا ويقوم بتهديدها؟ ؟!.. هل هي زوجتي بالفعل؟!.

ولا أنكر أيضا أن الشكوك قد تفجرت مرة أخرى حول حبيبتي كما علمتم.. فهي التي أبلغتني باتصالات زوجتي المزعومة.. وأنا أعيش مع زوجتي في بيت واحد بطبيعة الحال ولم أجد في تصرفاتها منذ الأمس ما يثير الشكوك.. فهي تتصرف بشكل اعتيادي للغاية!!!.. ربما علي أن أتأكد بنفسي من أن هاتف حبيبتي النقال يحوي بالفعل رقم هاتف بيتي في قائمة الاتصالات الواردة.. سأفعل هذا حال لقائنا.

جلست في مكتبي أفكر طويلا بالأمر.. عازما ألا أعود إلى البيت اليوم.. بل سأذهب إلى المطار مباشرة في المساء لألتقي بحبيبتي هناك حسب الاتفاق.. ونطير بعدها إلى (كندا).. لحسن الحظ أنني طلبت منها ألا تأتي إلى العمل اليوم حتى تستعد جيدا للذهاب في المساء إلى المطار والسفر معي.. ولكن!!!.. لا بد من مواجهتها أولا.. نعم.. حتى لو اضطررت لتأجيل السفر.. أو حتى إلغائه لو اتضح أن هذه الفتاة تتلاعب بي.. ستكون صدمة هائلة دون شك بعد أن وقعت في الحب للمرة الأولى في حياتي!!.

مرت الساعات بطيئة للغاية إلى أن انتهيت من آخر أعمالي في الشركة التي سأتركها لأولادي.. وخرجت بعدها متوجها إلى الشقة إياها.. بعد أن اتصلت بحبيبتي وطلبت منها أن تذهب إلى هناك للضرورة القصوى.. مواجهة أخيرة وحاسمة معها سيتوقف عليها مصير علاقتنا بأكملها.. أريد أن أعرف ما يحدث حولي.. هل تكذب علي؟ ؟!.. أم أن هناك شخصا آخر يعمل في الخفاء ويحاول خداعي وإلغاء خطتي؟ ؟!.. سأعرف كل شيء!!!.

وصلت إلى الشقة أخيرا والتوتر بلغ مبلغه.. ما إن فتحت الباب.. حتى فوجئت بحبيبتي هناك وقد سبقتني في الوصول كما يبدو.. فهي تسكن في نفس المنطقة التي استأجرت فيها تلك الشقة.. وقد فعلت هذا متعمدا حتى أوفر عليها مشقة زحام الشوارع.. المهم أنها ارتمت في أحضاني حال وصولي.. وراحت تبكي بشدة!!!.

لم أفهم شيئا بالطبع.. فسألتها بجزع عما يحدث.. لترد بذعر حقيقي:

-إنها زوجتك.. لقد اتصلت بهاتف الشقة منذ قليل!!!.. وأعطتني إنذارا أخيرا كي أبتعد عنك.. وإلا ستقتلني مساء اليوم قبل أن أذهب إلى المطار!!!.

دفعتها بقسوة وأنا أقول بغضب واضح بعد أن تيقنت من كذبها:

-كفاك كذبا.. لا أحد يعلم بأمر هذا المكان سوانا.. بل إن عقد الإيجار ليس مسجلا باسمي أصلا.. فكيف تعرف زوجتي رقم هاتف الشقة لتتصل بك كما تدّعين؟ ؟!.. وكيف عرفت بأمر علاقتنا؟ ؟!.. إنني إنسان شديد التكتم ولم أخبر أحدا بأي شيء.. إنك تتلاعبين بي من دون شك!!!.

يبدو أنها فوجئت تماما بردة فعلي.. إذ راحت تحدق بي باستنكار قبل أن تصرخ بدورها وتقسم أنها حافظت على سر علاقتنا جيدا وأنها صادقة فيما تقول.. لكني أردفت:

-هناك أمور لم أفكر بها سوى الآن بعد خدعتك الغبية هذه وأكاذيبك عن اتصالات زوجتي.. فأنا أكبرك سنا بسنوات طويلة.. بل أنا في عمر والدك بالفعل.. ربما وافقت على الزواج مني بسبب أموالي.. لكنك الآن ومع اقتراب موعد السفر شعرت بجدية وخطورة الأمر وربما لم تعد ترغبين في الهجرة معي والهرب من عائلتك.. إنك لا تجرئين على إبلاغي بذلك خوفا من ردة فعلي.. كأن أقوم بفصلك من الشركة مثلا.. أليس كذلك؟!.. لهذا قمت بالكذب علي بشأن تلك الاتصالات الهاتفية واتهمت زوجتي المسكينة التي أجزم تماما أنها لا تعرف شيئا!!!.

قالت مصعوقة وكأنها لم تتوقع مني هذا الكلام إطلاقا:

-ما الذي تقوله؟ !!.. هل نسيت أنك أنت من كنت تجري خلفي في بادئ الأمر؟!.. هل نسيت أنني كنت مترددة أصلا في الارتباط بك؟ ؟!.. حتى إنني نبهتك بنفسي أكثر من مرة إلى الفارق الشاسع بيننا في العمر والمستوى الاجتماعي دون أن أكترث أصلا إن كان هذا سيتسبب بفصلي من شركتك انتقاما مني كما تقول.. فكيف أخدعك بعد كل هذا؟!!.

نظرت إليها طويلا وأنا أسترجع علاقتي بها.. كانت محقة في كل ما قالته.. خاصة وأنني انتبهت للتو أيضا إلى أنها لم تطلب مني يوما أي مبلغ من المال ولم تحاول استغلال ثرائي.. فكل ما فعلته يوحي بحبها لي.. يا إلهي.. قد تكون محقة!!!.

لذا.. لم أنطق بحرف.. بل نظرت إليها مبهوتا.. قبل أن تردف وهي تكمل بصوت باك أثار شفقتي:

-لقد أخبرتك بنفسي أنك متزوج ولا يجوز أن تخون زوجتك وتترك أبناءك.. لكن.. لكني تخاذلت في النهاية بعد محاولاتك العديدة لكسب ودي.. وبعد أن وقعت بدوري في حبك.. خاصة عندما تبين لي أنك تحبني بصدق ولم تكن مجرد ذئب بشري كحال معظم الرجال الذين يلاحقونني!!!.. ثم إنك تستطيع أن تتأكد من كلامي بسهولة وتعرف أنني لا أخدعك.

قالت هذا وجاءت بهاتفها النقال لتعبث به ثوان قليلة قبل أن تضع الشاشة أمام وجهي وتكمل حديثها باكية:

-انظر إلى قائمة الاتصالات الواردة مساء أمس.. أليس هذا رقم هاتف بيتك؟!!.

رحت أنظر إلى شاشة الهاتف بدهشة.. بينما توجهت هي مسرعة إلى هاتف الشقة وراحت تعبث ببعض الأزرار.. ثم جرّتني من يدي لأرى الشاشة.. يا إلهي.. إنها محقة تماما.. نعم.. فهناك اتصال وارد من بيتي بالفعل على الهاتفين.. لقد اتصلت زوجتي بحبيبتي على هاتفها النقال.. واتصلت أيضا على هاتف الشقة!!!.. هذه أدلة لا تقبل الجدل!!!.

لم أجد ما أقوله بعد كل هذا.. إذ خرست تماما وقد عرفت نوايا زوجتي لأول مرة وتأكدت منها.. بل وبدأت أخشاها كثيرا رغم سنوات زواجنا الطويلة.. حتى إنني أنزلت رأسي ببطء وكأنني طفل صغير وبّخته والدته للتو.. و.. قلت بعد لحظات بصوت هامس:

-لا عليك يا حبيبتي.. إنك محقة في كل ما قلتيه.. أرجوك سامحيني.. لن يتغير شيء من خطتنا.. ستسير الأمور كما خططنا لها.. سأخرج الآن لأنهي بعض الأعمال.. على أن نلتقي في المطار بعد حوالي 4 ساعات من الآن.. سنهرب من هنا بغض النظر عن هوية المتصل.. ولننس الأمر برمته.. سامحيني يا حبيبتي.

قبلت جبينها وبادلتني بابتسامة حزينة.. ثم خرجت من الشقة لإنهاء أعمالي الأخيرة قبل هجرتي إلى الأبد.. ولم أنسَ أن أضع رسالتي في مظروف مغلق بيد مندوب الشركة وطلبت منه أن يوصلها إلى زوجتي وأبنائي غدا صباحا.. بعد أن أكون قد خرجت من البلد.

انتهيت أخيرا من كل أعمالي مبكرا وقبل الموعد المتفق عليه بساعتين تقريبا.. فلم أجد مكانا أذهب إليه سوى المطار وانتظار موعد الرحلة.. حيث توجهت إلى هناك شاعرا بنشوة لا توصف بعد أن تأكدت من حبيبتي وعرفت أن زوجتي هي من كانت تتلاعب بي طوال الوقت.. لكني ظللت أتساءل رغم كل شيء.. كيف عرفت بأمر علاقتي بتلك الفتاة؟!.. وكيف عرفت رقم هاتف حبيبتي النقال؟!.. بل وكيف علمت بأمر الشقة وعرفت رقم هاتفها؟ !!.. يبدو أنني كنت محقا عندما

أخبرتكم برفضي لفكرة الزواج بالسر.. لا يمكن أن نخفي شيئا في هذا البلد.. لا يمكن!!!.

جلست في مقهى (كاريبو) في المطار.. أشرب قهوتي وأفكر بأخطر مغامرة سأقوم بها في حياتي وقد آن أوانها.. أفكر بتهديدات زوجتي لحبيبتي آملا ألا تقوم بتخريب خطتنا.. وأتساءل لماذا لا تواجهني زوجتي بكل شيء بعد أن حانت لحظات الحسم!!!.

و.. تصاعد القلق شيئا فشيئا.. فقد مر الوقت ولم يتبقَ الكثير على موعد الرحلة.. لكن حبيبتي لم تأتِ حتى الآن!!!.. أمسكت بهاتفي النقال.. وبيد مرتجفة رحت أتصل بها.. الهاتف يرن بإصرار دون أن ترد على المكالمة!!!.. اتصلت مرة أخرى.. وأخرى.. وأخيرا.. رد أحدهم على الهاتف.. رجل غريب لم أسمع صوته من قبل.. هل هو شقيقها أو أحد أقاربها؟ ؟!.. لا أعرف.. لكني لملمت شتات نفسي وسألته بتوتر واضح:

-هل (.....) موجودة؟!.. أنا رئيسها في العمل.

رد صاحب الصوت قائلا:

-المعذرة يا سيدي.. لم أتمنَ أن أكون من يبلغك بالخبر.. لقد.. لقد لقيت المسكينة حتفها في حادث سيارة منذ قليل!!!.. لا أحد يعرف كيف انحرف مسار سيارتها فجأة وكأن انتابتها حالة جنون مفاجئة.. فاصطدمت بالحاجز الإسمنتي وانقلبت السيارة بعدها أكثر من مرة..

سقط قلبي في أحشائي وأنا أسأله بذعر حقيقي:

-ماذا تقول؟!!!!.. كيف حدث ذلك؟!!!.. كيف انحرف مسار سيارتها فجأة؟! هل كان هناك أحد برفقتها في السيارة؟!.. و.. و.. من أنت؟!!.

قال بأسى:

-إنني أحد الشهود على الحادث يا سيدي.. أنا أتحدث معك الآن من الشارع منتظرا وصول الشرطة وسيارة الإسعاف.. لقد سمعت هاتفها النقال يرن في حقيبتها.. فقمت بالرد عليه.. لا أعرف لماذا انحرف مسار سيارتها بهذه الطريقة الغريبة.. لعله قضاء الله وقدره.. تقبل تعازينا يا سيدي.

لم أكمل حديثي معه.. إذ سقط الهاتف لا شعوريا من يدي.. ورحت أنظر حولي بضياع حقيقي.. لقد انهارت خطتي بأكملها في لحظة واحدة.. الحب.. الهجرة.. ابتعادي عن زوجتي وأبنائي.. كل ما خططت له انتهى فجأة.. فبدا لي وجودي في المطار لا معنى له.. ستعود حياتي إلى طبيعتها رغما عن أنفي بعد أن خسرت حبيبتي.

خرجت من المطار بخطوات ثقيلة عائدا إلى البيت غير مصدق ما حدث.. وغير مصدق أنني كنت على بعد خطوات من الهجرة.. قبل أن يتغير كل شيء في لحظات قليلة لتعود الأمور بلمح البصر إلى ما كانت عليه في السابق.. هكذا بكل بساطة.. حتى إنني وجدت نفسي أبكي لا شعوريا بصوت مرتفع في السيارة أثناء عودتي إلى البيت آسفا على ما حدث لحبيبتي وعلى حبي الذي انتهى قبل أن يبدأ!!!.

وصلت أخيرا إلى البيت قبل منتصف الليل بقليل وعقلي لا يزال غائبا.. لكني في النهاية تمالكت نفسي بصعوبة ومسحت دموعي محاولا أن أبدو طبيعيا.. قبل أن أدخل أخيرا لأجد زوجتي نائمة.. إنها تنام مبكرا إذا لم تجد شيئا تشاهده في التلفاز.. هذا أمر معتاد.

توجهت بعدها لأخذ حمام ساخن بعد يوم طويل حافل.. آملا أن تزيل المياه الساخنة كل هذا التوتر والحزن.. ثم ذهبت أخيرا إلى الفراش والخواطر تلتهمني.. حتى إن الدموع قد انسابت من عيني مرة أخرى دون أن أشعر وأنا أتذكر حبي الأول والوحيد وكيف انتهى بهذه الصورة التراجيدية.. لا أذكر متى كانت آخر مرة بكيت فيها بخلاف اليوم.. حقا لا أذكر.

كنت أتوقع أن تنتهي القصة عند هذا الحد.. وأن تعود حياتي إلى طبيعتها خلال الأيام القادمة بعد أن تندمل جروحي.. محاولا أن أتناسى أمر تلك الاتصالات التي تلقتها حبيبتي.. وإن كانت زوجتي هي المسؤولة عن كل ما حدث أم لا.. وهو صراع عنيف عشته مع نفسي.. غير مصدق أن زوجتي البسيطة الساذجة قد تفعل أمورا كهذه.. المشكلة أنني لم أجرؤ على مواجهتها.. ولم أكن أملك البال الرائق أصلا بعد كل ما حدث..

لكن.. لم أكن أعلم أن تلك الألغاز ستنكشف بأكملها وأنني سأكون على موعد مع صدمة جديدة مروعة!!!.. صدمة حقيقية ومفاجأة مذهلة كشفت لي كل شيء.. أو ربما زادت الأمور غموضا!!!.. فبعد بضعة أسابيع على موت حبيبتي.. وبعد عودة الأمور إلى طبيعتها شيئا فشيئا رغم وجود تلك الغصة في الحلق.. تذكرت الشقة.. الشقة التي استأجرتها سرا والتي كنا نلتقي فيها باستمرار.. فقررت الذهاب إليها لأخذ حاجياتي منها.. ومن ثم تسليم مفتاحها لحارس العمارة.. إذ لم أعد بحاجة إليها بعد الآن.

كانت هذه المرة الأولى التي أدخل فيها الشقة بعد وفاة حبيبتي في ذلك الحادث المشؤوم.. لذا لم يكن الأمر سهلا حين مشيت بين جنباتها وحيدا شاعرا أن حياتي بأكملها قد عادت إلى البرودة والملل مرة أخرى.. فكان الهدوء موحشا حميما بمزيج غريب متناقض لم أعرفه من قبل.

أبحث في الشقة كي أتخلص من أي شيء يخصني وقد يكشف أمر علاقتي بالمرحومة.. على أن أتصل غدا بإحدى الشركات لأبيع الأثاث كله.. أو ربما سأتبرع به.. لا أعلم.. سأقرر فيما بعد.. لا أملك البال الرائق للتفكير في تلك الأمور الآن.. فما زالت التساؤلات تتردد وتتكرر في ذهني بين الحين والآخر رغم محاولاتي المستمرة لتجاهلها.. هل حادث السير الذي أودى بحياتها مرتبط بالتهديدات الهاتفية التي وصلتها من زوجتي؟ ؟!.. أم أن الحادث كان قضاء وقدر؟ !!.. وهل زوجتي وراء ما حدث بالفعل؟ !!.. هل كانت هي من اتصل بحبيبتي وهددها بالقتل؟ !!.. بدأت أشك بكل شيء.. لكن.. تلك الشكوك تجمدت فجأة.. بل شعرت أن الزمن بأكمله قد تجمد حولي.. وأكاد أقسم أنه كاد أن يغمى علي لولا أنني تمالكت نفسي سريعا واستندت إلى الحائط!!!.

كان هذا عندما فتحت جهاز خدمة البريد الصوتي في هاتف الشقة لمعرفة إن كان هناك أي تسجيل صوتي قد يكشف علاقتي بحبيبتي.. لم تكن هناك سوى رسالة صوتية واحدة واردة في مساء يوم السفر.. وفي وقت وجودي في المطار على ما أذكر.. رسالة من صوت بدا غريبا في البداية.. وهو يقول بحدة:

-ابتعدي عن (.....) وإلا سأقتلك بنفسي.. هذا آخر تحذير.. لا تدمري حياته وحياة أسرته!!!.

هذا الصوت.. هذا الصوت.. هذا الصوت مألوف للغاية.. لا.. لا يمكن أن أصدق ما أسمعه.. قمت بإعادة تدوير الشريط لأسمع الصوت مرة أخرى وأخرى.. لا يمكن.. هذا مستحيل!!!.. شيء كهذا لا يمكن أن يحدث.. جلست على الأرض من هول الصدمة واضعا يدي على رأسي لا شعوريا.. يا إلهي.. لقد قالت حبيبتي إن زوجتي (مريم) اتصلت بها وهددتها بالقتل؟؟!!.. ولكن.. تلك المتصلة.. (مريم).. إنها ليست زوجتي كما ظنت حبيبتي.. أو كما ظننت أنا أيضا.. بل هي.. بل

هي والدتي!!!.. فوالدتي اسمها (مريم) أيضا.. والدتي التي توفيت منذ 10 سنوات تقريبا!!!!!.. الاسم.. الصوت.. الكلام.. يا إلهي.. هذا مستحيل.. مستحيل تماما.. إنه صوتها بكل تأكيد.. كيف تتصل بحبيبتي وتهددها؟ !!.. كيف جاء هذا الاتصال من عالم الموتى والأشباح؟ ؟!.. كيف؟ !!.. كيف؟!!!.

أنظر حولي بعينين زائغتين شاعرا أن شياطين العالم كلها تلاحقني.. وأستمع إلى صوت التسجيل للمرة العاشرة تقريبا.. إنني أسمع صوت شخص ميت!!!.. كيف يمكن أن يحدث هذا؟ !!.. كيف؟ !!.. لا أعلم.. لكن.. إنه صوت والدتي دون شك!!!.. يبدو أنها اتصلت بحبيبتي مرة أخيرة قبل خروجها إلى المطار.. أتذكر جيدا أنني طلبت منها ألا ترد على أي اتصالات هاتفية قد توتر الجو وتكشف أمرنا.. لذا فقد تركت جرس الهاتف يرن دون أن ترد على المتصل.. إلى أن تحول الاتصال إلى خدمة البريد الصوتي.. فتركت والدتي تلك الرسالة الصوتية المخيفة لعل حبيبتي تستمع إليها قبل خروجها من الشقة للتوجه إلى المطار.

أتذكر جيدا عندما قال الشهود إن حبيبتي راحت تقود السيارة فجأة بطريقة غريبة وجنونية!!!.. وكأنها فقدت عقلها أو اختل توازنها.. ترى.. هل ظهر لها شبح والدتي في السيارة مثلا وسبب لها رعبا؟ ؟!.. هذا لا يصدق.. لقد كانت والدتي تريد حمايتي وحماية أسرتي من التفكك كما يبدو.. لذا تسببت بقتل حبيبتي بوسيلة مجهولة حتى أعود إلى صوابي ولا أقدم على تلك المغامرة.

نهضت من مكاني وحبات العرق تتكاثف بغزارة على جبيني.. وانتزعت الشريط الصغير من الهاتف وأخذته بيد مرتجفة عازما على حرقه!!!.. نعم.. فلأول مرة في حياتي أشعر بالخوف من والدتي المتوفاة.. لا يمكن أن يظل هذا الشريط بحوزتي.. إنني أخشاه بشدة ولا أريد أن أحتفظ به.

لقد كنت أتساءل في فترة المراهقة.. كيف تنتقل المعلومات عبر أسلاك الهاتف؟!.. وإذا كان هناك من يرى أشباحا على أرض الواقع كما نقرأ ونسمع دائما.. فهل هناك من يستمع إلى تلك الأشباح عبر خطوط الهاتف أيضا؟ !!.. لكني الآن عثرت على الإجابة بنفسي.. وها هو الدليل بيدي قبل أن أتخلص منه.. اتصال هاتفي تلقته حبيبتي من والدتي التي توفيت منذ 10 سنوات.. وقد أعادت حياتي إلى ما كانت عليه رغم أنفي!!.

وهذا ليس كل شيء.. فهناك مشكلة أخرى طرأت في ذهني للتو.. مشكلة مخيفة تجعلني أشعر وكأنني محاصر تماما إلى درجة الاختناق.. فقد كانت الاتصالات ترد من بيتي كما علمنا من خدمة كاشف الرقم.. هذا يعني أن شبح والدتي يسكن في بيتي!!!.. إنه دليل لا يقبل الشك.. كيف سأبقى في هذا البيت بعد أن عرفت أن هناك شبحا يسكنه؟؟!!.. كيف سأحتمل تخيل ما قد يحدث عندما أبحث عن مفتاح النور في أي مكان مظلم في البيت وأشعر فجأة بيد باردة تلامس يدي؟!!.

هذا يفوق كل احتمال.. لقد أصبحت أخشى بيتي فجأة.. أخشى كل ركن فيه.. بل وأخشى دخول الحمام بمفردي.. سأخبر زوجتي أنني عازم على بيعه وشراء بيت آخر.. لن أحتمل المبيت فيه ليلة واحدة بعد الآن.. حتى لو اضطررنا إلى الإقامة في شقة مؤقتة إلى أن أجد بيتا آخر.. بالطبع سيثير هذا تساؤلات أفراد أسرتي.. لكني لن أكترث لتساؤلاتهم.. سأجد أعذارا كثيرة أقنعهم بها.. هذا آخر ما أفكر به الآن.

عزيزي القارئ.. إن الإنسان بطبيعته يهاب الموتى دون سبب واضح.. فما بالك لو تحدث الموتى إلينا وسمعنا أصواتهم؟ ؟!.. ما بالك لو تأكدنا الآن بما لا يدع مجالا للشك أن الموتى يعيشون بيننا؟ !!.. لك أن تتخيل حالتي النفسية.

هذه هي قصتي.. أعلم أن البعض لن يصدقها وسيتهمني بالكذب أو الجنون.. لكن لدي أدلة مؤكدة على صحة كلامي.. الشريط الذي قمت بإتلافه والذي يحوي تسجيلا سمعته عدة مرات لصوت والدتي المتوفاة وهي تهدد حبيبتي بالقتل.. قيادة حبيبتي لسيارتها بطريقة جنونية مفاجئة كما يقول الشهود.. إنها أدلة لا تقبل الشك.

لقد تعلمت من قصتي هذه أن الموتى ليسوا صامتين دوما كما نظن.. فهم موجودون فعليا حولنا.. يراقبوننا.. ويراقبون تحركاتنا.. وربما يتدخلون أحيانا في حياتنا ظنا منهم أنهم يصلحون ما نفسده.. تماما كما حدث معي!!!.. فقد ثبت كل هذا الآن بعد الأحداث المهولة التي مرت بها حبيبتي.. وبعد تلك الاتصالات المخيفة من والدتي.. والدتي المتوفاة!!!.

صدى الماضي

كانت هذه زيارتي الأولى لمملكة (البحرين).. وهو أمر قد يكون غريبا بعض الشيء.. فعادة ما تجد المواطن الخليجي قد زار جميع دول الخليج تقريبا.. لقرب المسافة بالطبع ولوجود الكثير من المرافق السياحية فيها.. بالإضافة إلى أمور كثيرة أخرى لا تخفى علينا.. كتشابه العادات والتقاليد والطباع والمستوى المعيشي والعلاقات الاجتماعية.. وكل ما يجعلك تشعر أنك لم تخرج من بلدك بعد.

أما في حالتي فالأمر يختلف.. فالواقع أنني لم أزر سوى دولة أو دولتين خليجيتين.. وذلك بسبب ظروف عملي وتجارتي التي تأخذ كل وقتي تقريبا.. خاصة وأن عمليات التبادل التجاري التي أقوم بها تحصل دائما مع شركات أجنبية بعيدة تماما عن دول الخليج.

والواقع أن الزيارة تلك لم تكن لتتم لولا إصرار زوجتي الشديد على أخذي لإجازة قصيرة لمدة 3 أيام على الأقل.. حتى أبتعد عن ضغوط العمل -على حد قولها -وخوفا على صحتي لأنني أعمل طوال الوقت تقريبا.. لذا فقد استسلمت أخيرا لرغبتها.. خاصة وأنني بدأت أشعر بالفعل أنني مرهق للغاية وأن صحتي لم تعد على ما يرام بسبب العمل الذي يلتهم كل وقتي.. ومن هنا كانت بداية قصتي الغريبة!!!.

بدأت الأحداث في الليلة الأولى من وصولنا إلى المطار ودون أي مقدمات.. إذ شعرت فجأة أن المكان مألوف للغاية.. وأنني قد رأيته كثيرا قبل هذه المرة.. نحن لا نتحدث عن تشابه المطارات مثلا واختلاطها على الإنسان بسبب كثرة السفر.. ولا عن مشاهدتي للقطات أو صور من المطار في التلفاز أو الإنترنت حتى بات مألوفا لدي.. لا.. بل إن المطار كان مألوفا بصورة غامضة أعجز عن تفسيرها لكم!!!.. حتى إنني نقلت شعوري هذا لزوجتي.. فقالت وعلى وجهها علامات الذكاء:

-نعم يا عزيزي.. جميع مطارات العالم تقريبا تتشابه.. شعورك هذا طبيعي للغاية.. و ....

حسنا.. لم أستمع إلى باقي كلامها.. فهذا ما توقعته منها.. وعلى كل حال.. كان من الممكن تجاهل تلك النقطة وألا أعيرها أي اهتمام.

بعد خروجنا من المطار.. فوجئنا بعدم وجود السيارة الفاخرة لإيصالنا إلى الفندق.. وهي خدمة مجانية يقدمها ذلك الفندق الشهير لزبائنه.. فاقترحت على زوجتي أن ننسى الأمر وأن نأخذ سيارة أجرة.. لكنها أصرت بحماس على أن تتوفر في إجازتنا كل وسائل الرفاهية الممكنة.. لذا أخرجت هاتفها النقال واتصلت بإدارة الفندق لتشكو عدم وجود السيارة الموعودة.. فاعتذروا لها كثيرا عن هذا الخطأ ووعدوا بإرسال سيارتهم خلال 10 دقائق على الأكثر.

وبالفعل.. جرت بعدها الأمور بصورة طبيعية.. حيث وصلنا إلى الفندق أخيرا.. وتوجهنا مباشرة إلى موظف الاستقبال الذي رحب بنا بحرارة كعادة جميع موظفي الاستقبال في فنادق العالم.. قبل أن يسألني عن اسمي للتأكد من وجود الحجز.. فقلت مبتسما وبتلقائية واضحة:

-(وليد حسن ال ...)!!!!.

قلت هذا قبل أن تحدق بي زوجتي باستغراب واضح.. وهي تقول بحرج شديد أمام الموظف:

-ماذا دهاك يا عزيزي؟!.. الرجل يسألك عن اسمك.. أخبره باسمك الحقيقي فحسب!!!..

نظرت إليها مستغربا.. ثم أدركت فجأة غباء ما فعلته!!!.. أنا لا أعرف من هو (وليد حسن ال ...)!!!!.. من أين جئت بهذا الاسم؟!.. لا أعلم!!!.. نظرت إلى موظف الاستقبال بحرج شديد وأخبرته باسمي الحقيقي.. ثم نظرت إلى زوجتي وقلت مغمغما:

-المعذرة يا عزيزتي.. لا أعرف من أين أتيت بهذا الاسم.. بل ولا أعرف أحدا يحمل هذا الاسم أصلا!!!.. أشعر.. أشعر أنني لست على ما يرام!!!.

نظرت إلي بدورها باستغراب ثم راحت تربت على كتفي مشجعة وكأنها تريد أن تتناسى ما حدث.. أما أنا فرحت أفكر شاعرا أن هناك شيئا يسيطر عليّ ويكاد يستحوذ على شخصيتي منذ وصولنا إلى هنا.. فهل يعقل أن أنسى اسمي؟!.. هذا مستحيل!!!.. لا أحد ينسى اسمه.. ثم.. لماذا افتعلت ذلك الاسم الثلاثي الغريب الذي لم أسمع به في حياتي!!!.

ظل التساؤل يتكرر في ذهني إلى أن انتهينا أخيرا من إجراءات الحجز.. ولم تخفَ علي بالطبع نظرات الوجوم على موظف الاستقبال -وإن حاول إخفاءها- لتصرفي السخيف هذا.. يبدو أنه يظنني مجرد رجل عابث في حالة سكر ربما.. ولا ألومه على ذلك.

لكني حاولت أن أتجاهل ما حدث رغم غرابته.. ورحت أحاول الاستمتاع بجمال الفندق وفترة إجازتي بعيدا عن الضغوط.. فقضينا بضع ساعات هادئة في الغرفة أزاحت عن كاهلي الكثير من الإرهاق بالفعل.. رغم أننا ما زلنا في الساعات الأولى من وصولنا والوقت لا يزال مبكرا.

وهكذا مر الوقت إلى أن شعرنا ببعض الجوع.. فاقترحت على زوجتي أن ننزل إلى الطابق الأرضي لتناول وجبة العشاء.. خاصة وأننا اتفقنا على قضاء اليوم الأول بأكمله في الفندق.. على أن نخرج في الغد لزيارة بعض المجمعات التجارية والأماكن الترفيهية.

و.. في مطعم الفندق.. كنت جالسا مع زوجتي نتناول وجبة العشاء وقد نسينا تماما شعوري الغامض بالألفة الشديدة في المطار.. والموقف السخيف الذي حصل مع موظف الاستقبال.. حيث رحنا نتحدث حول أمور عامة مستمتعين بالأجواء الهادئة.. إلى أن لمحت شخصا يتناول عشاءه مع أحد أصدقائه على طاولة مجاورة لطاولتنا.. إنه.. إنه صديق قديم.. ياااااه.. تقابلت أعيننا.. فنهض كلانا من مكانه.. ورحنا نتعانق بحماس شديد ونتحدث عن الصدف التي تلعب دورها وكيف إننا لم نلتقِ في (الكويت) منذ سنوات لنلتقي أخيرا هنا في (البحرين).. و.. إلخ من كل ما يقال حين تلتقي بصديق لم تره منذ مدة طويلة.. ثم تذكرت أن زوجتي تجلس بجواري.. فتنحنحت لأقول مبتسما:

-المعذرة يا صديقي.. نسيت أن أعرفك بزوجتي.. (هديل ال...)!!!.

حدقت بي زوجتي بحدة وحرج بالغين!!!.. أما أنا فقد كدت أن أذوب خجلا بعد أن عرفت فداحة ما فعلته.. نعم.. تماما كما توقعتم.. فاسم زوجتي ليس (هديل ال ....).. لماذا نطقت بهذا الاسم إذا؟؟!!!.. لا أعرف.. صدقوني لا أعرف.. لقد خرج من فمي بصورة تلقائية للغاية وكأنه اسم اعتدت نطقه!!!.

كان موقفا في غاية الحرج.. حتى إنني حاولت تصحيح الخطأ.. وقلت اسم زوجتي الحقيقي.. بل وحاولت أن أبين لصديقي كم هي امرأة رائعة وزوجة عظيمة.. لكن.. باتت محاولاتي سخيفة للغاية.. فخرست تماما بعدها.. ليستأذننا الرجل بشيء من الحرج ويعود إلى طاولته بعد الوجوم الواضح الذي سيطر على ملامحنا جميعا.. إذ لم يجد ما يقوله بعد أن صببت كوبا من الثلج على

حرارة لقائنا.. فزوجتي ستسألني بعد قليل عن هوية (هديل) هذه!!!.. وستود أن تعرف كيف أجرؤ على نسيان اسمها وتقديمها للناس باسم آخر وهو أمر مهين إلى حد لا يوصف للزوجة وربما للزوج أيضا كما تعلمون.

أما صديقي فبكل تأكيد ابتسم في داخله وقال لنفسه قبل أن يعود إلى طاولته:

-لقد وضعت نفسك في مأزق مخيف يا عزيزي.. يجب أن تكون حذرا في المرة القادمة من ذكر اسم عشيقتك بدلا من اسم زوجتك أمام الناس!!!!.

ما إن ابتعد صديقي.. حتى حدث ما نتوقعه جميعا.. إذ بدأت زوجتي الحرب وانفجرت فجأة لتسألني بصوت هامس وهي تضغط على أسنانها من شدة الغضب:

-من هي (هديل ال...) هذه؟؟؟؟!!!.. كيف تجرؤ على تقديمي لصديقك باسم امرأة أخرى؟؟!!.. كيف تجرؤ؟!!!.. لقد وضعتني في موقف حرج للغاية.. أنا أشك منذ مدة طويلة أنك تخونني.. فلا يمكن أن يكون غيابك الدائم عن البيت بسبب تجارتك.. وها أنت الآن قد وقعت أخيرا.. أخبرني.. من هي هذه الفتاة.. زوجتك الأخرى أو عشيقتك؟؟؟!.. إنني لن أسمح........

لم أعطها فرصة لإكمال حديثها.. بل رددت بحنق بالغ:

-أقسم لك يا عزيزتي أنني لم أعرف يوما فتاة بهذا الاسم.. ولا أعرف لماذا قمت بتقديمك لصديقي بهذا الاسم أصلا.. أرجوك صدقيني.. تستطيعين تفتيش هاتفي النقال والاتصال بقائمة كل الموجودين ولن تجدي بينهم فتاة واحدة.. إن طبيعة عملي التجاري تتطلب العمل مع الرجال فقط.. إن ....

قاطعتني بعصبية:

-كيف أخطأت باسمي إذا؟ !!.. ولماذا قدمتني لصديقك على أنني (هديل)؟!.

نظرت إليها طويلا باحثا عن جواب.. ثم غمغمت باستسلام حزين لم يخلُ من الدهشة:

-لا أعرف يا عزيزتي.. صدقيني لا أعرف!!.. إنني أتصرف بطريقة غريبة منذ وصولنا هنا.. ولا أفهم سبب ذلك!!!.

نظرت إلى عيني طويلا.. وهو ما تفعله أي أنثى تحاول كشف كذب زوجها.. لكني لم أجرؤ على النظر إليها رغم أنني صادق تماما فيما أقوله وما قلته.. لم أجرؤ فحسب.. إن مشاعري وتصرفاتي متضاربة لا أفهمها أنا نفسي.. فكيف أشرحها لزوجتي!!!.

لم يكن ما حدث سوى بداية لتصرفاتي الغريبة التي كانت تحدث رغما عني وكأنني مسلوب الإرادة.. ففي نفس الليلة.. ذهبنا مبكرا إلى الفراش شاعرين بشيء من الإرهاق.. لكني لم أنم كثيرا.. إذ استيقظت فجأة بعد منتصف الليل لسبب غير مفهوم.. التفت ناحية زوجتي لأجدها نائمة وبعيدة تماما عن عالمنا..

ظللت متقلبا في الفراش لساعة أو أكثر شاعرا بأرق جعلني عاجزا تماما عن العودة إلى النوم.. فقررت الخروج من الفندق لشراء شيئا أشربه من (السوبر ماركت) في محطة الوقود المقابلة.. وربما بعض السجائر أيضا.. و.. نصف ساعة أو أكثر قليلا.. قبل أن أعود إلى الغرفة وأجلس على الكرسي الموجود في الزاوية.. وأبدأ بشرب علبة عصير البرتقال.. وأدخن سجائري بهدوء شاعرا أن الدنيا في أفضل حال ممكن.

أنظر إلى زوجتي النائمة وإلى مصباح الإضاءة الخافت.. وأفكر بما مررت به اليوم شاعرا أنني ربما أكون مصابا بمرض نفسي معين جعلني أختلق أسماء وهمية وأتصرف بطريقة مغايرة تماما لشخصيتي!!!.. إنني لم أشكُ يوما من أي أعراض كهذه.. ولا أعرف أصلا إن كانت هناك أعراض تجعلنا ننسى أسماءنا ونختلق لأنفسنا أسماء أخرى.. لكني واثق الآن أن زوجتي لم تصدق ما قلته لها وأنها ستفتش بين حاجياتي كأي زوجة تحترم نفسها!!!.. ستبحث في دولابي وفي أدراجي في البيت حال وصولنا إلى (الكويت) عن أي شيء يثبت صحة وجهة نظرها في خيانتي لها.. ستبحث كثيرا دون أن تعثر على شيء بالطبع.. فلا توجد (هديل) أو أي فتاة أخرى في حياتي كما أخبرتكم.. هذا ما أعرفه على الأقل!!!.

قطع تسلسل أفكاري استيقاظ زوجتي المفاجئ وهي تنظر إلي بدهشة حقيقية وقد طار كل أثر للنوم من عينيها قبل أن تقول باستنكار شديد:

-منذ متى تدخن السجائر؟؟!!.. ماذا يحدث لك بالضبط؟ !!..

نظرت إليها في حيرة.. ثم انتبهت إلى نفسي.. ورحت أحدق في السيجارة مذهولا.. يا إلهي.. بالفعل.. أنا.. أنا لم أدخن يوما في حياتي.. لكن.. ها أنا الآن ممسكا بالسيجارة وأدخنها ببساطة وكأنني معتاد على ذلك!!!!.

تلعثمت كثيرا وأنا لا أعرف ماذا أقول.. ثم أطفأت سيجارتي سريعا شاعرا بقلق لا حدود له وأنا أقسم لزوجتي بأغلظ الأيمان أنني لا أعرف ما دهاني.. وأنني أتصرف بطريقة تثير استغرابي أنا شخصيا منذ مجيئنا إلى هنا!!!.. و.. لأول مرة أشعر بذعر حقيقي بسبب تصرفاتي.. لقد قمت بأشياء غريبة اليوم وتصرفت أكثر من مرة وكأنني مسلوب الإرادة!!!.. وكان هذا يخيفني.. يخيفني كثيرا!!.

ولم يكن هذا كل شيء.. بل انتبهت للتو إلى أنني قد اشتريت أيضا من (السوبر ماركت) بعض المعدات الدقيقة.. مع بعض الأسلاك.. من يراها للوهلة الأولى سيظن أنني في طريقي لصنع قنبلة!!!.

لم أنم ليلتها بعد ما حدث.. فمرت ساعات الصباح الأولى بطيئة باردة والأرق يأكل كل خلايا رأسي.. إذ ظلت تصرفاتي الغريبة تثير تساؤلاتي بالدرجة الأولى.. فمن المستحيل أن يخطئ الإنسان باسمه!!!.. لاحظوا أنني لم أخطئ باسمي الأول فحسب عندما قابلت موظف الاستقبال.. بل أعطيته اسما ثلاثيا كاملا لشخص لا أعرفه ولا أعرف إن كان له وجود أصلا.. هل عرفتم من قبل أحدا أخطأ باسمه؟!.. لا أعتقد.. هل عرفتم من قبل أحدا أخطأ باسمه الثلاثي؟!.. مستحيل طبعا!!!.

في اليوم الثاني.. بدت الأمور طبيعية للغاية في البداية رغم الوجوم الذي سيطر على ملامح زوجتي بسبب أحداث الأمس.. فهي لم تقتنع بكل تأكيد بما قلته لها بخصوص (هديل).

المهم أنني توجهت مع زوجتي إلى خارج الفندق -بعد تناول وجبة الفطور -بحثا عن سيارة أجرة تقلنا إلى أحد المجمعات التجارية.. إذ لم نعد نكترث بركوب سيارات فارهة كما كنا قد خططنا وكما يناسب مستوانا الاجتماعي على حد قول زوجتي.. فما فعلته كان كفيلا بإفساد الرحلة بأكملها.

عند ركوبنا سيارة الأجرة.. طلبت من السائق وبصورة بديهية للغاية أن يأخذنا إلى أحد المجمعات

السكنية!!!.. لم يعرف سائق التاكسي المكان الذي أقصده.. فأخبرته أنني سأدله بنفسي كيف يصل إليه وعليه فقط أن يتبع إرشاداتي!!!.. نعم.. رغم أني لم أزر (البحرين) من قبل.. إلا أنني كنت أعرف المكان الذي سنتجه إليه أكثر من سائق التاكسي نفسه.. كيف؟!.. صدقوني لا أعرف.

سألتني زوجتي مصدومة وكأنها لم تعد تقوى على تحمل المزيد من المفاجآت:

-أخبرني بالله عليك.. ما الذي تفعله؟!!!.. من أنت؟!.. بدأت أشك في كل ما يتعلق بك.. أشعر أنني لم أعد أعرفك ولست زوجي الذي عشت معه سنوات طويلة!!!.. تقول أنك لم تزر (البحرين) في حياتك!!.. كيف وأنت تعرف الطريق أكثر من سائق التاكسي نفسه؟؟!!.. أنا لا أفهم ما يحدث.. بصراحة.. لقد بدأت أخشاك!!.

التفت إليها بذعر واضح.. وهو مشهد بات يتكرر كثيرا مؤخرا كما ترون.. ونظرت إلى سائق التاكسي الذي كان ينظر بدوره إلى الطريق بثبات وكأنه لا يريد إقحام نفسه في أي مشاكل.. و.. عجزت عن التفوه بحرف!!.. كنت أشعر بضياع غريب وأنا أتصرف بهذه الطريقة.. أشعر أنني لم أعد أعرف نفسي بالفعل.. هكذا فجأة وبلا سابق إنذار!!.

دارت هذه الخواطر بذهني في ثوان قليلة وزوجتي تحدق بي في شك واضح.. تنتظر مني إجابات على تساؤلاتها.. فتنحنحت وقلت بتوتر متناسيا وجود السائق:

-حبيبتي.. هل تعتقدين أنني سأخطئ بهذه الطريقة سهوا مثلا؟!.. صدقيني أنا أتصرف خارج إرادتي!!!!.

نظرت إلي بشك.. ثم قالت بإصرار وكأنها تريد أن تتبع جنوني لتعرف إلى أين سيأخذني:

-حسنا.. فلنذهب إلى ذلك المكان!!.. لنرى ماذا يوجد هناك..

سكتت للحظة ثم قالت عبارة ذات مغزى:

-ربما تكون (هديل) بانتظارك!!!.

زفرت بقوة وأنا أنظر إلى الأمام.. وشعرت بشيء من الفضول بالفعل.. ما الذي يقودني إلى ذلك المجمع السكني المجهول؟!.. لا أعرف.. لكني أعرف الطريق إليه.. رحت أرشد السائق إلى أقصر الطرق المؤدية لذلك المكان وكأنني دليل سياحي في شوارع (البحرين).. ثم.. ربع ساعة فحسب قبل أن نصل إلى وجهتنا أخيرا.. عمارة سكنية قديمة تحمل تماما الشكل الذي رسمته لها في مخيلتي!!!.. لكن اسمها يختلف!!!.. فسألت السائق مبهوتا أمام نظرات زوجتي المتحفزة:

-هذا المجمع السكني.. ألم يكن يحمل اسم (......)؟؟!.

نظر إلي السائق طويلا.. ثم قال ضاحكا وكأنه تذكر فجأة:

-يااااه.. لقد تذكرت يا سيدي.. نعم.. كان هذا اسم المجمع السكني بالفعل.. لكن قام أحد الأثرياء بشرائه عام 1993 على ما أظن.. وغير اسمه منذ ذلك الحين.. لم أكن أعرف أنك تقصد هذا المجمع تحديدا.. إذ لم يعد يحمل هذا الاسم القديم.. المعذرة!!!.

نظرت إليه دون رد.. ثم نظرت إلى زوجتي بعدم فهم!!.. لكني لم أعد أحتمل كل هذا الغموض.. فنزلت من السيارة بغضب بعد أن نقدت سائق التاكسي أجرته.. وأمرت زوجتي بصرامة أن تنزل معي وسط اعتراضها.. ثم توجهت معها إلى حارس المجمع السكني الذي كان مثالا مجسدا لبواب العمارة الذي نراه في الأفلام العربية.

ألقيت عليه تحية سريعة.. وسألته إن كانت هناك امرأة اسمها (هديل ال ...) تعيش هنا.. لكنه هز كتفيه معتذرا ونفى تماما أن يكون قد سمع هذا الاسم من قبل!!.. أمسكت زوجتي يدي وطلبت مني بصوت مرتجف أن نرحل.. يبدو أنها بدأت تخشى تصرفاتي.. لكني أفلت يدها بحدة وبطريقة فظة للغاية.. قبل أن أسأل البواب برجاء:

-من هو أقدم سكان العمارة؟!.

مط شفتيه وكأنه يتذكر.. ثم قال:

-السيد (......) على ما أعتقد.. لقد عرفت أنه كان يسكن العمارة منذ عام 1989.. إنه أقدم سكانها دون شك.

سألته برجاء:

-هل لي أن أتحدث إليه؟!..

رد ببساطة:

- بالطبع يا سيدي.. إن شقته في الطابق الثامن.. الشقة رقم (...).. تستطيع أن تأخذ المصعد وتذهب إليه.

نظرت إليه ممتنا لبساطته وطيبته المحببة.. ثم توجهت مع زوجتي إلى المصعد.. و.. لحظات قليلة.. قبل أن نصل إلى الشقة المطلوبة.. ضربت الجرس وسط همسات زوجتي التي راحت تتساءل بقلق عن غرابة تصرفاتي وما الذي أحاول الوصول إليه.. إلا أنني رجوتها أن تصمت وتنتظر حتى النهاية.. أشعر أنني في المكان الصحيح.. المكان الذي سأجد فيه تفسيرا لكل ما مررت به.

ثم.. أحدهم ينظر إلينا من العين السحرية.. لأسمع صوتا خلف الباب يسأل بارتياب عن هوية الطارق.. فقلت له إنني مع زوجتي نريد أن نتحدث معه بشأن العمارة السكنية ونسأله بعض الأسئلة إن أمكن لأننا ننوي السكن هنا.. لم يكن هناك أسهل من هذه الكذبة.

لم يرد على كلامي.. بل شعرت أنه ينظر إلينا من العين السحرية مرة أخرى.. ليفتح الباب أخيرا.. وإذا برجل من جنسية عربية يقارب عمره ال 60 عاما تقريبا.. أو هذا ما بدا لي.. كان ينظر إلي باستغراب منتظرا مني أن أبدأ الحديث.

تنحنحت بتوتر.. و:

-المعذرة يا سيدي.. هل حضرتك أقدم سكان العمارة؟!.

رد ببساطة لم تخفِ ارتيابه:

-لا أعرف يا ولدي.. لكني هنا منذ زمن بعيد.. ربما منذ عام 1989 حسبما أذكر.. إنني أحب هذا المكان كثيرا.. وربما كنت بالفعل أقدم سكان العمارة.

سألته باهتمام:

-هل تعرف رجلا يدعى (وليد حسن ال ...) أو فتاة تدعى (هديل ال...)؟!.

لا يمكن.. لا يمكن.. لا يمكن أن تفوتني نظرة الدهشة التي علت ملامح الرجل رغم أنها لم تتجاوز ثانية واحدة أو ربما أقل!!!.. بل أكاد أقسم أنه شعر بالخوف.. فقد ارتبك بشكل واضح.. لكنه حاول أن يخفي هذا بالسعال المفتعل.. ثم قال بعينين حمراوين:

-المعذرة.. أنا لا أعرف أناس بهذه الأسماء!!!.

قلت بإصرار وقد شعرت أنني وصلت للهدف المطلوب:

- بل تعرف.. إن ارتباكك واضح لا تخطئه العين.. أخبرني.. ما الذي تعرفه يا رجل؟!.. أخبرني الآن!!.

رد بقسوة أكدت شكوكي:

-أخبرتك أنني لا أعرف أناسا بهذه الأسماء.. ألا تفهم؟!!.

قالها ليصفق بعدها الباب بقوة وبمنتهى الوقاحة!!!.. هناك سر هائل لا أفهمه.. إن ما يحدث حولي مريب بالفعل.. هذا الرجل يخشى شيئا بكل تأكيد.. نظرت إلى زوجتي التي كانت تحدق بي وقد شعرت بدورها أن هناك أمرا غير عادي يحدث هنا.. الأسماء التي ذكرتها أثارت في نفس الرجل مخاوف لا أعرف سببها.. الأمر لا يحتاج إلى ذكاء.

وقفنا لفترة ليست بالقصيرة أمام باب الشقة.. نحاول أن نفكر بشيء نفعله.. ثم.. أمسكت يد زوجتي بانكسار لنخرج معا من العمارة السكنية.. إن عقلي مليء بالتساؤلات.. لكن ما هي إجاباتها؟!!!.. ليتني أعلم.. ليتني أعلم.

خرجنا من المجمع السكني.. وذهبنا إلى أحد المجمعات التجارية لقتل الوقت ومحاولة نسيان الأمور الغريبة التي تحدث لي.. لكنا بالطبع لم نستمتع إطلاقا ولم نشعر بأي اندماج مع المكان.. حتى مر الوقت ثقيلا مملا وقد شعرت بشيء من الحنين إلى العودة.. فكل ما مررت به قد حدث في تلك الإجازة اللعينة.. سنعود إلى (الكويت) بعد غد.. ربما أعود عندها إلى صوابي ويعود كل شيء كما كان عليه!!!.. وهذا يجعلني أطرح ذلك السؤال: هل ما يحدث لي مرتبط بوجودي في (البحرين) فقط؟ ؟!.. بكل تأكيد إنه كذلك.. كل ما حدث وحتى وصولي إلى شقة ذلك العجوز يؤكد كلامي!!!.

كنت أظن أن ما تعرضت له هو أسوأ ما يمكن أن يحدث.. إذ لم أظن للحظة أن الأمور ستزداد سوءا.. وأن هذا اللغز بمثابة حفرة لا قرار لها سأظل أغوص وأغوص في أعماقها دون توقف!!!.

فبعد خروجنا من المجمع التجاري في السادسة.. أو ربما السابعة مساء.. وأثناء توجهنا إلى الفندق سيرا على الأقدام لاستنشاق بعض الهواء النقي.. تعرضت لنا سيارة بيضاء من طراز جيب.. كيف تعرضت لنا؟ !!.. لقد حاولت أن تصطدم بنا أثناء عبورنا الشارع!!!.. نعم.. هكذا بكل بساطة.. وكأننا في أحد مشاهد أفلام المافيا!!!.. حتى إنني دفعت زوجتي بقوة بعيدا عن السيارة وقفزت فوقها.. مشهد يتكرر كثيرا في الأفلام لكني لم أرهُ أبدا في عالم الواقع.. ولم أتوقع يوما أن يحدث لي!!!.

نظرت حولي بذعر.. لكن السيارة ابتعدت بسرعة وسط صيحات الاستهجان والاستغراب من المارة!!!.. ليلتم حولنا الناس سريعا وراحوا يتأكدون من أننا على ما يرام ولم نصب بأذى.. في حين وقفت مع زوجتي ننظر إلى الجميع بذهول ما بعده ذهول.. لتنفجر زوجتي بالبكاء فجأة.. فاحتضنتها بقوة وأنا أنظر حولي بذعر واضح.. وأثناء هذه الفوضى.. سمعت من يقول بأسف:

-لقد حاولت أن آخذ رقم لوحة السيارة.. لكن.. هناك من قام بوضع شريط لاصق عليها لإخفاء الرقم!!!.

يا إلهي.. لقد كان هذا متعمدا إذا!!!!.. أحدهم يريد قتلنا.. من هو؟ !!.. مع من نتعامل بالضبط؟ !!.. من الذي يحاول قتلنا؟!.. ماذا يحدث حولي؟!.. سأصاب بالجنون.. هذا إذا لم أكن قد أصبت به فعليا!!.

نفضت تلك الأفكار من ذهني.. ورحت أتأكد من أننا لم نصب بأذى سوى الأذى النفسي بالطبع.. ثم سألت زوجتي إن كانت مصابة.. فهزت رأسها نفيا وهي تنتحب على كتفي.. لم يكن هناك سوى بعض الخدوش السطحية البسيطة في كتفي وعلى ركبة زوجتي لحسن الحظ.. و.. لم أعد أحتمل المزيد.. إذ أمسكت يدها بصرامة واضحة وأوقفت إحدى سيارات التاكسي.. وطلبت من السائق أن يأخذنا إلى الفندق بعد أن انفض الناس من حول المكان شيئا فشيئا.

جميع الناس يتحدثون عن جمال (البحرين) وطيبة أهلها وأماكنها السياحية.. وأنا أتعرض مع زوجتي لمحاولة قتل لا أعرف سببها!!!!.. لقد فقدت كل إحساس بالأمان.. كنت دائما أظن أن دول الخليج هي الدول الوحيدة التي يشعر فيها المرء بالأمان التام عند السفر إليها.. وهي كذلك بالفعل.. لذا فإن ما يحدث لي يفوق الوصف ولا يصدق!!!.

لقد فكرت أثناء طريق عودتنا إلى الفندق أن أتصل بالشرطة.. لكني تراجعت عن تلك الفكرة سريعا.. فباستثناء السيارة التي حاولت دهسنا.. كل شيء آخر يتعلق بتصرفاتي الغريبة لن يعني لهم شيئا.. هل سأخبرهم عن العجوز الذي قابلته قبل ساعات قليلة وأخبرته بالأسماء الموجودة في ذهني؟!.. هذا لن يعني شيئا أيضا.. ترى.. هل كان العجوز هو من تتبعنا في سيارته وحاول قتلنا؟!.. فهو ليس عجوزا بذلك المعنى الحرفي.. بل بدا لنا بصحة جيدة للغاية وربما هو قادر على القيادة ودهسنا بالسيارة.. لكن لا يوجد ما يثبت ذلك!!!.

وصلنا أخيرا إلى الفندق وقد قررت أخذ حاجياتنا الآن والذهاب فورا إلى المطار!!!.. هذه الإجازة ضاعفت همومي وزادتني قلقا وتوترا.. أقول لنفسي هذا الكلام وأنا في المصعد مع زوجتي.. حيث كان معنا رجل من جنسية عربية كما بدا لي.. وبرفقته امرأة.. زوجته ربما.

وقفنا جميعا في المصعد ننتظر الوصول إلى الطابق المطلوب.. الطريف أن غرفتينا كانتا في نفس الطابق كما هو واضح على الزر المضيء في أرقام الأدوار الموجودة على شاشة المصعد.. والأكثر طرافة أنهما خرجا معنا حين وصلنا إلى الطابق المطلوب وراحا يتبعانا إلى أن اقتربنا كثيرا من غرفتنا.. فشعرت حينها بأمر غير عادي بشأنهما.. التفت إليهما مبتسما بارتباك.. لأجد ملامح الرجل قد تجهمت فجأة وهو يخرج من جيبه مسدسا صغير الحجم صوبه إلى صدري وهو يقول سريعا قبل أن أتخذ أي رد فعل مع زوجتي:

-سأقتلكما لو نطقتما بكلمة!!!.. لا تأملا مساعدة أحد.. فكاميرات المراقبة في هذا الدور لن ترى المسدس.. لأنني أعطي ظهري للكاميرا.. افتح باب غرفتك.. سندخل معكما!!!.. هيا.. نفذ ما أقول.. إنني محترف حقيقي ولا جدوى من مقاومتي.

شعرت بيد زوجتي ترتجف بعنف وهي تمسك بيدي.. ولم أكن أنا في حال أفضل.. ليس من السهل أن تحتفظ برباطة جأشك وأحدهم يصوب مسدسه نحوك.. فامتثلت سريعا له واستدرت محاولا فتح باب الغرفة بالبطاقة الممغنطة وبيد ترتجف ذعرا.. إلى أن فتح الباب أخيرا!!.

دخلنا جميعا وأغلقت المرأة الباب بهدوء.. ثم انقلبت نظرات الرجل إلى نظرات وعيد وتهديد وكأنه سيقتلنا الآن!!!.. إذ راح يسألني بعصبية وهو يضغط على أسنانه وسط بكاء وتوسلات زوجتي التي فقدت تماما السيطرة على أعصابها:

-من أنتما؟!.. ومن أي بلد أتيتما؟!.. ولماذا أنتما في (البحرين)؟!.. هل هذه المرأة زوجتك؟!.

أجبته في ذعر واضح أمام سيل الأسئلة هذه بكل ما يريد معرفته.. وأخبرته أنني في إجازة مع زوجتي.. وأنني من (الكويت) و....

لم أكمل كلامي.. إذ أمسكني الرجل من ثيابي.. وشعرت بيده القوية وهي تهزني بعنف.. ثم راح يقول بقسوة وغضب واضحين:

-من (الكويت)؟!!!!.. لماذا؟!.. ما الذي تخطط له أيها اللعين؟!.

نظرت إليه مذعورا دون أن أفهم شيئا.. لماذا أثاره اسم بلدي إلى هذا الحد؟!!!.. لكنه لم ينتظر مني الجواب.. إذ أردف بصرامة واضحة:

- ستأتيان معنا الآن.. سنخرج جميعا من الفندق.. أقسم لك لو حاولتما ارتكاب أي حماقة.. فسأخرج المسدس من جيبي وأطلق النار عليك وعلى زوجتك.. إذا كشفت أمري أمام الناس فلن يهمني شيء بعدها.. عليّ وعلى أعدائي!!!.

قلت بحدة:

-ما الذي تعنيه؟؟!!.. أنا لا أخطط لشيء.. ثم لماذا تصفني بأنني عدوك؟!!!.. أنا لا أعرفك أصلا أيها الأحمق!!!.

تجاهل كلامي وراح يفتش الغرفة بعد أن أعطى المسدس للسيدة التي برفقته والتي قامت بدورها بتصويبه نحونا دون أن تنطق بحرف!!!.. كان يبحث ويبحث في كل مكان دون أن أجرؤ على منعه.. قبل أن يعثر على ذلك الكيس الذي ملأته بالأسلاك وبعض المعدات المنزلية الدقيقة!!!.. تلك الأشياء التي اشتريتها دون أن أعرف السبب.. فنظر إلي بحقد.. ثم قال بانتصار:

-إن شكوكنا في محلها إذا.. كنت تريد أن تصنع قنبلة منزلية ([1])؟!!!.

تراجعت مذعورا وقد شعرت أنني سيّء الحظ إلى درجة لا تصدق.. وقلت بصدق:

-أقسم لك أنني لا أعرف لماذا اشتريت تلك المعدات أصلا.

لم يكترث لكلامي الذي بدا سخيفا للغاية!!!.. ثم.. أشار إلينا أن نتبعه إلى الخارج.. فأخذ المسدس وخبأه تحت الجاكيت.. وراح يمشي بجانبي بعد أن جعل زوجتي تمشي إلى جانب تلك السيدة.. لحظات قليلة قبل أن نستخدم المصعد ذاته.. ونهبط إلى قاعة الاستقبال في الفندق.. ولكن.. ما إن وصلنا هناك.. حتى التف حولنا رجال الأمن.. وفوجئنا بالشرطة تأتي من كل جانب لتقبض على الرجل والسيدة التي معه!!!!.

بالطبع سادت حالة من الهرج والمرج في قاعة استقبال الفندق.. إلا أن رجال الأمن سيطروا على الوضع سريعا.. وقد استغلوا عامل المفاجأة خير استغلال.. فقد حدث كل شيء بسرعة بالغة لم يتوقعها أحد على الإطلاق.. حتى إن ذهني المضطرب لم يستوعب ما حدث إلا بعد مرور دقائق طويلة.. تخيلوا.. كل هذا حدث في أقل من يومين!!.. إنه أمر لا يصدق!!!.

كيف عرف رجال الشرطة بما حدث وقاموا بإنقاذنا؟؟!!.. الفضل يعود لزوجتي الباسلة بكل تأكيد!!!.. نعم.. فقد اتصلت بإدارة الفندق من هاتفها النقال أثناء وجودنا في الغرفة والمسدس مصوب إلينا.. إذ وضعت يدها في حقيبتها اليدوية التي كانت بحوزتها طوال الوقت.. وحيث يوجد هاتفها النقال.. ثم ضغطت على زر إعادة الاتصال.. على آخر رقم اتصلت به بطبيعة

الحال.. وهو رقم الفندق.. هل تذكرون بداية القصة؟ ؟!.. عندما تحدثت عن عدم وجود سيارة الفندق التي كان من المفترض أن تكون باستقبالنا؟ !!.. هل تذكرون عندما اتصلت زوجتي بإدارة الفندق لإبلاغهم بإرسال السيارة؟ ؟!.. كان هذا آخر رقم اتصلَت به منذ وصولنا إلى (البحرين).. يبدو أنها تذكرت هذا الأمر عندما كنا محجوزين في غرفتنا.. لذا وضعت يدها في حقيبتها لتضغط على زر إعادة الاتصال.. دون أن ينتبه إليها الرجل الذي كان يفتش الغرفة أو المرأة التي كانت تراقبني تحديدا وتصوب مسدسها إلي بالدرجة الأولى.

ثم راحت زوجتي تبكي وتنتحب بصوت مرتفع وترجو الرجل والسيدة ألا يقتلانا.. لقد كانت تريد إيصال صوتها عبر الهاتف إلى إدارة الفندق ليعرفوا أننا في مأزق!!!.. وهكذا وصل إليهم حديثنا كاملا.. فاتصلوا بدورهم في الشرطة مباشرة.. وأجروا بحثا سريعا لمعرفة رقم غرفتنا.. ثم قاموا بنصب ذلك الكمين والقبض على الرجل مع السيدة.. لا تنسوا أن الرجل قد أضاع وقتا طويلا نسبيا في تفتيش غرفتنا.. وقد كانت الفترة كافية لحسن الحظ كي تتحرك إدارة الفندق وتطلب رجال الشرطة الذين سارعوا في المجيء ووصلوا في الوقت المناسب.. لننجو أخيرا دون أن نفهم شيئا مما يحدث.

ولم يكن من اليسير أن نفهم!!!.. فالقصة معقدة.. معقدة للغاية!!.. لقد ظننت أن إجازتي في (البحرين) ستكون لمدة 3 ليال فقط.. لكني اضطررت للبقاء هناك 3 أسابيع بسبب التحقيقات المكثفة.. نعم.. فما حدث كان أمرا لا يصدق!!.

لقد فهمت كل شيء أخيرا بعد سلسلة التحقيقات تلك.. فقد كشف رجال الشرطة عن شبكة خطيرة.. أو بقايا شبكة ماتت واندثرت منذ سنوات طويلة.. وظل أفرادها متخفين في (البحرين) منذ ذلك الحين هاربين من السلطات الأمنية!!.. أعلم أنكم لم تفهموا شيئا حتى الآن.. لذا سأشرح تفاصيل هذه القصة العجيبة بالكامل بعد سلسلة التحقيقات التي مررت بها.. وإنني أرجوكم أن تقرؤوا كلماتي جيدا لأن القصة شائكة!!!.

في أواخر صيف عام 1990.. وفي بدايات أيام غزو (العراق) لبلدي (الكويت).. تم القبض علي من قبل القوات العراقية وإرسالي إلى معتقل (بعقوبة) في (العراق).. كنت يومها في ال 20 من العمر فحسب.. لا.. لم أكن عضوا في المقاومة.. ولم يتم القبض علي لأي سبب محدد.. بل كان الهدف إخضاعي مع مجموعة من الشباب الكويتي الذين تم القبض عليهم عشوائيا لإجراء عملية غسيل مخ لنا جميعا ومن ثم العمل لصالح السلطات العراقية.. لم أكن أعرف حينها ما كانوا ينوون فعله.. فكان كل ما أتعرض له عملية تعذيب طويلة لا تتوقف يتخللها صراخي في أنني مظلوم ولم أفعل شيئا.. لكني عرفت الآن أن التعذيب الذي تعرضت له كان أصلا جزءا من عملية غسيل المخ!!!.. وغسيل المخ -إن كنتم لا تعلمون- وسيلة مارستها الكثير من الدول القمعية في السابق لتجنيد الناس للعمل في صفوفها.. وهو عبارة عن طرد لعادات وأفكار وميول اكتسبها عقل الإنسان في وقت مضى.. ومن ثم إدخال أو غرس عادات وأفكار أخرى جديدة في ذلك العقل (المغسول).

وهذا ما حدث معي.. إذ كنت أتعرض يوميا لصدمات نفسية مفاجئة.. تهديد مستمر.. إرهاق عصبي لا يتوقف كالسهر المتواصل أو النوم القصير المتقطع.. ثم الجوع والعطش الشديدين.. والمواقف المرعبة.. كتعذيب شخص آخر أمامي مثلا بصورة بشعة للغاية.. وتعذيبي أيضا بأساليب لن أصفها لكم حتى لا تحرمكم من النوم.. وهناك بكل تأكيد بعض عقاقير الهلوسة التي تفقدك عقلك تماما.

فكانت هذه العوامل مجتمعة ترهق خلايا المخ وتوصلها إلى الحافة الحرجة بحيث يصعب عليها أن تحتفظ بما تعلمته في الماضي.. فهم يضغطون عليك حتى نقطة الموت ثم ينقذونك.. ثم يعاودون الضغط عليك مرة أخرى حتى نقطة الموت أيضا.. قبل أن ينقذوك مرة أخرى.. وهكذا!!!.. إلى أن تهتز حالتك النفسية بعنف وتفقد استقرارها وتكون على حافة الانهيار العصبي.. وعندما يطلقون سراحك بعد كل هذا.. فإنك ستشعر بالعرفان لهم لإنقاذهم حياتك في تناقض عجيب لم يتمكن علم النفس من تفسيره حتى الآن.. وتنسى أنهم كانوا أنفسهم الأفراد الذين أرادوا قتلك وأنهم في الأصل أعداؤك.. كل ما ستشعر به حينها هو أنك مدينا لهم لإنقاذهم حياتك وتكون مستعدا أن تفعل كل ما يطلبونه منك.. خاصة إذا استخدموا التنويم المغناطيسي لترسيخ مبادئهم في عقلك الباطن ([2]).

المهم أنهم ظلوا يمارسون عملية تعذيب طويلة معي من أجل غسيل مخي وتجنيدي للعمل لصالحهم كما أخبرتكم.. وكان الهدف من ذلك إرسالي إلى (البحرين) في فترة الغزو لأبدو ظاهريا كأحد الكويتيين النازحين من بلدهم ومن بطش القوات العراقية.. لكنهم في واقع الأمر كانوا يريدون أن يصنعوا مني جاسوسا.. فقد كانت هناك نية لزرع جواسيس في كل دول الخليج للقيام بأعمال تخريبية في المنطقة وإثارة البلبلة بعد أن أصبحت الأراضي الخليجية مسرحا لعمليات تحرير (الكويت)!!!.

وبالطبع فإن عمليات غسيل المخ هذه لا تنجح مع الجميع.. إذ لم يحتملها بعض الأسرى واستشهدوا.. والبعض الآخر فشلت معهم العملية.. تماما كما حدث معي.. أو هذا ما ظنته السلطات العراقية في ذلك الوقت!!!.. إذ ظنوا أن عملية غسيل مخي قد فشلت.. فقاموا بالإفراج عني مع مجموعة من الأسرى بعد حرب التحرير.. حيث خرجت من الأسر وأنا في أسوأ حال ممكن بعد كل ما تعرضت له من تعذيب.. لكن في واقع الأمر.. لم يكن أحد يعلم أن عملية غسيل المخ قد نجحت معي.. وأن المعلومات التي حاولوا غرسها في عقلي الباطن ظلت موجودة فيه منذ ذلك الحين!!!.

لقد غرسوا في عقلي معلومات كاملة عن مطار (البحرين).. فقد كان من المفترض أن أقوم بتفجيره.. كما غرسوا في عقلي معلومات كاملة عن (هديل ال....) أيضا.. نعم.. إنها ابنة قائد عسكري مهم للغاية في (البحرين) في ذلك الوقت.. كان من المفترض أن أختطفها وأن أجبر والدها على تزويدي بمعلومات سرية للغاية تخص القوات الأجنبية في (البحرين).. ومن ثم تسليم تلك المعلومات للقوات العراقية.

كانت هذه هي الخطة.. وكان من المفترض أيضا أن أحمل جواز سفر مزور باسم (وليد حسن ال ...).. ومن ثم أتصرف كشاب مستهتر كي لا ألفت الأنظار ولا يكشف رجال الأمن البحريني أمري أثناء فترة إقامتي هناك في أيام الاحتلال العراقي ل(الكويت).. فتم تلقيني شرب السجائر والخمر أيضا رغم أنني لم أجد الوقت لشربه لحسن الحظ بسبب تسارع الأحداث منذ وصولي إلى هنا.

لقد ظلت المعلومات التي غرسوها في عقلي موجودة في منطقة مظلمة منسية من ذاكرتي.. ولكن.. قفزت تلك المعلومات فجأة إلى المنطقة المضيئة من الذاكرة حال وصولي إلى مطار (البحرين).. لهذا بدا لي المطار مألوفا كما ذكرت.. ولهذا أيضا كنت أتصرف بغرابة ودون وعي مني في أغلب الأحيان.. أما تلك العمارة السكنية التي قابلت فيها ذلك العجوز.. فقد كانت مقرا سريا لرجال الاستخبارات العراقية في ذلك الوقت.. ومن المفترض أن تكون محل إقامتي أيضا طوال فترة الغزو.

ولكن.. فشلت خطتهم بطبيعة الحال مع حرب تحرير (الكويت).. فأبقى نظام (العراق) على تلك الخلايا النائمة عله يحتاج إليها في المستقبل.. ليتم تزوير جوازات سفر وهويات شخصية لكل هؤلاء.. حتى يعيشوا في (البحرين) وباقي دول الخليج بعيدا عن الشبهات.. ثم انهار نظام البعث بأكمله بعدها بسنوات حين سقطت (بغداد) وتم القبض على (صدام حسين)!!!!.

لذا فقد ظلت تلك الخلايا النائمة في منطقة الخليج وأفرادها لا يملكون العودة إلى (العراق) خوفا من أن يتم القبض عليهم هناك.. فاستقر بعضهم في (البحرين) مختبئين فيها كي لا تكشف السلطات البحرينية أمرهم أيضا.. وظنوا مع مرور الأيام أن العالم قد نسيهم وأنهم يستطيعون الاختباء إلى يوم وفاتهم.. لكن.. ظهوري المفاجئ وذكري لاسمي المستعار واسم (هديل) أثار انتباههم كثيرا.. وظنوا أني سأقوم بفضحهم.. فذلك الرجل العجوز الذي قمت بزيارته.. هو أحد رجالهم وأحد بقايا الخلايا النائمة التي اندثرت.. لذا لم يخفَ عليه اسمي المستعار.. ولم يخفَ عليه اسم (هديل ال...).. ومن المستحيل أن يأتي إليه شخص ليسأله تحديدا عن هذه الأسماء إلا إذا كانت له صلة بالأمر بشكل أو بآخر.. ربما ظن أنني أعمل في أمن الدولة أو المباحث.. فشعر أنه مع زملائه في خطر.. وحاولوا قتلي وقتل السر معي إلى الأبد ظنا منهم أنني كشفت أمرهم.

لكن.. لحسن الحظ أن شيئا من هذا لم يحدث.. وأن الأمر كله قد انتهى.. بعد أن قبض رجال الأمن عليهم.. وكشفوا بقايا هذه الشبكة.. حيث أثارت تلك القضية ضجة هائلة هناك.. لكن - بالمقابل - كان هناك تعتيم إعلامي قوي للغاية أيضا على هذه القصة كي لا تثير أي مخاوف من احتمالية وجود خلايا أخرى لم يُكشف عنها بعد في (البحرين).

ورغم انتهاء كل شيء.. إلا أنني كنت مع زوجتي في أسوأ حال ممكن.. لقد كدنا أن نتعرض للقتل.. ومررنا بمواقف رهيبة.. بل وأعادت لي تلك القصة ذكرى مريرة للغاية صارعت كثيرا لنسيانها.. إلا أنني لم أربط بينها وما حدث لي مؤخرا في (البحرين) سوى الآن.. بعد أن عاد الماضي مرة أخرى ليطاردني بذكرى الأسر والتعذيب وعمليات غسيل المخ.. لكني أعلم أنني سأتعافى.. أحتاج فقط إلى بعض الوقت.. وإلى العودة لروتين الحياة حتى أنسى الأحداث السوداء التي مررت بها وأتخلص من تلك الذكريات المخيفة التي عشتها أيام الغزو.. ومن صدى الماضي.

على حافة الجنون

إنني مختلف عن الآخرين.. مهلا!!!.. أعترف أنها مقدمة غير مشجعة لأبدأ بها قصتي.. لأن كل إنسان يظن أنه مختلف بشكل أو بآخر.. لكني أرجوكم أن تستمعوا إلي وألا تظنوا أنني مجرد أحمق آخر يرغب بجذب انتباهكم.. فأنا مختلف عن الآخرين بالفعل.. وأعيش حياة غير طبيعية حقيقة لا مجازا.. حتى إنني أشعر بإحباط هائل كلما أتذكر أن علي أن أعيش إلى يوم مماتي بهذه الطريقة.. إنه أمر لا يحتمل.. لكن.. لا يوجد ما أستطيع فعله.

فقد أصبت منذ 10 سنوات تقريبا بمرض نادر غريب قد يجهله الكثيرون.. يطلق عليه اسم (متلازمة كورساكوف) ([3]).. أعرف أن أغلبكم لم يسمع بهذا المرض من قبل.. ولن ألومكم على ذلك في واقع الأمر.. فأنا أيضا لم أكن لأسمع به لو لم أُصب بأعراضه وأعاني منه طوال تلك السنوات دون أي أمل بالعلاج.

المرض عبارة عن خلل يصيب الدماغ بسبب نقص مزمن في أحد الفيتامينات.. و.. ككل الأمراض التي تصيب دماغ الإنسان.. يتسبب هذا المرض اللعين بنتائج كارثية على المصاب.. منها فقدان الذاكرة المفاجئ بين الحين والآخر.. واختراع ذكريات وهمية لم تحدث في عالم الواقع.. مع فقدان التركيز أثناء الكلام.. إذ تجدني أحيانا أتحدث في أمر ما.. ثم أخرج عن الموضوع لا شعوريا وأكمل حديثي في موضوع آخر تماما.

ولا ننسى طبعا فقدان الإحساس بالزمن.. أو ما يشبه حالة اللاوعي.. إذ أكون مستيقظا.. لكن ينساق وعيي لا شعوريا إلى عالم آخر.. لهذا السبب تجدني أنظر أحيانا إلى الساعة فأجدها الخامسة مساء مثلا.. ثم ألتفت إليها بعدها بقليل لأجد أنها تشير إلى السادسة والنصف.. وأنتبه فجأة إلى أنني قد فقدت تركيزي وإحساسي بالزمن طوال ساعة ونصف!!!.. كل هذه الأعراض المرضية الغريبة جعلت مني شابا مهزوزا مزعزعا لا يمكن أن يعيش حياة طبيعية كباقي الناس.. فنجاح الإنسان في أي مجال يعتمد على تركيزه الذهني بالدرجة الأولى كما نعلم جميعا.

لقد حاول الأطباء علاجي بكل الوسائل المتاحة.. ولكن علاج هذا المرض -مع الأسف الشديد- غير متاح.. فكل ما يفعله الأطباء مجرد تزويدي بأدوية وبرنامج علاجي محدد لإبقاء المرض على حاله فحسب كي لا يسوء الأمر أكثر وأفقد عقلي تماما.

ورغم تلك الصورة السوداء للحياة التي أعيشها منذ سن المراهقة عند اكتشاف المرض أول مرة.. إلا أنني ظللت لفترة طويلة أقاوم أعراضه وأحاول أن أمارس حياة طبيعية كباقي الناس.. فكنت مصرا -رغم صغر سني- على استمرار التحاقي بالمدرسة وإكمال تعليمي كحال جميع الأولاد.. لكن.. المرض كان أقوى مني بكثير.. نحن نتحدث عن شيء يسلبك ذاكرتك وتفكيرك وإحساسك بالزمن.. فكيف تقاومه؟!!.

لتنهار حياتي بعد ذلك شيئا فشيئا.. وأخرج من المدرسة في سن مبكرة وأقضي بعدها معظم أوقاتي في البيت.. إلى أن وصلت سن ال 18 وهو السن القانوني الذي يتيح لي العمل حسب قوانين الدولة.. فرحت أبحث عن وظيفة بسيطة تتناسب مع مؤهلاتي العلمية المتواضعة ظنا مني أنني قادر على العمل في وظيفة محدودة الجهد على الأقل.. قبل أن أرفع راية الاستسلام أخيرا بعدها بسنتين تقريبا ويتم عرضي على المجلس الطبي.. ومن ثم الحصول على التقاعد الطبي بعد أن

وجدت نفسي عاجزا عن أداء أبسط الوظائف!!!.

لقد كان هذا المرض مدمرا لحياتي كما ترون.. إذ قضى على مستقبلي التعليمي والوظيفي وعلى أي فرصة أخرى لأكون إنسانا عاديا يملك طموحا يسعى للوصول إليه.. إلا أنني ظللت أحاول وأحاول أن أبقى متفائلا وأنظر إلى الجانب المشرق من الأمور رغم تلك الصورة السوداوية والهزائم المتتالية في حياتي.

إذ كنت أردد لنفسي أن معنى حصولي على التقاعد الطبي الراحة التامة مدى الحياة دون الحاجة للعمل رغم أنني لم أكمل سن ال 20.. مع راتب شهري سيدخل في حسابي الشخصي دون أدنى جهد.. سأعيش على الأقل حياة بسيطة هادئة آمنة لا تتعدى مشاهدة التلفاز والجلوس أمام شاشة الكمبيوتر بعيدا عن صخب العالم والازدحام المروري الخانق في كل مكان من بلدنا الحبيب.

لذا فقد قمت بتجهيز غرفتي بأفضل شاشة تلفزيون وأرقى أثاث على اعتبار أنها ستكون مملكتي من الآن فصاعدا.. ولا أنسى أن أخبركم أيضا أنني قمت بتعيين ممرضة من جنسية آسيوية تأتي لزيارتي يوميا لتقوم بالعناية بي ومساعدتي من خلال برنامج علاجي أعرف جيدا أن الهدف منه ليس إلا المحافظة على البقية الباقية من خلايا دماغي كي لا تزداد أعراض المرض سوءا.

لقد جعلني هذا المرض أسيرا في البيت.. فكنت أخشى الخروج خوفا من أن أفقد الإحساس بالزمن وأجد نفسي فجأة وسط الشارع مثلا.. أو أن أكون خارج البيت وأفقد ذاكرتي بشكل مفاجئ فلا أعرف كيف أعود.. أمور كثيرة قد تحدث كما ترون لشخص مثلي عندما يخرج من بيته.. شخص لا يملك عقله إن صح التعبير!!!.. لذا كان البيت هو عالمي كله.. حيث أقيم فيه وحيدا مع والدتي بعد أن توفي والدي رحمه الله منذ بضع سنوات.. فظلت والدتي تعتني بي وتحاول قدر وسعها أن تشعرني دائما أن حياتي طبيعية.

كان هناك أمر واحد أفتقده كثيرا.. أفتقده بشدة.. نعم.. أنا أتحدث عن الحب!!!.. لقد كنت أفتقد وجود فتاة في حياتي.. فأشعر بالأسى كلما أتذكر أنني لم أرتبط يوما بأي فتاة.. والارتباط حاجة ماسة كما تعلمون لا يمكن أن يتخلى عنها أي شاب.. ربما لم أفكر كثيرا في هذا الأمر في الماضي بسبب انشغالي الدائم في البحث عن علاج لحالتي.. لكن الآن.. وبعد الحصول على التقاعد الطبي واستسلامي التام للمرض.. ومع وقت الفراغ الهائل الذي أعيشه رغم وجود كل وسائل الترفيه حولي.. بدأ الشعور شيئا فشيئا بتلك الحاجة الملحة.. الحب!!!.. أن أكون على علاقة بفتاة أحبها وأتعذب بحبها.. وأعيش معها تلك اللحظات الرومانسية الجميلة التي يقضيها الشاب ليلا عبر الهاتف مع حبيبته.. شاعرا بأمان تحت اللحاف بعيدا عن العالم الخارجي بكل شروره.. فتاة تستمع إليك وتعيش آلامك وتحتضنك وتحاول أن تشعرك أن الغد سيكون أفضل.

ولم أكن لأكتب قصتي هذه لولا حدوث ما كنت أحلم به طوال السنوات الماضية.. نعم.. إذ كانت هذه هي البداية الحقيقية لقصتي.. فقد حدث ما تمنيته بالفعل عندما التقيت بتلك الفتاة!!!.. كان هذا بالصدفة عند مشاركتي في أحد المنتديات على شبكة الإنترنت وهو المكان الوحيد الذي أستطيع من خلاله أن ألتقي بالناس دون حرج.. وبمساعدة الممرضة التي كانت تجلس بجانبي وتحاول إرجاعي إلى عالم الواقع كلما مررت بأعراض المرض.

كنت أتحاور من خلال الإنترنت مع جميع أطياف البشر في مختلف القضايا وأشكو همومي ومشكلتي الصحية شاعرا بالاطمئنان أن أحدا لا يعرفني بصفة شخصية.. فأجد تعاطفا واضحا من

الجميع.. وأكسب الكثير من الأصدقاء الذين اقتصرت علاقتي معهم عبر شبكة الإنترنت فحسب.. لكن.. كانت علاقتي بتلك الفتاة تحديدا تختلف.. لم تكن مجرد فتاة صادفتها في أحد مواقع الإنترنت وسأنسى كل شيء عنها بعد دقائق.. بل كانت مختلفة بالفعل.. إذ شعرت بتعاطفها الحاد مع حالتي الصحية.. ووجدتها تبحث طوال الوقت وبحماس شديد عن علاج لي وتخبرني عن آخر ما توصلت إليه العلوم الطبية لحالتي.. وتحاول طمأنتي دائما بكلامها عن التقدم العلمي السريع والذي لا شك أنه سيجد حلا لمشكلتي.

كانت تخبرني بكل هذا لتبث بي روح الحماس وكي تبعد عني حالة اليأس التي أصابتني.. و.. شيئا فشيئا.. توطدت علاقتنا عبر شبكة الإنترنت.. ورحنا نتحادث من خلال وسائل المحادثة الفورية حول أمور كثيرة.. لأجد منها تفاعلا كاملا واهتماما لم أجده عند أحد من قبل.. بل ووجدت نفسي مبهورا بالتشابه الكبير في ميولنا وطباعنا وأذواقنا.. إلى أن تجرأت ذات مرة.. وطلبت منها بقلق شديد أن أتحدث إليها عبر الهاتف!!!.. ثم جلست أنتظر ردة فعلها في المحادثة الفورية وقلبي يخفق بقوة وعنف.. لحظات مرت وكأنها ساعات.. قبل أن ترد علي أن لا مانع لديها!!!.

فأعطيتها رقم هاتفي النقال بلهفة شديدة والعرق البارد يتصبب مني من شدة الخجل كوني لم أتحدث من قبل مع فتاة.. ورحت أسجل سريعا على ورقة ما سأقوله لها وأحاول بنفس الوقت أن أتحدث بنبرة صوت واثقة تنال على إعجابها.. قبل أن تتصل بي بعدها بدقائق قليلة.

كانت لحظة رائعة بحق حين رن جرس هاتفي النقال.. فما إن رأيت الرقم الغريب على شاشة الهاتف.. حتى عرفت أنها هي.. فأنا لا أتلقى اتصالات كثيرة.. وأرقام الهواتف المسجلة في هاتفي لا تتجاوز ال 7 أرقام أو ربما أقل.. منها رقم طبيبي الشخصي والمشرف على حالتي.. ورقم الممرضة.. إلخ.

المهم أنني رددت على الهاتف بتوتر وفرح شديدين كوني سأتحدث مع فتاة أول مرة في حياتي.. لأجد صوتا رقيقا يسألني إن كنت فلانا.. فأجبتها سريعا بالإيجاب وقلبي يخفق كالطبل.. لاحظوا أنني لم أرَ هذه الفتاة أو أتحدث معها من قبل.. لكني رغم ذلك رجوتها أن تنتظر للحظات.. قبل أن أذهب سريعا لأطفئ النور وأقوم بتشغيل موسيقى كلاسيكية هادئة للغاية.. ثم دسست جسدي تحت اللحاف.. وأمسكت بالسماعة عازما الحديث معها حول كل شيء.. أخيرا أعيش تلك اللحظات الرومانسية الجميلة التي حلمت بها كثيرا.. أعترف أنني كنت أبحث عن أي فتاة لأفرغ كل مشاعر الحب التي سيطرت على عقلي وقلبي.. وأعترف أيضا أنني على الأرجح كنت أمثل الحب ولا أعيشه فعليا.. لكن لم أكترث كثيرا لتلك النقطة.

و.. عشت مع الفتاة ساعات هادئة لذيذة امتدت حتى أذان الفجر.. شاعرا أن الحياة لا يمكن أن تكون أجمل.. وأن تيار الحب يتدفق في شراييني ويغذي قلبي المكدود ليصبغ حياتي كلها فجأة باللون الوردي!!!.. أتحدث عن الحب رغم أنني لم أرَ الفتاة ولا أعرف عنها الكثير.. بل حادثتها عبر الهاتف فقط ولبضع ساعات.. لكن.. عندما تعيش بعيدا عن الجنس الناعم.. يظل عالمها لغزا مبهما تتمنى أن تعيشه.. وما إن تجد أي فتاة حولك.. حتى ترمي كل هذه المشاعر عليها وتغرق في حبها دون أدنى عقلانية.

ولا أنسى ما حدث في مكالمتي الأولى معها.. إذ فقدت تركيزي مرتين أو أكثر.. فأتحدث حول أمر ما لتجدني فجأة أغير دفة الحديث إلى موضوع آخر تماما.. وهناك أيضا فقداني الإحساس بالزمن أثناء حديثي معها وصمتي التام خلال تلك الفترة.. إنها أعراض المرض كما تعلمون.. لكني ما إن

أعود إلى وعيي بعد دقائق قد تمتد لتصل إلى نصف ساعة.. حتى أمسك بهاتفي النقال شاعرا بحرج بالغ.. فأجد الفتاة المسكينة بانتظاري على الناحية الأخرى من السماعة!!!.. لقد كانت متعاطفة معي إلى أبعد الحدود.. وهذا ما جعل قلبي يتعلق بها سريعا.

استمرت علاقتي بحبيبتي -التي عرفت أن اسمها (وفاء)-شهرا أو ربما أقل.. حيث عرفت عنها كل شيء وشاهدت صورها التي بدأت ترسلها لي عبر الهاتف النقال.. فعرفت كم هي رائعة الجمال يتمنى أي شاب أن يكسب رضاها.. وشعرت أنني محظوظ بحق.

لقد كنت حريصا دوما على تسجيل كل ما تخبرني به في دفتر صغير وضعته في أبرز ركن في غرفتي.. فإن مررت بأحد أعراض المرض ونسيت شيئا عن حبيبتي.. أتجه مباشرة إلى دفتر مذكراتي هذا وأجد فيه كل ما أحتاج أن أتذكره.. وكانت الممرضة تساعدني كثيرا في واقع الأمر.. فأطلب منها أن تذهب لتجلس مع والدتي كي أحصل على بعض الخصوصية مع حبيبتي.. وأطلب منها أيضا أن تأتي إلى الغرفة بين الحين والآخر لتتأكد من حالتي الذهنية ولتساعدني على استعادة وعيي وتركيزي إذا ما فقدتهما.

ومع مرور الأيام.. شعرت أنني لست قادرا على الحياة دون هذه الفتاة.. حتى وجدت أن لقاءنا أصبح حتميا.. أريد أن أرى حبيبتي (وفاء) التي أسرتني بصوتها الرقيق وصورها الجميلة التي ترسلها لي طوال الوقت.. أريد أن ألتقي بحبيبتي وأمسك بيديها وأقبلهما بشغف.

وقد التقينا أخيرا بعد بضعة أسابيع من مكالمتنا الأولى.. وبعد تردد شديد من (وفاء) في بادئ الأمر.. لكنها في النهاية رضخت لتوسلاتي.. فكان لقاؤنا الأول في مقهى (كاريبو) الشهير في منطقة (الشعب).. حيث شعرت حين رأيتها أول مرة على أرض الواقع أنني أمام تحد حقيقي مع باقي الشباب من أصحاب الشهادات والثراء وكل ما تحلم به أي فتاة!!.. خاصة وأنني أفتقر إلى أي نوع من المؤهلات.. فلا شهادة ولا ثراء ولا حتى صحة أو عقل!!!.

أما هي فقد كانت رائعة الجمال.. بل وبدت أجمل من الصور التي كانت ترسلها إلي من خلال الإنترنت.. قوامها الممشوق.. شعرها الأسود الطويل نسبيا.. ثيابها غريبة الطابع.. وكأنها جاءتني من عالم هوليوود الساحر.. حتى إنني خشيت كثيرا ألا يعجبها مظهري.. أو أن تراني أقل من توقعاتها.. لكن.. ربما كنت وسيما إلى حد ما بنظرها.. لا أعرف.. فكل فتاة لها نظرتها ومقياس وسامة خاص بها.. وعموما فإن الوسامة هي آخر ما يفكر به من هم بمثل حالتي كما تعلمون.

المهم أن لقاءنا هذا دام لساعة أو ساعتين شعرت فيهما بنظرات الحسد المستمرة من باقي الشباب الموجودين في المقهى.. ولا أنكر شعوري بشيء من الفخر والاعتزاز بالنفس أثناء وجودي معها كون هذه الفتاة لي وحدي.

كنت أسألها أحيانا كثيرة عن سبب تعلقها بي رغم المرض وعدم امتلاكي لأي مؤهلات من أي نوع!!!.. فكانت تقول إنني طيب القلب.. أختلف كثيرا عن باقي الشباب بعقولهم السطحية والذين لا هم لهم سوى أفكارهم السوداء.. تقول أيضا إن لدي مفهوما رائعا للأخلاق.. وهو أنني أحترم القوانين والنظم واللوائح ولا أتجاوزها.. وأحترم الناس مهما كانت جنسياتهم وأصولهم وأعراقهم وأديانهم.. وأنني متسامح مع الآخرين فأقبل اختلافاتهم ولا أفرض آرائي ومعتقداتي عليهم مهما كنت مقتنعا من صوابها لدرجة اليقين.. هذا ما كانت تقوله عني.. تقول أيضا إنها أحبت طيبتي -على حد قولها -وأحبّت بساطتي وشعرت أنني أحبها ومستعد لفعل المستحيل لكسب رضاها.. وفي هذا كانت محقة بالطبع!!!.

لم يفسد شيء من لذة لقائنا الأول سوى وقوعي في تلك المواقف السخيفة بسبب مرضي اللعين.. فأحيانا كنت أطرح عليها سؤالا ما.. وتجيبني بنوع من العتاب أن هذا السؤال قد طرحته 3 مرات من قبل على الأقل!!!.. فأعتذر لها بشدة.. وأفتح بعدها دفتر مذكراتي وأجد أنها محقة.. أو أن أتحدث معها قليلا.. ثم أخرس فجأة لوقت طويل بسبب مروري بحالة اللاوعي تلك!!!.. فلا أكمل حديثي إلا بعد أن تعيدني (وفاء) إلى عالمنا عندما تقوم بهز كتفي برقة شديدة وتضع يدها على يدي لتطمئن علي.. وكان هذا أروع ما في علاقتنا.. إنها تعرف كل شيء عني.. ولا يوجد هناك ما أخفيه عنها.

ورغم أنني لم أخبر والدتي بقصة حبي.. إلا أنها شعرت أن هناك شيئا مبهجا في حياتي.. إذ باتت تراني مبتسما طوال الوقت.. أتحدث عبر الهاتف كثيرا على غير عادتي.. فتتركني مبتسمة وقد سرها كثيرا أن هناك فتاة تهتم لأمري.. لم أخبرها بهذا.. لكني واثق أنها تعرف كل شيء.. الأمر لا يحتاج إلى ذكاء.

كانت أيام جميلة كما ترون.. لكن.. ككل الأيام الجميلة.. كان لا بد وأن تنتهي.. فقد حدث أمر رهيب تغير على إثره كل شيء.. ووجدت نفسي أمام كارثة حقيقية لم أكن أظن أنني سأواجهها يوما!!!.

حدث ذلك عندما طلبت مني (وفاء) زيارتها في شقة شقيقتها لنقضي بعض الوقت معا بعيدا عن أعين المتطفلين.. إذ أخبرتني أن شقيقتها المتزوجة حديثا قد سافرت مع زوجها لقضاء شهر العسل.. وأنهما قد تركا مفتاح الشقة معها.. لذا فقد رجتني كثيرا أن نستغل هذه الفرصة وأن نلتقي هناك!!!.

لقد فاجأني طلبها هذا كثيرا.. لكنها أقسمت لي أنها لم تفعل شيئا كهذا من قبل.. ولا تسعى للعبث بأي شكل من الأشكال.. إنها تحبني كثيرا فحسب وتريد أن تقضي معي ساعات طويلة بعيدا عن أعين المتطفلين.. و.. أمام إلحاحها ورغبتي الجنونية في قضاء بعض الوقت معها.. وافقت أخيرا دون أن أنكر شعوري الشديد بالفرح لطلبها هذا.. وافقت مطمئنا إلى أنها ستعتني بي جيدا لو أصابتني نوباتي المرضية المعتادة.

في اليوم التالي.. حلقت ذقني بعناية.. ثم ارتديت أفضل ما لدي من ثياب.. وبالطبع لم يخفَ علي قلق والدتي الشديد ورجاؤها كي لا أخرج من البيت لأسباب تعرفونها جيدا.. لكني وعدتها أنني سأتصرف بطريقة تضمن عدم وقوعي في أي مشكلة.. فقد كنت أنوي الذهاب بسيارة أجرة على أن أعطي السائق العنوان مكتوبا على ورقة.. مع ورقة صغيرة أخرى وضعتها في جيبي تحوي كل البيانات الهامة التي أحتاجها عن نفسي في حالة مروري بأعراض المرض.

خرجت أخيرا من البيت.. شاعرا أنني.. أنني.. لا أعرف ما أقول ولا أستطيع أن أصف لكم شعوري.. إذ سألتقي بحبيبتي مرة أخرى.. أنا وهي فقط في شقة شقيقتها.. ساعات طويلة سنقضيها معا.. وسأخبرها بكل أسراري.. هكذا كنت أقول لنفسي رغم عدم وجود أي أسرار في حياتي سوى مرضي الذي باتت تعرف كل شيء عنه.. ربما لهذا كنت أشعر بالسعادة.. والواقع أنني لم أكن أنوي القيام بأي نقيصة أخلاقية.. كنت أريد اللقاء بحبيبتي فحسب.

وصلت أخيرا إلى مجمع سكني راق جدا حديث البناء في منطقة (الشعب البحري).. فتركت التاكسي متجها إلى الشقة المطلوبة حيث تنتظرني حبيبتي.. لحظات قليلة قبل أن أجد نفسي متوقفا عند باب الشقة.. رحت ألتقط نفسا عميقا وأتأكد من أناقتي.. لأقرع بعدها جرس الباب

بهدوء.. وأنتظر لحظات قليلة.. ثم.. شعرت بوجود عين تنظر من فتحة الباب لمعرفة هوية الطارق.. الباب يفتح بهدوء شديد.. لأجد حبيبتي أخيرا في أبهى حلة!!!.

يا إلهي.. كانت رائعة.. رائعة.. حتى إنني أمسكت يديها لا شعوريا ودمعت عيناي تأثرا بكل هذا الجمال وهذه الرقة.. فسحبتني إلى الداخل لأتبعها طواعية.. بكل تأكيد.. فتاة كهذه.. مستعد أن أتبعها إلى نهاية العالم!!.

دخلت الشقة.. ووجدتها مليئة بالشموع الخلابة.. تلك التي تعطي رائحة الفواكه.. وأخرى تعطي رائحة الفانيلا.. حتى بدا الأمر وكأنني في حديقة غناء في إحدى دول أوروبا.. جلست في صالة الاستقبال وأنا أنظر إليها هي فحسب.. لم ينتابني أي فضول لأرى المكان نفسه.. فأي مكان توجد فيه هذه الفتاة سيكون جنتي دون شك.. هكذا كنت أقول لنفسي.. وهكذا كنت أشعر.

جلسنا في عالمنا الوردي نتحدث بهيام حول أمور كثيرة لا أذكرها الآن.. فقد كنت مفتونا مسحورا.. أمسك يديها طوال الوقت وأنا أنظر إليها غير مصدق أن هذه الفتاة لي.. قبل أن.. قبل أن تأتي اللحظة التي أخشاها.. لأشعر أنني أفقد تركيزي.. ووعيي ينسحب مني ببطء.. أحاول رغم كل شيء أن أقاوم لكني عاجز عن ذلك!!!.. اللعنة.. سأفقد إحساسي بما حولي.. إنني .....

انقطع تسلسل أفكاري تماما.. لكن.. قبل أن يحدث هذا.. فوجئت بحبيبتي وهي تحدق بي بدهشة بالغة لم أفهم سببها!!!.. ثم.. صراخها!!!!.. نعم.. لقد كانت تصرخ برعب هائل وهي ترى وعيي ينسحب مني.. هل شعرت بالرعب بسبب نظراتي المتصلبة؟ !!.. أعترف أن من لم يعتد على رؤيتي بهذه الصورة قد يشعر بالخوف في المرة الأولى.. فجمودي ونظراتي الثابتة قد تكون مخيفة بالفعل.. لكن ليس إلى درجة الصراخ!!!.. ثم إن حبيبتي تعرف حالتي الصحية وتعرف مرضي جيدا.. كما أنها رأتني بهذه الحالة من قبل.. لماذا تشعر بالخوف هذه المرة تحديدا؟ ؟!.. المهم أنني لم أجد الوقت للتفكير بالإجابة على تلك التساؤلات التي دارت في ذهني لجزء من الثانية قبل أن يغيب عقلي عن العالم!!!.

لا أدري كم من الوقت ظللت فاقدا إحساسي بما يدور حولي.. بل ولم أنظر حتى إلى الساعة.. إذ كان هذا آخر ما فكرت به عندما صحوت فجأة وعدت إلى طبيعتي.. إذ وجدت نفسي ممسكا سكين حاد تقطر منها الدماء بشكل درامي مخيف!!!.. تماما كما يحدث في الأفلام.. وبجانبي وجدت حبيبتي ترقد جثة هامدة ممزقة على الأرض والدماء تملأ ثيابها وتلوث قميصها الوردي الجميل!!!.

لم أكن أشعر بالخوف حين رأيت كل هذا عند عودتي لحالتي الطبيعية.. بل كان المنظر أقوى من الخوف نفسه.. حتى إنني وقفت على الأرض مذهولا وأنا ألتفت حولي بذعر حقيقي أفقدني كل تعقل.. ثم.. انتبهت إلى يدي الممسكة بالسكين.. فرميتها بكل قوتي بعيدا عني.. وكأنني كنت ممسكا بثعبان سام!!!.. لأنتبه بعدها إلى ثيابي الملطخة بالدماء!!!.

وقعت على الأرض غير مصدق ما حدث.. يا إلهي.. هل.. هل قتلت حبيبتي دون أن أشعر؟ !!.. هل قتلتها أثناء تعرضي لتلك النوبة اللعينة؟؟!!.. لا يمكن.. هذا مستحيل.. أنا لم أتصرف بعنف طوال حياتي ولا يوجد في حالتي المرضية ما يدعو للتصرف بعنف أصلا.. هذا ما قاله جميع الأطباء الذين أشرفوا على حالتي منذ إصابتي بهذا المرض.. وهو صحيح بالطبع.. فلا توجد سابقة واحدة لي فعلت فيها شيئا شنيعا كهذا أثناء مروري بأعراض المرض.. لماذا هذه المرة تحديدا؟ !!.. لماذا؟ !!.. لماذا أقتل حبيبتي (وفاء)؟؟؟!!!.

أحاول استعادة توازني والاقتراب من جثتها.. لا.. لا أستطيع.. إنني لم أزهق روحها فقط.. بل قتلتها بوحشية.. فالدماء تملأ وجهها وثيابها.. لقد طعنتها أكثر من مرة في أماكن متفرقة.. وشوهت جثتها بحقد واضح لم أفهم ما يبرره.. لماذا فعلت كل هذا؟ !!.. لماذا فعلت كل هذا؟!!.

راح ذهني يعيد ذلك السؤال ويكرره مرة تلو الأخرى والصمت يخيم تماما على المكان سوى من دقات قلبي المكدود.. وقد بدت الإضاءة الخافتة وكل الشموع من حولي مرعبة بحق.. وكأنني أقيم طقوس شعوذة لإعادة أحد الموتى إلى الحياة.. يا له من أمر غريب.. كانت الشموع تبدو لي قمة في الرومانسية قبل ساعة أو ربما أقل.. والآن أمقتها كالجحيم ذاته!!!.

عقلي يبحث عن تفسير لما حدث.. لكني لا أجد أي تفسير غير ما تبدو عليه الأمور.. حتى إنني بعد دقائق قليلة فقدت إحساسي بالزمن مرة أخرى.. وعندما عدت إلى وعيي.. رأيت كل شيء حولي كما كان.. فرحت أبكي بصوت مرتفع شاعرا بالعجز.. واليأس.. والرعب.. وبرغبة قوية بطعن نفسي أيضا وإنهاء حياتي السخيفة بيدي!!!.. وقبل أن أقدم على هذه الخطوة.. سمعت من يطرق باب الشقة بقوة وهو يصرخ:

- هل أنتم على ما يرام؟ !!.. افتحوا الباب.. افتحوا الباب وإلا سنضطر لكسره.. نحن رجال الشرطة!!!.

كان هذا آخر ما توقعته.. إن الظروف تأخذني بإصرار حقيقي إلى الجحيم.. يا إلهي.. أي كارثة وضعت نفسي بها!!!.. صوت الطرقات يزداد قوة ويزيدني رعبا.. حتى وجدت نفسي أتجه سريعا مستسلما إلى الباب وأفتحه بيد مرتجفة.. لأجد مجموعة من رجال الشرطة.. وأحدهم يسألني بصرامة:

-يقول الجيران إنهم سمعوا صراخا مهولا.. ماذا يحدث هنا؟!.. هل أنت صاحب الشقة؟!.

لم أنطق بحرف.. فما سيراه رجال الشرطة أبلغ من أي إجابة.. وبالفعل.. ما إن انتبهوا إلى ثيابي الملطخة بالدماء.. حتى دفعوني بعنف واقتحموا المكان دون أن ينتظروا إجابتي على سؤالهم.. ليروا جثة حبيبتي في صالة الشقة والدماء تخرج بغزارة من أماكن عديدة من جسدها حيث شكّلت حولها بركة حمراء كاملة في مشهد مخيف.. وبالطبع.. كان المنظر لا يحتاج أي تعليق.. فانقضوا علي.. وقاموا بتكبيلي وجرّي إلى سيارة الشرطة التي أركبها أول مرة في حياتي!!!.

لا أعرف كيف مر الوقت بهذه السرعة.. لكني وجدت نفسي خلال ربع ساعة فقط أمام الضابط في المخفر.. ثم:

-أخبرني.. لماذا ذهبت إلى شقة الضحية؟!.. هل كنت تعرف الفتاة؟!.. ولماذا قتلتها؟!!.

أومأت برأسي إيجابا بعينين دامعتين وأنا أنظر حولي بارتباك شديد.. فأردف الضابط بقسوة:

-أريدك أن تتحدث وتجيب على أسئلتي.. لا أن تهز رأسك أيها الأحمق!!!.

انهرت تماما أمام تلك الإهانة.. وأجهشت في البكاء بشكل مفاجئ شاعرا أنني مظلوم إلى أقصى الحدود.. قبل أن أخرج تلك الورقة اللعينة من جيبي وأناولها للضابط.. إنها ورقة حصلت عليها من المستشفى تشرح وضعي الصحي.. إذ أحملها معي دائما إذا ما تطلبت الظروف أن أثبت إصابتي بذلك المرض وأعراضه الغريبة.. ولا توجد ظروف أهم من هذه بكل تأكيد!!!.

راح الضابط يقرأ ما هو مكتوب في الورقة وأنا أقول بضراعة:

- سيدي.. كما ترى.. أنا مصاب بمرض نادر يسبب لي فقدان الإحساس بالزمن أحيانا.. وأحيانا أخرى فقدانا حادا للذاكرة أو حتى اختلاق أحداث لا وجود لها.. لقد فقدت إحساسي بالزمن وعدت إلى وعيي لأجد نفسي وقد قتلت تلك المسكينة دون أن أشعر.. إنني لم أؤذِ أحدا في حياتي.. أرجوك.. أرجوك صدقني.. لا أعرف كيف فعلت هذا.. أنا ....

قاطعني وكأنه لم يكترث بكلامي رغم الورقة التي قرأها:

-إذا أنت تعترف بقتلها؟!..

رددت بصوت حزين مضطرب:

- نعم.. لكن قتلتها دون أن أشعر.. هل تفهمني يا سيدي؟!.. تستطيع التأكد من حالتي وتعرف عنها أكثر لو اتصلت بطبيبي.

نظر إلي طويلا دون أن يرد.. ثم راح يسألني فجأة عن علاقتي بالفتاة وعن سبب مجيئي إلى شقتها.. فأخبرته بكل شيء وأقسمت له أن لقاءنا كان بريئا لم نهدف من ورائه لأي عبث.. لكنه لم يكترث لهذا الكلام أيضا.. بل أمر بحبسي على ذمة التحقيق.. هكذا بكل بساطة!!!.

شعرت برعب هائل بالطبع.. لست من مرتادي السجون ولم أشاهدها سوى في الأفلام.. فرحت أصرخ وأتوسل إليه وأخبره أنني بريء.. فكان يرد ببرود:

- لو كنت بريئا وغير مسؤول عن تصرفاتك كما تقول فإن التحقيق سيثبت هذا أو ينفيه.. لكن يستحيل أن أخلي سبيلك الآن.. وفر توسلاتك لأنك تضيع وقتنا ووقتك.

قال هذا وأمر أحد العسكريين بأخذي إلى الحبس.. لكني رجوته أن أتحدث إلى والدتي على الأقل لأنها ستموت قلقا علي بعد أن تأخرت بهذه الصورة.. فوافق على مضض وأعطاني دقيقتين فقط لأشرح لها ما حدث.. و.. لن أشعركم بالملل وأخبركم بحال والدتي المسكينة بعد أن علمت بما حدث.. فالأمر متروك لخيالكم.

ظللت في السجن يومين هما الأسوأ في حياتي رغم أنني فقدت ذاكرتي وفقدت إحساسي بالزمن خلالهما 7 أو 8 مرات وسط استغراب المساجين الذين لم يروا شيئا كهذا من قبل.. فكان شعورا مريرا أن أعود إلى حالتي الطبيعية كل مرة لأجد نفسي في السجن ونظرات الدهشة في عيون المساجين تلتهمني!!!.

المهم أنه تم إخراجي من السجن أخيرا ومن ثم نقلي إلى المستشفى تحت حراسة مشددة.. فأوصى طبيبي الخاص بحجزي في المستشفى بضعة أيام لإخضاعي للمزيد من الفحوصات.. ولكم أن تتصوروا حالتي النفسية التي انهارت تماما.. إذ نَمَت لحيتي وساءت رائحتي لعدم استحمامي أو حتى تبديلي لثيابي.. شاعرا أن لا جدوى من الحياة أصلا والأفضل أن أموت.. بل تمنيت أن أدان بارتكاب الجريمة وأن يُحكم علي بالإعدام لأنني أجبن من أن أقتل نفسي.. أقول هذا بعد أن قتلت فتاة أحلامي.. بعد أن قتلت حبي الذي مات قبل أن يبدأ.. يا لذلك المرض اللعين.. كم أكرهه.. كم أكره اسمه.. كم أكره حتى الرجل الذي اكتشفه!!!.

و.. خرج تقرير الطبيب أخيرا بعد إخضاعي لفحوصات عديدة.. ولم يكن هناك أي جديد.. إذ كان التقرير يؤكد جميع التقارير السابقة فحسب.. وهو أنني مصاب بالفعل ب (متلازمة

كورساكوف).. ذلك المرض الذي صدعت رؤوسكم به.. كما أوصى التقرير بضرورة عرض حالتي على طبيب نفسي لمعرفة سبب قتلي لحبيبتي.. وإذا ما زلت أشكل خطرا أم لا.. فهذا السلوك العدواني لست معتادا عليه!!.

وهكذا تحولت إلى فأر تجارب كما ترون معتقدا أن حياتي ستنتهي بهذه الصورة المؤلمة كنزيل لفترة طويلة في مستشفى الطب النفسي.. لكن.. لم أكن أظن للحظة أن هناك تحولات أخرى مخيفة وخطيرة للغاية ستحدث في قصتي!!!.

فبعد حوالي شهر.. زارني طبيبي الخاص والمشرف على حالتي منذ إصابتي بهذا المرض.. وتحدث بحزم واضح ينم عن خطورة ما سيقوله:

-هناك تطور مهم في قضيتك.. دعني أخبرك أولا أنني إنسان منظم للغاية.. وأعشق عملي حتى النخاع.. أعتقد أنك تعرف هذا.. وأظنك تعرف أيضا أنني أدخل بيانات مرضاي بالكامل في جهاز الكمبيوتر الخاص بي لأعثر عليها بضغطة زر متى ما أردت.. لا أتحدث عن البيانات الشخصية للمريض فحسب.. بل دراسة كاملة أعدها بنفسي عن كل حالة تصلني وتستوجب متابعة دائمة.. تماما كحالتك.. وقد فوجئت بأن هناك من عبث بجهازي واستخرج معلومات عنك منذ حوالي 3 شهور!!!!!.. لا أعرف ما يعنيه هذا.. لكن الأمر مريب.. فأنا واثق أنني نسيت أمرك تماما ولم أبحث عن أي معلومات تخصك منذ أكثر من سنة كونك تعيش في بيتك وهناك ممرضة تعتني بك!!!.

قلت بلهفة رغم أنني لم أفهم كيف سيفيدني ما أخبرني به للتو:

-هل.. هل يعني هذا شيئا؟!.

رد وهو يمط شفتيه كناية عن التفكير العميق:

-ربما.. لا أعلم.. لكني على كل حال أبلغت الشرطة بذلك.. وذكروا لي أنهم سيجرون تحقيقا حول الأمر.. لعل اكتشافي الصغير هذا يقودهم إلى شيء ما.

قلت بسخرية مريرة وقد عادت خيبة الأمل:

-تحقيق؟ ؟!.. وما الذي سيفيده التحقيق يا دكتور؟ ؟!.. كل شيء واضح.. يبدو أنني قد جننت بالفعل.. هذا المرض قد دمر حياتي وأصاب حالتي النفسية بالصميم وحولني إلى قاتل!!.

لم يعلق على كلامي.. بل ابتسم متعاطفا ثم تركني وحيدا.. دون أن يعلم كلانا أن القصة معقدة جدا وليست بالصورة التي تبدو لنا.. وأن هذا الاكتشاف الصغير الذي أخبرني به طبيبي للتو هو طرف الخيط الرئيسي لقضية أكبر بكثير مما تبدو عليه!!!.. فقد اتضح أن هناك خيوطا كثيرة متفرعة في القضية ستقود رجال الشرطة لكشف المزيد والمزيد من الألغاز.. كيف؟ ؟!.. تابعوا معي.. لكني أرجوكم أن تقرؤوا كلماتي جيدا.. لأن القصة شائكة جدا ومعقدة للغاية كما أخبرتكم.

لقد بدأت الصورة تتضح بالتدريج بعد الاكتشاف الذي أخبرني به طبيبي الخاص.. فبعد أن أجرت الشرطة بعض التحقيقات اعتمادا على تلك المعلومة الصغيرة التي عرفناها للتو.. اتضحت أمور أخرى تثير الريبة.. إذ تبين أن هناك من فتح جهاز الكمبيوتر الخاص بطبيبي بالفعل واستخرج بياناتي الكاملة لسبب مجهول.. وهذا ما جعل رجال الشرطة يقومون بتحقيق سريع في المستشفى وفحص سجلات باقي الأطباء والممرضين ليكتشفوا أن هناك طبيبا آخر لا أعرفه ولم أسمع به من قبل قد طلب إجازة طويلة بعد ارتكابي جريمة القتل بأيام قليلة!!!.. هل كان ذلك الطبيب هو من

استخرج بياناتي من جهاز الكمبيوتر الخاص بطبيبي الشخصي؟ ؟!.. نعم!!!!.. بكل تأكيد.. فبصماته كانت على الجهاز.

ولم يكن هذا كل شيء بالطبع.. فقد علمنا أيضا أن ذلك الطبيب قد سافر خلال إجازته الطويلة تلك ولم يعد حتى الآن.. وكانت برفقته فتاة!!!!!.

كما ترون.. كلما يتوغل رجال المباحث في التحقيقات.. يتم اكتشاف مفاجآت أكبر وأكبر.. فقد عرضوا علي صورة الطبيب الهارب.. لكني لم أتعرفه ولم أره في حياتي من قبل.. إلا أنني انتبهت بكل تأكيد إلى وسامته الواضحة وصغر سنه.. كما عرض علي رجال الشرطة صورة الفتاة التي سافرت برفقته.. و.. نعم.. تماما كما توقعتم.. إنها (وفاء)!!!!.. حبيبتي (وفاء) التي من المفترض أن أكون قد قتلتها!!!!.

لقد كشف رجال الشرطة كل جوانب القصة وتوصلوا بعد ذلك إلى مكانه في أوروبا مع الفتاة التي سافرت معه.. مع (وفاء).. حيث تم القبض عليهما بسرعة وسهولة بالاتفاق مع البوليس الدولي (الإنتربول).. خاصة وأنهما كانا يتصرفان بثقة ودون حذر كون الأمور قد سارت تماما كما يجب وأنهما خارج نطاق الشبهات.. إذ سافرا معا لقضاء إجازتهما وليحتفلا بنجاح خطتهما.. ولكنهم أُعيدوا إلى (الكويت) في فترة وجيزة.. لتحبط أخيرا عملية نصب ذكية للغاية لم يكن أحد ليكشف أمرها لولا ذلك الخطأ البسيط الذي اكتشفه طبيبي الخاص حين لاحظ أن أحدهم قد عبث في جهاز الكمبيوتر الشخصي الخاص به واستخرج بياناتي!!!.

دعونا نرتب الأحداث حتى يستوعبها الجميع - بما فيكم أنا - فقد بدأت القصة بأكملها بطبيب شاب وسيم للغاية له طموح لا حدود له.. حيث واتته فكرة عبقرية للتكسب والثراء السريع.. فراح يرسم تفاصيل خطته هذه بكل إحكام مع عشيقته.. لكن.. واجهته مشكلة واحدة.. البحث عن رجل توجَّه أصابع الاتهام إليه دون أن يعترض أو يصرخ مطالبا ببراءته.

لذا بدأ بالبحث عن مريض ذي مشكلة عقلية يصلح أن تنسب إليه هذه التهمة.. فاستغل مهنته وراح يبحث في سجلات المستشفيات وحتى أجهزة الكمبيوتر الخاصة بالأطباء عن الأمراض الغريبة والنادرة في (الكويت) من دون أن يثير شكوك أحد كونه طبيبا أيضا ومرحبا به في أي مستشفى.. فوجد بيانات كاملة - بما فيها رقم الهاتف وعنوان السكن والبريد الإلكتروني - لرجل مصاب بمرض غريب يحمل اسم (متلازمة كورساكوف).. وقد كان ذلك الرجل هو أنا بطبيعة الحال.

وبما أنني لا أخرج من البيت تقريبا.. فقد كانت الطريقة الوحيدة لإيقاعي في شباك عشيقته ومن ثم استدراجي إلى تلك الشقة هي الوصول إلي من خلال البريد الإلكتروني دون أن يثير الأمر ارتيابي.. إذ راح يجري عملية بحث طويلة في شبكة الإنترنت عن بريدي الإلكتروني ليعثر علي أخيرا في أحد المنتديات كما أخبرتكم في بداية القصة.. حيث بدأت عشيقته تنسج شباكها لتوقع بي متوقعة ضعفي الشديد تجاه هذا الأمر ورغبتي بوجود فتاة بجانبي تحبني وتتفهم بنفس الوقت ظروفي الصحية.

و.. شيئا فشيئا.. توطدت علاقتنا وبدأت أتواصل مع الفتاة في خدمة المحادثة الفورية.. ووقعت في حبها بسهولة.. فمن لا يقع في حب فتاة بهذا الجمال؟ !!.. إلى أن ألقت اللعينة بالطعم أخيرا وطلبت مني زيارتها في تلك الشقة لتضرب ضربتها وتنفذ كل ما خططت له مع عشيقها الطبيب.. والواقع أن الشقة لم تكن لشقيقتها كما أخبرتني وضحكت علي.. بل كانت شقة فتاة أخرى تشبه

(وفاء) قليلا بهيئتها الخارجية وشعرها الأسود الطويل وقامتها!!!.

نعم.. تماما كما تظنون.. لقد انتحلت (وفاء) شخصية تلك المسكينة بعد أن قتلتها بمساعدة عشيقها الطبيب في نفس يوم مجيئي إلى الشقة.. فاسم حبيبتي المزيفة لم يكن (وفاء).. بل (سلوى)!!.

لقد اختبأ الطبيب في تلك الشقة وخبأ جثة (وفاء) الحقيقية لحين وصولي ومن ثم انتظار وقوعي في حالة اللاوعي التي أمر بها كثيرا.. أتذكر الآن أن (سلوى) -بعد أن عرفنا اسمها الحقيقي -كانت تريدني أن أقضي أطول فترة ممكنة معها في الشقة.. لقد ظننت أنها تفعل هذا لأنها تحبني.. يا لي من أحمق.

كانت الخطة تتمثل بانتظار وقوعي في حالة اللاوعي ليخرج عشيقها الطبيب من الغرفة التي اختبأ فيها طوال الوقت مع جثة (وفاء).. ليضعها على الأرض بعد أن قاما بتشويهها بصورة تصعب علي التعرف على ملامحها.. ومن ثم استبدال ثيابها بثياب (سلوى).. ليتم بعدها وضع سلاح الجريمة بهدوء في يدي دون أن أشعر!!!.. أمر كهذا لن يتطلب أكثر من دقائق معدودة.

وعندما استيقظت من حالة اللاوعي.. فوجئت بوجود جثة الفتاة هامدة مشوهة ملقية على الأرض والدماء تنفجر منها.. فظننت أنها حبيبتي.. كما فوجئت بوجود السكين في يدي وثيابي ملطخة بالدماء.. لأظن أنني أنا من ارتكب الجريمة!!!.. ولتسير خطتهم باقتدار شديد وعبقرية مريضة لا أحسدهم عليها!!!.

لماذا فعلا كل هذا؟ !!.. من أجل المال بكل تأكيد.. فالقتيلة التي انتحلت (سلوى) شخصيتها كانت في واقع الأمر عشيقة أيضا ولكن لرجل ثري للغاية واسع النفوذ يكبرها بسنوات طويلة.. حيث كان يزورها في السر حتى لا ينكشف أمره أمام زوجته وأبنائه.. وقد أسكَنَها في مجمع سكني فخم وهو الذي ذهبت إليه دون أن أعرف ما يدور حولي حينها!!!.

لقد أغدق ذلك الثري بالمال والمجوهرات على عشيقته.. حتى باتت تملك من المجوهرات في شقتها ما يساوي ثروة حقيقية!!!.. وكانت تلك المجوهرات هدف ذلك الطبيب المجرم مع عشيقته.. كيف عرف بوجود المجوهرات في تلك الشقة؟ !!.. بل كيف عرف بقصة الرجل الثري وعشيقته أصلا؟!!.

كان هذا بالصدفة البحتة حسب ما اعترف به لرجال الشرطة.. إذ يمتلك ذلك الطبيب عيادة خاصة في منطقة (الشعب البحري) وهي قريبة للغاية من المجمع السكني الذي تقطنه (وفاء) الحقيقية.. فكان يشاهدها كثيرا وهي تخرج وتعود إلى شقتها.. وقد انبهر بجمالها على حد قوله.. ليستدرج حارس المجمع السكني ويعطيه بقشيشا محترما.. فأخبره الأخير بكل شيء عن الفتاة.. وأخبره كذلك أنه رأى ذلك الرجل الثري يغدق عليها بالهدايا.. إذ يزورها مرات كثيرة ممسكا بيده هدايا عديدة وأكياس أنيقة من محلات فخمة للغاية للمجوهرات.. و.. شيئا فشيئا.. تبدلت خطة الطبيب من الإيقاع بتلك الفتاة في شباكه.. إلى خطة عبقرية أخرى راح يخطط لها ويدرس ثغراتها طوال شهرين.. ليقنع بها عشيقته أخيرا.. عشيقته (سلوى).. خاصة وأن هيئة (سلوى) الخارجية تشبه (وفاء) إلى حد ما ومن الممكن أن تخدعني لو أصبحت (وفاء) جثة هامدة ممزقة مشوهة ترتدي نفس الثياب وتفور منها الدماء.

وقد كان من الصعب جدا أن أنتبه إلى ذلك بالفعل.. كما ترون.. لقد كانت جريمة عبقرية غريبة شائكة ومعقدة تم التخطيط لها بذكاء منقطع النظير.. إذ لن تكون هناك أي شبهات تدور حول

ذلك الطبيب.. لأنني سأظن أنني القاتل وأعترف بنفسي بارتكاب الجريمة.. وبهذه الطريقة سيغلق ملف القضية إلى الأبد وينعم هو مع (سلوى) بأموال المجوهرات التي سرقها والتي عرفت فيما بعد من رجال الشرطة أنها تساوي ما لا يقل عن 350 ألف دينار.

لكن.. تم كشف الجريمة بخطأ بسيط للغاية لم ينتبه إليه أحد سوى طبيبي الخاص الذي كان بطل قصتي بلا منازع.. وأصبحت مدينا له بحياتي.

ماذا حدث بعد ذلك؟ ؟!.. لا شيء.. كنت فقط مصدوما بما حدث.. ومصدوما بصورة أكبر كوني كنت طرفا رئيسيا في أحداث القصة وضحية أخرى إلى جانب الفتاة التي قتلها الطبيب مع عشيقته (سلوى).. تلك الحقيرة التي انتحلت شخصية القتيلة وراحت تتلاعب بي منذ البداية.. ورحت بدوري أتبعها بكل غباء ظنا مني أن الدنيا قد ابتسمت لي وأن فتاة بهذا الجمال من الممكن أن تقع في حب شاب مثلي!!!.

لقد انتهت أحداث هذه القصة كما ترون.. وظلت مشاعري متضاربة حول كل شيء.. سعيد لأنني لم أقتل أحدا.. حزين لأن قصة حبي بأكملها كانت خدعة.. ولأنني سأعود إلى حياتي السابقة كما كانت.. بعد أن عشت لحظات وردية جميلة مع (وفاء) المزيفة.. لحظات أشبعت فيها تعطشي الشديد للحب.. حتى وإن كانت زائفة.

أعتقد أن عزائي الوحيد أنني عرفت أخيرا أنني ربما أكون مريضا.. وربما ذلك المرض قد دمر مستقبلي بالفعل.. إلا أنني ما زلت أحتفظ على الأقل بقيمي في الحياة ومبادئي.. والتي -للأسف- اكتشفت أن الكثيرين ممن يمتلكون الشهادات العليا والوسامة يفتقرون إليها.. كما تأكدت أيضا أنني ما زلت محتفظا بعقلي.. وأنني لم أكن مجنونا يوما.. وإن كانت أحداث تلك القصة الشائكة جعلتني أقترب كثيرا من فقدان ما تبقى لي من عقل.. وأن أكون على الحافة.. على حافة الجنون!!!.

السرداب

أنا لا أحب عملي.. على الأرجح ستقولون إن هذا أمر طبيعي.. فالأغلبية لا يحبون عملهم ما لم يشعروا أنه بمثابة رسالة مقدسة كما يفعل بعض المدرسين أو الأطباء مثلا.. أو يجدونه مجزيا كحال رجال الأعمال.. نعم.. أنا لا أحب عملي ولن أحبه يوما.. كان هذا أول ما خطر بذهني حين استدعيت لموقع الجريمة قبل منتصف الليل بقليل.. فبعد كل هذه الأعوام.. ما زلت عاجزا عن تحمل منظر الجثث الممزقة وأمقت رائحة الدم.

لا شك أنكم عرفتم مهنتي بعد تلك المقدمة.. أنا ضابط شرطة بالفعل.. وقد عرفت حقيقة مخيفة بعد أعوام من ممارسة عملي.. وهي أن كل إنسان من الممكن أن يزيل عن نفسه قناع التحضر ويفعل أي شيء إذا أصابته حالة جنون وقتية.. لذا فقد تهالك قلبي من هول ما رأيت من جرائم.. وزادني هذا طيبة ورقّة!!!.

وهو أمر غريب بحق.. إذ عادة ما تكون لتلك الجرائم آثارها السلبية على من يعيش أحداثها ويحقق فيها.. أما أنا فلم أشتم أو أصفع متهما في حياتي.. ولم أستغل سلطتي قط لتمرير معاملة حكومية لي.. لكن رغم ذلك.. يراني المواطن العادي أحيانا كثيرة مجرد ضابط مغرور يستغل سلطته بسادية مطلقة. المهم.. كنت أقول إنني استدعيت للتحقيق في جريمة قتل في وقت متأخر نسبيا من الليل.. فنهضت من فراشي بتثاقل شديد وارتديت ثيابا ثقيلة أصرت زوجتي على أن أرتديها احتراسا من البرد.. ولا أعرف كيف أحترس من البرد بينما كل ذرّة في أجواء (الكويت) باردة في هذا الوقت من السنة.

ها أنا متجه إلى موقع الجريمة مع أحد رجال الشرطة الذي راح يقود السيارة بحذر وسط أمطار غزيرة جدا جعلت من الطريق بحيرة من الوحل.. لكني رغم ذلك أحاول التركيز مع كلام الشرطي الذي راح يشرح لي تفاصيل الجريمة باستغراب شديد.. حتى شعرت لأول مرة بفضول حقيقي لمتابعة أحداثها.

القضية بسيطة للغاية ومعقدة جدا بنفس الوقت.. وهي -باختصار شديد- تتعلق ببقاء رجل في سرداب مغلق من الداخل في بيته بمنطقة (الفيحاء) منذ 3 أيام تقريبا..

وعندما قاموا بفتح الباب عنوة خوفا من أن يكون مكروه قد أصابه.. لم يعثروا على أي أثر للرجل.. بل وجدوا بالمقابل هيكلا عظميا!!!.. انتبهوا لكلماتي جيدا.. لم يتم العثور على الهيكل العظمي بعد عملية حفر مثلا.. بل فوجئ أصحاب البيت بوجوده في السرداب فحسب.. هكذا بكل بساطة!!!.

لقد أثار الأمر انتباهي كثيرا دون شك.. كيف يموت الرجل منذ 3 أيام ويتحول إلى هيكل عظمي بهذه السرعة؟ !!.. فالجثة تتطلب فترة طويلة للغاية لتتحلل كلية كما نعلم جميعا.. هل قام أحدهم بالتسلل إلى البيت وخطف الرجل من السرداب ثم وضع الهيكل العظمي بدلا منه؟ ؟!.. لماذا يفعل ذلك أصلا؟ !!.. بل كيف سيتسلل أحد إلى السرداب إذا كان بابه مقفلا من الداخل؟!.

ظللت أطرح تلك التساؤلات.. إلى أن وصلنا أخيرا إلى مسرح الجريمة -إن كانت هناك بالفعل جريمة- فبدا لي البيت قديما للغاية أهمله أصحابه تماما.. حتى إنهم ما زالوا يستخدمون فيه

أجهزة التكييف القديمة.. المهم أنني ترجلت من سيارتي.. ومررت بين دوريات الشرطة ورجال الطب الجنائي الذين تكدسوا حول البيت.. وهو منظر مكرر أمر به كثيرا.. لذا لم أعره أي اهتمام.

ما إن دخلت إلى ساحة البيت الداخلية.. حتى وجدت خادمة من جنسية آسيوية تبكي بذعر حقيقي بينما يحاول مجموعة من رجال الشرطة تهدئتها.. إلا أنني أشرت لهم بالابتعاد.. وأخذت الخادمة معي إلى داخل البيت الذي لم يختلف عما يبدو عليه من الخارج.. إلا أنه كان بالغ النظافة والحق يقال.

جلست في الصالة مقابل الخادمة.. أحاول تهدئتها بلطف إلى أن نجحت في ذلك شيئا فشيئا.. عندها فقط.. طلبت منها أن تأخذني حيث مكان الهيكل العظمي الذي حرص الجميع ألا يلمسه لحين وصولي.. فنهضت من مكانها دون أي كلمة.. وراحت تقودني بانكسار واضح إلى السرداب كما يبدو.. و.. كان ما رأيته لا يصدق!!!!.. لقد توقعت كل شيء.. كل شيء.. إلا هذا!!!!!.

سرداب غريب مخيف الشكل لم أرَ مثله في حياتي.. حيث قسِّم بطريقة غير مفهومة.. فأرضه كانت رملية لم يوضع أي بلاط عليها.. وفي إحدى الزوايا كانت هناك نخلة طويلة تصارع كي تخترق سقف السرداب.. نخلة في سرداب بيت؟؟؟!!.. أقسم لكم أن هذه هي الحقيقة!!!.. وفي زاوية أخرى أرى سورا خشبيا بدائيا تم وضعه حتى بات وكأنه حظيرة صغيرة للدجاج!!!.

وأخيرا.. كان هناك ذلك الصندوق الأسود الكبير والذي يحتل مساحة كبيرة نسبيا حتى لتستطيع أن تضع فيه آدميا بكامل هيئته.. وكان الصندوق قذرا للغاية سطحه مليء بالأتربة مما يوحي أن أحدا لم يفتحه منذ زمن!!!.. ولا أنسى بالطبع جدران السرداب.. إذ كانت مغطاة بأكملها بمرايا ضخمة عاكسة.. كل واحدة منها تحتل جانبا كاملا من الحائط.. وكأنك في غرفة قياس الملابس في أحد المحلات التجارية!!!!.

أنظر حولي باستغراب شديد محاولا استيعاب كل هذا الحشد من علامات الاستفهام!!!.. ثم.. فعلت أول ما خطر ببالي.. إذ أمسكت بحافة الصندوق الأسود لأفتحه بشيء من الصعوبة بسبب ثقله آملا ألا أجد فيه جثة.. لكني وجدت بالمقابل كمية هائلة من الأسلاك والدوائر الكهربائية المتصلة ببعضها بشكل معقد جدا واحترافي للغاية كما بدا لي.. أي أن هذا الصندوق هو جهاز يفعل شيئا ما.. شيئا أجهله!!!.

أما في وسط السرداب.. فقد كان الهيكل العظمي مرميا بإهمال.. لكنه بدا لي سخيفا لا معنى له بعد كل الغرائب التي وجدتها هنا!!!!.. لذا وجدت نفسي أقول لا شعوريا:

-ماذا كان يحدث في هذا السرداب بحق الجحيم؟؟!.

نظرت إلى الخادمة مستفهما.. فهزت رأسها كناية عن عدم درايتها بشيء.. ثم أشرت إليها أن تتبعني إلى صالة المنزل مرة أخرى حتى يمكنني التحقيق معها وتسجيل ملاحظاتي.. لكن قبل ذلك.. توجهت إلى رجال المعمل الجنائي الموجودين في الخارج.. وطلبت منهم أن يقوموا بعملهم ويبدؤوا بفحص المكان وأخذ البصمات كإجراء روتيني.. مع عرض الهيكل العظمي على الطبيب الشرعي لنعرف هوية المتوفى.. وهي أمور ممكنة هذه الأيام وليست مستحيلة.. فعجائب الطب الشرعي لا تنتهي وإن كنت لا أفهم منها شيئا.

جلست في صالة المنزل.. ورحت أحدق في الخادمة التي راحت بدورها تبذل جهدا خارقا للسيطرة على أعصابها.. وطلبت منها أن تشرح لي ما يحدث.. فبدأت بسرد القصة كاملة بإنجليزية لا بأس

بها وهي تنظر إلى عيني مباشرة:

-إنني خادمة البيت.. أقيم هنا وحيدة مع السيد (عبد العزيز).. حيث أقوم بخدمته منذ أكثر من سنوات.. لقد كان يعيش منعزلا تماما عن الناس.. ويقضي وقته كله تقريبا في هذا السرداب دون أن أعرف ما كان يفعله.. إذ لم يكن يسمح لأي مخلوق بالدخول إليه.. إنني حتى لم أعرف ما يحويه السرداب سوى الآن رغم كل السنوات التي قضيتها هنا!!.

سألتها بشك واضح:

-لماذا تتحدثين عنه بصيغة المرحوم؟ !!..

ردت بحزن:

-ذلك الهيكل العظمي!!!.

قلت بصرامة:

- هل جننت؟ !!.. مهما كان مؤهلك العلمي.. فلا شك أنك تعلمين أنه لا يمكن لأي ميت أن يتحلل بهذه السرعة ويصبح هيكلا عظميا!!!.. فلماذا افترضت أن الهيكل العظمي هو ما تبقى من السيد (عبد العزيز)؟؟!!.

غمغمت بعبارات لم أفهمها.. فسألتها متجاوزا تلك النقطة مؤقتا:

-ماذا عن أفراد عائلته؟ !!..

ردت بحزن:

-لقد قضى حياته أعزبا دون زواج.. كما أن علاقته مع أقاربه مقطوعة تماما.. إذ لم يزره أحد منذ بداية عملي هنا.. بل ولا أبالغ لو قلت إنني لم أسمع هاتف البيت يرن من قبل إلا في مناسبات نادرة للغاية!!!.

سألتها باستغراب:

-كيف كان يأكل إذا؟؟!.

قالت وهي تتنهد:

- كنت أعدّ له وجباته وآتي بها إليه في السرداب.. فأطرق الباب وأنتظر قليلا.. ليفتح لي بعدها بلحظات مبتسما ويأخذ صحفة الطعام.. وبعدها ببضع ساعات أعود مرة أخرى لأجدها خالية وموجودة بالقرب من الباب.

سألتها مرة أخرى:

-ألم تتساءلي يوما ما الذي كان يفعله في السرداب طوال ذلك الوقت؟ ؟!.. ثم.. كيف تفسرين اختفاءه وظهور ذلك الهيكل العظمي بدلا منه؟ ؟!.. بل كيف يختفي الرجل أصلا من سرداب لا توجد له سوى نافذة صغيرة جدا لا تسمح بمرور أحد؟؟!!.

ردت وكأنها ستنفجر من سيل الأسئلة هذا.. حتى إنني شعرت بشفقة حادة تجاهها:

-أرجوك.. أتوسل إليك.. دعني أكمل.. وسأخبرك بكل شيء!!.

أومأت برأسي موافقا.. وقد شعرت أنني أتصرف بشكل غير احترافي بعد أن تملكني الفضول في هذه

القضية التي لم أواجه مثلها في حياتي.. فتركتها تكمل لتقول:

-لا أعرف شيئا عن وجود الهيكل العظمي يا سيدي.. فقد حدث كل شيء منذ 3 أيام فحسب.. عندما جئت إلى السيد (عبد العزيز) بوجبة العشاء إلى السرداب.. ففتح لي الباب مبتسما بشرود.. ثم أخذ صحفة الطعام ليعود ويغلق الباب وينفرد بنفسه كعادته.. وعندما عدت لآخذ الصحفة بعد ساعتين تقريبا.. لم أجدها عند الباب.. لكني لم أكترث كثيرا.. فالسيد (عبد العزيز) غريب الأطوار رغم طيبته الشديدة.. وهو رجل متقاعد منذ سنوات ولا يفعل شيئا سوى البقاء في السرداب دون أن أعرف ما يفعله هناك تحديدا.. المهم أنني طوال اليومين التاليين.. كنت آتي له بالطعام وأطرق الباب.. لكنه لم يفتح لي على الإطلاق.. حتى بدأت أشعر بالقلق في اليوم الثالث بعد أن انتبهت إلى أنه لم يأكل شيئا طوال تلك المدة!!!.. وقد بدأت أخشى أن يكون مكروه قد أصابه.. خاصة وأنه كبير في السن تجاوز عمره ال 80 عاما.. فاتصلت بالشرطة.. ليأتوا مسرعين مع سيارة إسعاف تحسبا لأي طارئ.. وقاموا بكسر الباب.. و.. لم يكن هناك وجود للسيد (عبد العزيز).. بل وجدوا هذا الهيكل العظمي بدلا منه.

نظرت إليها طويلا.. قبل أن أقول غير مصدق:

-هذا مستحيل يا امرأة.. مستحيل علميا.. لا يمكن أن تكون هذه بقايا السيد (عبد العزيز).. هناك من خطفه على الأرجح بطريقة ذكية للغاية ووضع ذلك الهيكل العظمي بدلا منه لسبب مجهول!!!.. أخبريني.. هل لاحظت أي شيء مريب في البيت في الأيام القليلة الماضية؟ !!.. أي شيء مهما كان تافها.

هزت رأسها نفيا بيأس واضح.. فلم أجد ما أقوله.. لأطلب منها أن تذهب إلى غرفتها.. ثم.. استوقفتها فجأة وقد تذكرت أمرا هاما:

- لقد قلت إن السيد (عبد العزيز) كان طيبا للغاية.. هل هذا يعني أنه كان يعطيك راتبك باستمرار ؟!.. وهل كان يتركك تسافرين للقاء عائلتك؟!.

استدارت.. ثم قالت بصوت باك:

-لم يكن طيبا فحسب.. بل كان طيبا إلى درجة لا تصدق.. لقد كان يمنحني راتبا لا تحصل عليه أي خادمة في (الكويت) رغم أنني لم أكن أفعل شيئا تقريبا.. فالبيت خال تماما كما ترى.. وكل ما أقوم به هو خدمة رجل واحد فقط يقضي وقته كله منعزلا.. إذ لم أكن أفعل سوى إعداد طعامه.. والخروج للسوق المركزي بين الحين والآخر لشراء احتياجات البيت.. حتى إنني كنت أقضي معظم وقتي أمام التلفاز.. أما موضوع السفر لرؤية أفراد عائلتي كما تقول.. فالواقع أنني لم أتزوج.. إنني في أوائل الأربعينات من عمري يا سيدي.. وقد قضيت سنوات طويلة هادئة وسعيدة في (الكويت) حتى قررت أنني لن أترك البلد إلا إذا طلب مني السيد (عبد العزيز) ذلك.. عندها فقط سأعود إلى بلدي لأعيش حياة كريمة مستفيدة من رواتبي التي لم أصرف منها شيئا تقريبا.

سمحت لها أخيرا أن تذهب إلى غرفتها.. لكني أخبرتها أنني سأضع اسمها في قائمة الممنوعين من السفر مؤقتا لحين الانتهاء من حل لغز القضية.. كما أبلغتها أنني سأعود مرة أخرى على الأرجح لفحص السرداب بدقة أكبر.

بالطبع لم يخفَ علي قلقها الشديد.. لكني لم أكترث.. بل رحت أنظر إليها والتساؤلات تملأ عقلي.. فلو كانت الخادمة قد مارست حيلة عبقرية وقتلت السيد (عبد العزيز) كما قد يبدو لنا

للوهلة الأولى.. فلماذا تنتظر كل هذه السنوات لترتكب جريمتها؟!.. ولماذا تضع هذا الهيكل العظمي في السرداب؟!.. ثم كيف دخلت إذا كان الباب مغلقا من الداخل بالمفتاح دون وجود نافذة تتسع مرورها.. وأين خبأت الجثة؟!.. لا أعتقد أنها بهذا الغباء حتى تقتل السيد (عبد العزيز) ثم تتخلص من جثته وتقوم بوضع هذا الهيكل العظمي مكانها لتقنعنا أن الجثة قد تحللت بهذه السرعة.. مستحيل أن تكون بهذا الغباء.. ولماذا تفعل كل هذا أصلا؟!!.

هناك أمر آخر انتبهت إليه للتو.. إذا كانت الخادمة قد قتلته بالفعل وسرقت أمواله مثلا.. فلماذا اتصلت بالشرطة بنفسها؟ !!.. إنها ستملك كل الوقت في العالم لتهرب إلى بلدها دون أن يكشف أحد جريمتها.. وماذا عن الأشياء الغريبة الأخرى التي عثرنا عليها في السرداب.. هل يعقل أن يزرع أحدهم نخلة في سرداب؟؟!!.. يبدو أنها حصلت على أشعة الشمس من تلك النافذة الصغيرة والتي لا تتسع لمرور أحد كما علمنا.. ثم.. ماذا عن المرايا التي تحتل جدران السرداب بأكمله بما فيها الجانب الداخلي من الباب؟ !!.. ماذا عن تلك الزاوية التي تم وضع سور خشبي بدائي حولها؟ !!.. هناك أمر لا أفهمه.. بل أمور كاملة لا أفهمها.

طردت تلك الأفكار من ذهني.. وتوجهت بعدها إلى رجال الطب الجنائي وباقي رجال الشرطة.. أنظر إليهم بترقب وهم يمارسون عملهم.. آملا أن يعثروا على شيء يكشف لنا كل هذه الألغاز.. حتى قضوا أكثر من 3 ساعات.. قبل أن يقول أحدهم بإرهاق:

-سيدي.. ذلك الصندوق الكبير.. إنه جهاز بالفعل.. لكننا لا نعرف ماهيته!!!.. فنحن لم نعثر على زر تشغيله أصلا.. وهناك تلك النخلة التي لا أفهم سبب زرعها هنا!!!.. كما إنني لا أفهم سبب وضع سور حول تلك الزاوية.

قلت بتوتر:

-أعلم.. لقد كان هذا ما يدور في ذهني منذ قليل.. أريدكم أن تأتوا بمهندس كهرباء ومهندس إلكترونيات لفحص ذلك الصندوق.. ولكن أخبرني أولا.. هل ستحفرون في تلك الزاوية المحاطة بسور خشبي؟!.. ربما كانت قبرا!!!.. ربما ستعثرون على جثة ما.

نظر إلي بفزع وكأنه لم يفكر بهذا الاحتمال.. فأصدر أوامره لجلب عاملين أو 3 على وجه السرعة للتنقيب في المكان.. و.. لم ننتظر طويلا.. حوالي ساعة أو ربما أقل.. قبل أن يأتي العمال لتبدأ عملية الحفر التي زادت الأمور غموضا.. إذ لم نعثر على أي جثث.. بل ظهرت مادة سوداء لزجة ومقززة.. رائحتها غريبة وكريهة إلى حد ما!!!.. لا.. لم تكن رائحة مياه المجاري إن كان هذا ما طرأ ببالكم.. بل رائحة أخرى شيطانية لم أشم مثلها من قبل!!!.

وضعت أصبعي لتحسس تلك المادة.. ليزداد شعوري بالتقزز.. خصوصا من الرائحة التي تخترق دماغي بعنف وتملأ المكان حتى تكاد تغرقه.. فطلبت من رجال المعمل الجنائي أخذ عينات من المادة لفحصها.. ثم.. غادروا المكان جميعا بعد أن انتهوا من عملهم.. وظللت وحيدا في مسرح الجريمة والساعة تقترب من الخامسة فجرا.. نعم.. لم أتمكن من الخروج.. فالقضية أثارت فضولي كثيرا.. إنها المرة الأولى طوال سنوات عملي في المباحث الجنائية التي أجد فيها لغزا كهذا.

لكني في النهاية وجدت أن ما أفعله لن يجدي كثيرا.. يجب أن أنتظر تقرير الطب الجنائي.. لا بد من انتظار رأي المتخصصين حتى أتمكن حينها من فهم ما يدور حولي ومن ثم القيام بدوري كرجل أمن لكشف ألغاز هذه القضية العجيبة!!!!.. وهكذا عدت إلى البيت لأنال قسطا من الراحة على أن أعود إلى العمل بعد الظهر وعقلي ما زال يعمل بأقصى طاقاته رغم الإرهاق الشديد

من السهر المتواصل طوال الليلة الماضية.

كنت أشعر بانتعاش شديد وصفاء بال كامل بعد الراحة التي حصلت عليها.. قبل أن أصطدم بتقرير الطبيب الشرعي الذي وجدته على مكتبي عند عودتي إلى العمل.. فرحت أقرأه بلهفة شديدة آملا أن أجد فيه إجابات على تساؤلاتي.. لكنه بالمقابل زاد الأمور غموضا وفجر علامات الاستفهام حتى شعرت وكأنها تتساقط كالأمطار الغزيرة حولي.. إذ كان التقرير يقول ويؤكد أن الهيكل العظمي لشخص توفي منذ أكثر من 50 عاما!!!!.

لا يمكن أن تتخيلوا مدى صدمتي.. ماذا يفعل هيكل عظمي لشخص توفي منذ أكثر من 50 عاما في بيت بمنطقة (الفيحاء)؟؟!!.. من الذي أتى به إلى البيت؟!.. كنت في البداية أصر على أن هناك جريمة قتل أو اختطاف ارتكبها شخص ما بدهاء شديد.. حيث تمكن بصورة لم أكشفها بعد من التسلل إلى السرداب - رغم الباب المقفل من الداخل - ليرتكب جريمته.. ومن ثم أخفى الجثة ووضع بدلا منها هذا الهيكل العظمي لغرض لم نعرفه بعد!!!.

رحت أبحث في التقرير عما إذا كان رجال المعمل الجنائي قد عرفوا ماهية تلك المادة السوداء المقززة.. فوجدت أنهم عجزوا تماما عن معرفة مكوناتها ويحتاجون إلى المزيد من الفحوصات وربما استشارة جهات أخرى.. لكني لم أتمكن من الانتظار.. فخرجت من المكتب سريعا متوجها إلى منزل السيد (عبد العزيز) عازما على تفتيش المكان مرة أخرى بعد أن وصل فضولي حدا لا يطاق!!!.

قرعت جرس البيت بإصرار شديد قبل أن تفتح لي الخادمة مذعورة.. فدخلت مسرعا دون أن أتحدث إليها وتوجهت إلى السرداب مباشرة.. شعرت أنني سأجن لو لم أعرف ما يحدث هنا.. هناك أمور شيطانية حدثت -وربما ما زالت تحدث -في هذا البيت.. ولا بد من كشفها.. ربما يكون السيد (عبد العزيز) حيا يرزق ويحتاج مساعدتنا.. لا أعلم.. هذا احتمال لا يمكن إهماله أيضا!!!..

دخلت السرداب وأغلقت الباب على نفسي بإحكام.. أريد أن أبقى فيه وحيدا.. وهو ما أفعله دائما عندما أحقق في أي جريمة.. أن أختلي بنفسي وأكون في مسرح الجريمة لأفحص كل شيء بدقة متناهية عدة مرات.. أشعر أن الحل هذه المرة لن يكون عاديا.. لن يكون مجرد جريمة قتل أو اختطاف.. بل أكثر من ذلك!!!.

نظرت حولي وقد ازداد استغرابي.. نعم.. لقد رأيت هذا في المرة الأولى لكنه لم يثر انتباهي كثيرا كما يحدث الآن.. فعندما نغلق باب السرداب.. تصبح كل جدران الغرفة عبارة عن مرايا.. لا تنسوا أن هناك مرآة تحتل الجانب الداخلي من الباب كما قلت لكم في البداية.. أشعر أن الغرفة في هذه الحالة تصبح معزولة تماما عن الخارج.. معزولة لعمل شيء ما.. فما هو هذا الشيء؟!!.

أنظر إلى المكان وأتفحصه مرة أخرى وأخرى.. النخلة.. الزاوية المسوّرة التي وجدنا فيها ذلك السائل الأسود اللزج!!!.. الصندوق الأسود الكبير الذي يحتل مساحة هائلة من السرداب.. من المفترض أن يأتي بعض الكهربائيين إلى هنا اليوم لفحصه ومعرفة ماهيته.. لكن.. لن أنتظر قدومهم.. سأحاول أن أعرف عنه شيئا بنفسي.. أي شيء.. أدور حول الصندوق وأمسح بيدي حول أطرافه محاولا اكتشاف زر تشغيل مثلا.. يدي تمتلئ بالأتربة التي غطته بالكامل.. مهلا.. هناك باب صغير للغاية بحجم كف اليد في الجانب الأيمن من الصندوق.. لم أكن لأشعر به لولا دقتي في التفتيش وعملية المسح التي قمت بها بيدي.

حاولت فتحه بواسطة مفتاح سيارتي.. فانفتح ببساطة لحسن الحظ.. لأجد مجموعة من الأزرار..

رحت أنظر إليها بلهفة شديدة.. أحد الأزرار زر التشغيل دون شك!!.. نعم.. إنه هو.. ذلك الزر الأحمر الصغير.. هل أضغطه؟!.. لا أدري جدوى ذلك.. ترى.. هل الجهاز قنبلة؟ !!.. مستحيل.. وإلا ستكون أسخف قنبلة رأيتها في حياتي.. قنبلة بهذا الحجم؟؟!!.

-ماذا تخبئ لنا يا سيد (عبد العزيز) من أسرار؟!.. أين أنت يا ترى؟!.. هل أنت حي وتسخر منا في أعماقك؟!.. أم إنك تحتاج إلى مساعدة ما؟!.. ما علاقتك بذلك الهيكل العظمي؟!.. هل أنت ميت؟؟!.

طرحت تلك الأسئلة في ذهني بتوتر.. ثم قررت أن أتهور.. و.. ضغطت زر التشغيل.. فراح الجهاز يهتز فجأة ويزأر بقوة مصدرا أصواتا غريبة.. ما هذا؟ !!.. وكأنني أرى موجات ضوئية تخرج منه وتمسح السرداب بأكمله.. تماما كما يحدث في قاعات الرقص التي نشاهدها في التلفاز مع الكرة البراقة المعلقة في السقف والتي تعكس الأضواء على المكان كله.

لا.. لن أنتظر أكثر.. نهضت من مكاني وأغلقت الجهاز سريعا بعد أن شعرت بشيء من الخوف لهذه الضجة الغريبة والأضواء العاكسة.. و.. أسمع دقات عنيفة على الباب.. فاتجهت إليه وفتحته لأجد عددا كبيرا من رجال الشرطة ينتظرون بترقب.. والخادمة معهم.. سألتهم بقلق:

-ما الذي يجري؟؟!.

رد أحدهم بتوتر:

-لقد تأخرت كثيرا في الداخل يا سيدي.. فشعرت الخادمة بالقلق عليك واتصلت بنا.. هل أنت بخير؟ ؟!..

قلت بصرامة:

- ماذا تعني أنني تأخرت يا رجل؟!.. لقد دخلت السرداب منذ دقائق قليلة.. متى اتصلت بكم الخادمة.. وكيف جئتم بهذه السرعة؟؟!.

نظر إلي بحيرة.. ثم غمغم قائلا:

-المعذرة يا سيدي.. لكن.. أنت موجود هنا منذ أكثر من 6 ساعات تقريبا!!!!!.

قلت بحدة وأنا أنظر إلى ساعتي:

- أي هراء هذا؟ !!.. أقول لك إنني دخلت السرداب في الثالثة عصرا.. والساعة الآن.. الساعة الآن!!!.

لم أكمل عبارتي.. فالساعة كانت تتجاوز التاسعة مساء بقليل بالفعل!!!!.. حتى إنني قلت باستغراب بالغ:

-لا أعرف ما أصاب ساعتي!!.

رد مبتسما:

-سيدي.. إنها التاسعة مساء بالفعل!!.

قلت بغضب واضح:

- كيف يا رجل؟؟!!.. هذا مستحيل.. لا يمكن أن أكون قد نسيت نفسي في السرداب 6 ساعات

كاملة.. أنا لست مجنونا.. ما زلت محتفظا بعقلي على الأقل.

نظر إلي الشرطي بقلق.. ثم قال بحزم شديد وكأنه حسم أمره:

-سيدي.. لا أحد يستطيع أن يكذب الزمن.. تستطيع التأكد من أي ساعة تريدها.. تستطيع أن تخرج من السرداب لتتأكد بنفسك.. نحن في فترة الليل بالفعل!!.

يا إلهي.. أشعر أنني سأفقد عقلي.. إن ما يحدث مستحيل.. مستحيل بكل المقاييس.. صمت للحظة وأنا أنظر حولي محاولا استيعاب الأحداث ثم أخرجت هاتفي النقال لأتأكد من الساعة.. إنها التاسعة مساء تقريبا بكل تأكيد!!!.. لكن كيف حدث هذا؟!.. كيف مر الوقت سريعا بهذه الصورة أثناء وجودي في السرداب؟؟!!.

وأمام نظراتي المتسائلة.. وقعت عيناي على يد الشرطي التي كانت تحمل مظروفا أصفر يحمل الشكل الحكومي الكئيب.. فانتبه الشرطي لذلك.. وقام بتسليمه إلي وهو يقول بشيء من الاعتذار:

-سيدي.. تفضل.. هذا هو التقرير الذي طلبته حول المادة السوداء التي عثرنا عليها في الزاوية المسوّرة.. لقد وضعته على مكتبك منذ قليل.. لكن بعد الاتصال الذي وردنا من الخادمة.. جئت بنفسي لأطمئن عليك وأسلمك إياه علّه يفيد بشيء.

نظرت إليه بدهشة والعرق بدأ يتصبب مني.. ثم أخذت منه المظروف سريعا وفتحته على عجالة.. وكان ما قرأته هو آخر ما يمكن توقعه!!!!.. هذا خارج نطاق العقل.. هذا هو المستحيل بعينه.. فالمادة السوداء كانت.. يا إلهي.. هذا مستحيل.. كانت نفط خام!!!.. نعم.. نفط خام!!!.. أي جنون هذا؟ !!.. أي غرابة أعيشها؟!.

نفط خام في سرداب بيت؟؟!!.. كيف؟؟؟!.. رحت أنظر حولي بيأس باحثا عن إجابة.. فوقعت عيناي على النخلة الموجودة في السرداب.. والتقرير الذي أمسك به بيدي.. ثم.. ذلك الصندوق الغريب.. دخولي السرداب في الثالثة عصرا وبقائي فيه دقائق معدودة لأفاجأ أنني قد قضيت فيه قرابة ال 6 ساعات دون أن أدري كيف حدث ذلك.

الأمور تتضح في ذهني شيئا فشيئا.. هل هي خبرة السنوات الماضية؟ !!.. لا أعلم.. لكني شعرت أن كل هذه الألغاز تحتشد أمامي وتصبح قطعة متماسكة تكمل بعضها بعضا.. نعم.. شعرت أن الحل قد هبط علي فجأة بعد كل ما رأيته.. فراحت عيناي تتسعان وذهني يتوصل إلى الحقيقة تدريجيا.. حتى إنني صرخت بذهول:

-يا للشيطان!!!!!.

نظر إلي الجميع بدهشة أمام ردود أفعالي الغريبة هذه.. قبل أن أقول بصوت متحشرج:

-هذا الجهاز معجزة حقيقية.. السيد (عبد العزيز).. يا له من عبقري.. إنه رجل رائع.. هذا لا يصدق.. لقد.. لقد.. لقد اخترع جهازا يقوم بتسريع الزمن!!!!.

نظر إلي الشرطي بدهشة دون أن يفهم ما أعنيه.. لكني أردفت بنفس الذهول:

-هذا هو التفسير الوحيد.. النفط يتكون من بقايا عضوية كما نعلم.. فلا شك أنه دفن في تلك الزاوية بعض الحيوانات النافقة مثلا.. ودفن معها بعض المواد الكيميائية ربما.. ثم قام بوضع سور حول مكان الدفن حتى يستطيع تمييزه كحقل لتجربته.. هذا الصندوق هو في واقع الأمر جهاز يقوم بتسريع الزمن.. فالمرايا العاكسة الموجودة على الجدران تعزل السرداب تماما عن

العالم الخارجي بطريقة علمية لم أفهمها بعد.. وعندما يعمل الجهاز.. فإن الوقت في الغرفة يمر سريعا للغاية قياسا للوقت في العالم الخارجي!!!.. يا إلهي.. بدلا من أن يتكون النفط بملايين السنين.. تجده يتكون بأيام معدودة في السرداب.. هذا الجهاز أعجوبة حقيقية.. لقد تساوت لحظات قليلة قمت فيها بتشغيله مع 6 ساعات من الزمن خارج محيط السرداب!!!.

نظر إلي الشرطي غير مصدق.. فأردفت وأنا أشير إلى النخلة بحماس شديد:

-هذه النخلة.. إنها خير دليل على كلامي.. فالخادمة لا تعرف كيف جاءت النخلة إلى السرداب.. والسبب أن الرجل قد بذر بذرتها الأولى هنا منذ أسابيع قليلة على الأرجح.. لكنها الآن نخلة قد يبلغ عمرها سنوات طويلة!!!.. يبدو أن السيد (عبد العزيز) قد أصيب بنوبة قلبية مفاجئة توفي على إثرها.. وهو أمر متوقع لرجل في هذا العمر.. فوقع على الأرض مفارقا الحياة أثناء عمل الجهاز.. وراح الجهاز يعمل ويعمل.. وجسد السيد (عبد العزيز) يتحلل بسرعة بالغة بسبب مرور الزمن سريعا داخل السرداب.. وعندما قمنا بفتح الباب عنوة.. توقف الجهاز بصورة آلية.. إذ يبدو أنه مرتبط بفتح الباب وإغلاقه.. إذ يبدأ بالعمل حين تضغط على زر التشغيل.. ويغلق تلقائيا لو قام أحد بفتح باب السرداب.. وهكذا دخل رجال الشرطة بعدها ليجدوا الهيكل العظمي.. الهيكل العظمي الخاص بالسيد (عبد العزيز) رحمه الله!!.. هل فهمت الآن؟ !!.. بالطبع لم يحاول رجال الطب الجنائي أن يطابقوا بين مواصفات السيد (عبد العزيز) والهيكل العظمي.. بعد أن عرفوا أن عمر الهيكل العظمي يتجاوز ال 50 عاما تقريبا.. فظنوا تلقائيا أنه لشخص آخر.

فتح الشرطي فكه بذهول وقد فهم أخيرا.. ليصرخ فجأة:

-يا إلهي.. إنه.. إنه أعظم اختراع في التاريخ يا سيدي!!!.. هذا يعني.. هذا يعني أننا لو استخدمنا هذا الاختراع فإن النباتات ستكبر بسرعة لا تصدق.. وستعطي ثمارها رغم مرور أيام قليلة على غرس بذرتها الأولى.. أمر كهذا سيحل مشكلة الغذاء في العالم.. والنفط سيتكون بدوره بسرعة رهيبة.. هل تعرف ما يعنيه ذلك يا سيدي؟؟!!.. سنصبح أغنى وأقوى دولة اقتصادية في العالم.. ستكون لنا ثروة لن تنضب أبدا.. إن أمرا كهذا يفوق الخيال.. يا إلهي.. لا يمكن.. لا يمكن..

ارتجف جسدي بقوة لكلامه.. ثم نظرت إليه بصرامة وأشرت له أن يصمت.. فاحترم صمتي كثيرا رغم أنفاسه المضطربة من هول ما عرف.. ثم.. قلت بحذر واضح:

-أخبرني أولا.. هل تثق بي؟؟!.

هز رأسه موافقا بقوة وهو يقول:

-بكل تأكيد يا سيدي.. أنت مثلي الأعلى في الانضباط والاحترام.. أنت مثال لرجل الأمن الذي يحترم الناس ولا يستغل سلطاته.. أنت...

قاطعته بحزم:

-حسنا إذا.. يجب أن يبقى الأمر سرا بيننا وألا يعرف أحد أبدا بأمر هذا الجهاز.. إذ يجب إتلافه الآن.. وتدميره نهائيا.

كان هذا آخر ما يتوقعه.. فقال بعصبية وقد نسي تماما فارق الرتب بيننا:

-ماذا؟!!!.. ماذا تقول؟ !!.. هل جننت؟ ؟!.. هذا لا يصدق.. هذا.. عفوا.. المعذرة يا سيدي!!!.

سكت قليلا شاعرا بالحرج بعد أن تضاربت كلماته.. لكني لم أكترث.. بل قلت له بقلق:

-صدقني.. جهاز كهذا قد تنشأ من أجله الحروب وتباد بسببه الأمم.. بل وقد تقوم بعض الدول بتدميرنا لمجرد امتلاكنا له.. ومن سيحصل عليه في النهاية قد يستخدمه في السيطرة على العالم بصورة تتجاوز أسوأ كوابيسنا.. تخيل لو وقع هذا الجهاز بيد ديكتاتور.. فما الذي سيفعله حينئذ؟!!.

لم أنتظر رأيه.. بل اتخذت قراري سريعا ورحت أركل الجهاز فجأة بكل قوتي وسط اعتراض الشرطي وصراخ الخادمة التي لم تفهم شيئا مما يحدث حولها.. لكني لم أكترث.. بل ظللت أركله وأركله.. وأركله.. حتى شعرت أن أشياء كثيرة قد تكسرت داخله.. ولم أكتفِ بهذا.. بل أخرجت مسدسي وفتحت غطاء الجهاز.. ورحت بمقبض المسدس أكسر كل الدوائر الكهربائية الموجودة في الداخل.. حتى وقفت ألهث أخيرا من شدة الإرهاق وأنا أنظر إلى الجهاز الذي تحول من الداخل إلى مجرد قطع صغيرة متناثرة وأسلاك لا معنى لها.. نعم.. كان هذا الحل الوحيد رغم أن أغلبكم قد لا يوافقني على ما فعلت!!!.

و.. لا يوجد الكثير ليقال بعد ذلك.. فقد انتهت القضية بهذه الصورة.. انتهت أغرب قضية عرفتها ومررت بها في حياتي.. كم كان هذا الرجل -رحمه الله- عبقريا!!!.. لكن مع الأسف.. سيضيع جهده هباء.. فاختراع كهذا لا مكان له في العالم.. أنا واثق من كلامي ولست نادما على تصرفي.. لا تنسوا أننا نعيش في زمن أسود تنشأ فيه الحروب بسهولة.. فما بالكم بجهاز قد يغير موازين القوى في العالم؟ ؟!.. صدقوني هذا أفضل الحلول.

خرجنا أخيرا من البيت.. وأخبرت الخادمة أن عليها أن تبحث عن عمل جديد أو تعود إلى بلدها.. وتركتها وسط تساؤلاتها.. خاصة وأنها لم تفهم شيئا مما حدث.. فعرفت بعد بضعة أيام أنها اختارت العودة إلى بلدها.

لقد بحثت في جميع ملفات السيد (عبد العزيز).. ووجدت أنه إنسان عادي جدا لم يصل إلى المرحلة الجامعية.. لكن.. عشرات العباقرة الذين غيروا مجرى التاريخ لم يكملوا دراستهم.. لذا لم يكن هذا مفاجئا بالنسبة لي.. ليتني التقيت به.. ليتني عرفته.. المسكين أفنى حياته بأكملها في سبيل العلم.. بل وعاش في عزلة تامة عن المجتمع محاولا الوصول إلى اختراعه هذا إلى أن نجح في ذلك!!!.

يظهر أن أغلب من قاموا بأعمال عظيمة في التاريخ قد قضوا حياتهم في عزلة وهم يتأملون أعظم مختبر فيزياء في العالم.. وهو الطبيعة نفسها دون شك.. فالبرق أعطى الإنسان أول دروس الكهرباء.. والطيور علمت الإنسان أساسيات الطيران.. ومن الخفافيش تعلمنا مبادئ الرادار والسونار.. ومن النجوم والكواكب تعلم الإنسان الأرقام والرياضيات والقياسات.. تفاحة سقطت من شجرة وتعلم منها الإنسان قانون الجاذبية.. ومن الفطريات والبكتيريا صنعنا الأدوية.

هكذا هم العظماء.. وهذا الرجل لا يقل عنهم شأنا.. لكن.. الفارق هنا -كما ذكرت- أن أحدا لن يستفيد شيئا من اختراعه هذا.. بل ولن يعرف عنه سواي وزميلي الذي طلبت منه أن يبقي تفاصيل القضية سرا بيننا.. وإن كنت أعلم أن أحدا لن يصدقه أصلا إن أفشى بالأمر.. أنا نفسي لا أصدق أنني مررت بقصة غريبة كهذه!!!.

لقد قمت بإغلاق ملف القضية بعد أن أخفيت كل المعلومات التي توصلت إليها.. وهي المرة الأولى التي أقوم فيها بشيء كهذا.. فكتبت أن الهيكل العظمي هو لشخص مجهول لا نملك ملفا عنه.. وأن السيد (عبد العزيز) قد خرج من منزله ولا نعرف عنه شيئا.. وسيبقى في عداد

المفقودين إلى أن يحالفنا الحظ ونعثر عليه!!!.. أعرف أن هذا التزوير لن يروق لكم.. لكن تذكروا جيدا أنني لم أفعل هذا لمصلحتي.. بل لمصلحتكم.. لمصلحة العالم أجمع.. هذا هو عزائي الوحيد.

في الطابق الرابع

لا يمكن أن يلومني أحد لحالة الغضب التي انتابتني بعد أن عرفت أن مالك العمارة السكنية التي أقطنها قد قرر رفع قيمة الإيجار!!.. فهذا أمر يفوق كل احتمال.. خاصة وأنني تزوجت منذ فترة بسيطة.. وحياتي المادية لم تستقر بعد.. لذا فقد أربك هذا التصرف الذي ينم عن جشع لا حدود له كل حساباتي!!!.

لقد أخبرت زوجتي بالأمر.. فهزت رأسها أسفا لما يحدث.. ثم اقترحت أن نبحث عن شقة أخرى ونتجنب المشاكل.. لكني رفضت بشدة.. فلا يخفى عليكم أن الانتقال من سكن إلى آخر ليس بهذه البساطة.. دعكم من أن عملي يستهلك معظم وقتي.. فلا أملك الوقت للبحث عن شقة جديدة ومن ثم الانتقال إليها ونقل البريد وخط الهاتف.. إلخ!!.. لذا قررت الذهاب للتفاهم مع مالك العمارة بنفسي.. خاصة وأنه يقطن إحدى شققها بالفعل.. إنها في الطابق الرابع!!!.

ولا أنسى أن أذكر أن زوجتي قد عارضت ذهابي بشدة وحاولت منعي معللة أن المالك رجل شرس ويهوى المشاكل.. وزوجته ليست أفضل حالا منه.. وقد كانت زوجتي محقة في ذلك دون شك.. فهما في منتصف الأربعينيات من العمر.. ولم يرزقهما الله أبناء كما أعرف.. ولا يهويان في حياتهما سوى جمع المال.. لذا كانا يتعاملان مع كل المؤجرين وكأنهم آلة لضخ الأموال!!!.

لكني هدأت من روع زوجتي وأخبرتها أنني سأقوم بالتحدث إلى المالك باحترام شديد وسأحاول امتصاص غضبه وليس عليها أن تقلق لأنني سأتصرف بحكمة.. أو هذا ما ظننته على الأقل!!.

خرجت من شقتي متوجها إلى الطابق الرابع حيث شقة المالك كما علمتم.. طرقت الباب بحذر وأنا ألتقط نفسا عميقا كي أحافظ على ثبات أعصابي.. لأنني أعلم جيدا ماهية هذا الرجل وزوجته وطريقة تعاملهما الوقحة مع الناس.. ثم.. سمعت صوتا خلف الباب يسأل في ضيق واضح:

-من الطارق؟!!.

يا لهذه الحقارة!!.. حاولت أن أتمالك نفسي.. فأخبرته بهويتي بهدوء شديد محاولا أن أرسم ابتسامة على وجهي.. لحظات قليلة قبل أن يفتح الباب كاشفا عن ملامح لا يمكن وصفها إلا بالقسوة!!.. هذا الرجل لن يبالي بنا حتى لو ارتفعت قيمة الإيجار إلى ثلاثة أضعاف.

لكني حافظت على هدوئي.. وطلبت منه أن يسمح لي بالدخول كي أتحدث معه بموضوع هام.. إلا أنه رد بصرامة واضحة:

-إذا جئت لتتحدث عن رفع قيمة الإيجار.. فلا وقت عندي لأضيعه معك.. هذا الأمر قد تم ولن أغير رأيي.. تستطيع البحث عن شقة أخرى إذا لم يعجبك قراري!!!.

هكذا إذا.. هذا الوغد يقفل باب التعقل والحوار تماما منذ البداية.. لكني رغم كل شيء.. قلت له بأدب شديد:

- ليس الأمر متعلقا بهذا.. بل هو موضوع آخر في واقع الأمر.. هل تسمح لي بالدخول الآن لنتحدث؟!!.

نظر إلي وهو يمط شفتيه امتعاضا.. ثم ابتعد عن الباب وأشار إلي أن أتبعه إلى صالة الشقة.. دخلت وأنا أبذل جهدا خرافيا للسيطرة على أعصابي.. ورحت بعدها ألتفت حولي بمرح محاولا أن

أخلق جوا من الألفة.. فسألته بابتسامة عريضة:

-كيف حال المدام؟!!

كنت أخشى أن يرد أن هذا ليس من شأني.. فهو وقح فعلا ومن الممكن أن يقول شيئا كهذا.. لكنه بالمقابل قال بلا مبالاة:

-لقد ذهبت إلى الشاليه صباح اليوم وأخذت معها الخادمة.

جميل.. هل يريد أن يخبرني بشكل غير مباشر أنه لن يقدم لي شيئا من واجبات الضيافة؟ !!.. هذا واضح.. فأنا لم أسأله عن الخادمة!!..

تنحنحت.. وملت قليلا ناحيته كناية عن خطورة الموضوع.. ثم:

-سيدي.. المعذرة.. لقد كذبت عليك كذبة صغيرة.. إنني هنا من أجل زيادة إيجار الشقة بالفعل.. أعلم أنني أعيش في شقتي هذه منذ زمن ومن حقك القانوني أن ترفع من قيمة الإيجار.. لكني تزوجت حديثا.. والمصاريف تكاد أن تخنقنا.. إن غلاء الأسعار لا يصدق هذه الأيام.. و .....

لم أكمل عبارتي.. لأن الوغد نهض من مكانه والشرر يتطاير من عينيه.. أو هذا ما بدا لي.. قبل أن يقول بعصبية بالغة:

-هل تكذب علي أيها الوغد؟ !!.. لقد أخبرتك منذ البداية أنني لا أريد الحديث في هذا الأمر؟ !!.. أخرج من شقتي الآن.. هيا!!!.

يقولون إنك إذا أردت أن تعرف رأي أحدهم فيك.. فلتُثر غضبه!!!.. وهذا ما فعله ذلك الحقير.. إذ لم أتمالك نفسي أمام هذه الإهانة الصريحة.. فانفجرت غاضبا.. ونهضت بدوري وقد قررت أن أغلق باب التعقل وأتصرف بما تمليه علي عصبيتي!!!.. إذ صرخت مفرغا كل ما في قلبي من غل:

-أيها اللعين.. من تظن نفسك حتى تعامل الناس بهذه الوضاعة؟ !!.. إنك مجرد مالك لهذه العمارة.. هناك العشرات من العمارات الأخرى التي نستطيع الانتقال إليها في أي لحظة.. فأنت لا تملك مصيرنا ولن تملكه يوما!!!.

عندما قلت كلامي هذا.. انفجر غاضبا ونهض من مكانه.. وكأن لا يحق لي أن أعامله كما يعامل جميع سكان العمارة!!!.. فراح يصرخ ويتوعد ويشتمني بأقذر الشتائم.. وأمسك بي من ثيابي ليجرني إلى الخارج.. لكني لم أسمح له بالطبع.. إذ نهضت من مكاني وأمسكته بدوري من ثيابه أيضا.. قبل أن.. قبل أن نشتبك في شجار عنيف!!!.. فطار ذلك المقعد.. وانكسرت جرة الفخار الموجودة بالقرب من الهاتف.. حتى بدا أننا لن نتوقف أبدا إلى أن يأتي أحدهم ويفض الاشتباك.. ولكن.. ما الذي يحدث هنا.. لقد تجمدت يداه فجأة.. وراح ينظر إلي بجمود لتخور قواه ويتهاوى على الأرض دون سبب واضح!!!.

شعرت بذعر حقيقي حتى إنني تصلبت تماما في مكاني والعرق ينهمر من جسدي بغزارة.. لماذا أغمى عليه بهذه الصورة الغريبة المفاجئة؟ !!.. إنني لم أوجه له ضربة مميتة مثلا.. وضعت يدي المرتجفة على رقبته لأجس نبضه.. يا للهول.. لقد.. لقد مات!!!!.. لقد مات.. يبدو أنه أصيب بنوبة قلبية مفاجئة!!!.

نظرت حولي كالمجنون.. قبل أن أسمع فجأة طرقا قويا على الباب.. وصوت أحد الجيران وهو يقول:

-هل كل شيء على ما يرام؟ !!.. افتح الباب يا سيدي أرجوك!!!.

يا إلهي.. هذا كابوس.. كابوس حقيقي.. إنني في مأزق لا أحسد عليه أبدا.. ماذا سأفعل؟ !!.. مهلا.. مهلا.. لم يرني أحد من الجيران داخلا إلى هنا.. ولا يعرفون أنني موجود في هذه الشقة أصلا.. كما أنهم لا يعرفون صوتي لو كانوا قد استمعوا إلى شجارنا.. فعلاقتي بهم سطحية للغاية.. لا بد إذا من الخروج والعودة إلى شقتي دون أن يشعروا بشيء حتى لا أتورط بقضية موت الرجل.. كيف سأهرب من هنا وأبعد نفسي عن كل ما حدث؟ !!.. إنني في الطابق الرابع.. فلا يمكن أن أقفز من النافذة مثلا.

الطرقات تزداد حدة على الباب.. يبدو أن الجيران شعروا بالقلق بسبب الهدوء الذي عم الشقة فجأة بعد صوت التحطيم والتكسير.. و.. أسمع أحدهم يقول لآخر:

-سأتصل بالشرطة!!!.

عندما سمعت هذه العبارة القصيرة.. عرفت أن المأزق يضيق علي شيئا فشيئا.. فاقتربت من الباب بقلب يكاد أن يتوقف.. أحاول أن أسترق النظر من خلال العين السحرية لأعرف ما يدور في الخارج.. أرى بعض الجيران مجتمعين عند باب الشقة وعلامات القلق بادية على وجوههم.. بينما يمسك أحدهم بالهاتف النقال ويتحدث عن شجار في هذه الشقة واحتمال أن يكون هناك مصاب.. لقد اتصل بالشرطة بالفعل!!!!.

ابتعدت عن الباب بعينين دامعتين.. أنظر حولي بيأس باحثا عن مخرج.. ثم.. وقعت عيناي على ذلك المخزن الصغير فوق باب الحمّام والذي يحوي السخّان!!.. إنه مكان يصلح للاختباء.. ربما علي أن أختبئ فيه لحين وصول رجال الشرطة.. سأنتظر إلى أن يأخذوا جثة الرجل ويخرجوا من الشقة.. لأخرج بدوري بهدوء في وقت متأخر من الليل دون أن يعلم أحد.. إنها فكرة لا بأس بها.

توجهت إلى باب الحمام.. هوووب.. هوووب.. أحاول أن أقفز بكل قوتي لأصل إلى باب غرفة السخّان.. هوووووووووب.. أخيرا.. ها أنا أتمسك بالحافة.. أحاول الصعود.. أحاول.. إلى أن وجدت نفسي أخيرا منكمشا بالقرب من السخّان وأنا ألهث من شدة التعب والقلق والرعب.

جلست في مكاني أفكر في المأزق الذي وضعت نفسي فيه.. هذا جنون.. إنني إنسان بسيط للغاية.. لست معتادا على مواقف كهذه.. هذه الأمور تفوق طاقتي.. قبل بضع ساعات كنت أتناول الغداء بأمان مع زوجتي ونتحدث عن رفع قيمة الإيجار.. ليتغير كل هذا فجأة وأجد نفسي الآن مختبئا في شقة ذلك الوغد وربما متهما بقتله!!!. كيف سأخرج من هنا؟ !!.. كيف سأنجو بفعلتي؟!.. لقد تشاجرت معه في شقته وضربته.. أنا المسؤول من دون شك عن موته حتى وإن لم أقصد ذلك.. ثم.. بصماتي.. لقد نسيت كل ما يتعلق بشأنها.. إنها في كل مكان.. لا شك أن التحريات ستقود الشرطة مباشرة إلي.. هذا مؤكد.. ففي مثل هذه الظروف ستعمل الوساوس عملها معك حتى لتشعر أنك ضائع لا محالة!!!.

لم أشعر بمرور الوقت والمدة التي قضيتها مختبئا في ذلك المخزن الضيق.. ربما ربع ساعة.. أو أكثر.. قبل أن أسمع فجأة صوت أحدهم يطرق باب الشقة بقوة ويقول بحزم:

-افتح الباب يا سيدي.. نحن رجال الشرطة!!!.

لا أحد يرد بالطبع.. تزداد الطرقات صرامة.. ليقوموا بعدها بفتح الباب بأساليبهم المعتادة.. ويمتلئ المكان برجال الشرطة في لحظات.. لا أستطيع أن أرى ما يحدث.. فقد أغلقت باب مخزن

السخّان.. لكني أشعر بضجيجهم وهم ينتشرون بسرعة رهيبة في الشقة بعد أن رأوا جثة مالك العمارة.. إنهم يبحثون عن القاتل بكل تأكيد.. ثم.. أسمع أحدهم يجري اتصالا هاتفيا ويطلب من سيدة ما أن تأتي فورا.. لست بحاجة إلى ذكاء لأعرف أنه يتحدث مع زوجة مالك العمارة!!.

ظل رجال الشرطة في الشقة لأخذ البصمات دون شك وبانتظار الزوجة التي ما إن وصلت.. حتى أصيبت بذعر حقيقي.. ورحت أسمعها من مخبئي وهي تصرخ بكل قوتها وتبكي وتنتحب وتلعن الجميع.. بمن فيهم رجال الشرطة أنفسهم!!!.. أنتم تعرفون تلك المواقف.. فلا داعي للحديث عنها.

أخذ رجال الشرطة أقوال الزوجة -التي أصبحت أرملة الآن -بعد أن نجحوا في تهدئتها أخيرا.. قبل أن يرحلوا جميعا ومعهم الجثة بالتأكيد.. أما أنا فقد ظللت مختبئا مذعورا في مكاني طوال ذلك الوقت في غرفة السخّان فوق الحمام وقد جف حلقي وتسارعت دقات قلبي من شدة الخوف.

ظلت السيدة وحيدة في الشقة.. وظللت أنا مختبئا شاعرا بأن حياتي الطبيعية قد صارت بعيدة للغاية!!!.. أشعر بشيء من الاختناق.. هل السبب هو رهاب الأماكن المغلقة؟!.. أعتقد أنهم يطلقون عليه اسم (كلوستروفوبيا)؟!.. ربما أكتشف للمرة الأولى أنني أعاني منه.. أم أن قلبي أصبح منهكا ولا يحتمل نقص الأكسجين؟ ؟!.. أم أنني -ببساطة -جبان؟!.. لا أعلم.. وليس هذا ما يهم الآن.

المهم هو الهرب.. لا بد من الهرب.. ترى.. كيف حال زوجتي؟!.. هل عرفت بما حدث؟!.. هل جاءت لتسأل عني؟ !!.. هل أخبرت الشرطة بذهابي لزيارة مالك العمارة وعدم عودتي من شقته منذ ذلك الحين؟ !!.. ستكون مصيبة حقيقية لو فعلت.. لكن.. كل ما سمعته من رجال الشرطة يوحي أنهم يجهلون تماما وجودي هنا.

مهلا.. أشعر بوقع خطوات الزوجة متوجهة إلى مكان ما.. إنها تتصل بأحد أقاربها كما يبدو.. إذ راحت تبكي وتنتحب مرة أخرى وتقول عبر الهاتف إن زوجها تعرض للقتل لكنهم ليسوا واثقين بعد من هوية القاتل.. وإنها تنتظر شقيقها الذي سيعود من السفر غدا لتبيت عنده إلى أن تهدأ الأمور.. مستحيل أن أنتظر في مكاني إلى مساء الغد!!!.

سمعتها أيضا تقول إن الشكوك تحوم حول أحد سكان العمارة -وهو أنا بطبيعة الحال -وإن رجال الشرطة قاموا باستجواب زوجتي.. لكنها أخبرتهم أنني في الخارج ولا تعرف متى سأعود!!!.. يا لزوجتي الحبيبة.. لقد أخفت عنهم مجيئي إلى هنا.. ولكن.. هذا لن يكفي.. ربما لن يصدقوا كلامها.

إنني أسمع الزوجة تنهي المكالمة وتتجه بخطواتها إلى مكان ما.. أسمع خطواتها تقترب.. يبدو أنها.. يبدو أنها متجهة إلى الحمام.. بالفعل.. لقد دخلت الحمام وأغلقت الباب خلفها.. هذه فرصة رائعة للهرب.

اتخذت قراري.. ورحت أزحف ناحية باب غرفة السخّان.. ها قد وصلت إلى الحافة.. أحاول الهبوط بحذر دون أن أصدر أي صوت.. ثم.. قفزة خفيفة جدا على الأرض.. آمل ألا تكون قد انتبهت لها.. تحركت بعدها بهدوء شديد واضعا نعالي تحت إبطي بشكل مهين ومضحك بنفس الوقت.. متجها ناحية باب الشقة حيث الخلاص.. و.. أخيرا خرجت.. وتوجهت إلى شقتي لأجد زوجتي في استقبالي والدموع تملأ عينيها.. وراحت المسكينة تحتضنني بحب وحنان جارف.. أما أنا.. فقد كنت حطام إنسان.

أخبرت زوجتي بالقصة كلها وبصوت قلق مرتجف بيّن لها حالة الرعب التي عشتها وما زلت أعيشها جراء ما حدث.. وأخبرتني بدورها أن رجال الشرطة استجوبوا كل سكان العمارة.. وعندما سألوها عني.. قالت لهم إنني خرجت قليلا دون أن أخبرها إلى أين.. لكنها لمحت نظرات الشك وعدم التصديق في ملامحهم.

رحنا بعد ذلك نبحث عن مخرج لهذه المشكلة.. وظللنا نتحدث لأكثر من ساعة.. خاصة زوجتي التي كانت مصرة على ضرورة تسليم نفسي للشرطة.. لأن الجريمة لم تحدث مع سبق الإصرار والترصد كما يقولون دائما.. وأنني لم أقصد قتل مالك العمارة.. بل ولم أوجه له ضربة مميتة أصلا.. فالرجل أصيب بنوبة قلبية مفاجئة على الأرجح.. إلى أن أقنعتني أخيرا بتسليم نفسي.. خاصة وأن هذا سيخفف العقوبة أكثر مما ستكون عليه لو تم القبض علي.. فبدا لي كلامها منطقيا للغاية!!!.. و.. بالفعل.. اتخذنا القرار سوية.. وخرجت من الشقة بثبات متجها إلى الطابق الأسفل.. عازما الذهاب إلى المخفر بنفسي.. قبل أن أفاجأ بوجود رجال الشرطة عند بوابة العمارة!!!.

لم يمهلني أحد.. إذ صرخ البواب حين رآني.. وركض رجال الشرطة نحوي لإلقاء القبض علي.. أما أنا فلوّحت بيدي صارخا بأنني لم أقتل الرجل وأنني كنت في طريقي لتسليم نفسي أصلا.. فلا داعِ لهذا التصرف الاستعراضي!!!.. لكن أحدا منهم لم يستمع إلي.. بل أمسكوا بي بقوة وكبلوني.. قبلَ أن يدفعوني دفعا إلى سيارة الشرطة.. وعبثا حاولت أن أخبرهم أنني كنت ذاهبا بالفعل لتسليم نفسي.. لكنهم كانوا ينظرون إلي نظرة من طراز:

-كان غيرك أشطر.. من تظننا حتى تكذب علينا؟!.

لذا فقد خرست تماما والتزمت الصمت بعد أن تيقنت أن التحدث بعقلانية معهم سيكون مضيعة للوقت.. آملا أن أشرح كل شيء للضابط.

عندما وصلنا إلى المخفر.. كانت غرفة الضابط تمتلئ برجال الشرطة.. والجميع ينظر إلي حتى شعرت بأنني مجرم بالفعل وقد ارتكبت جريمة القتل مع سبق الإصرار والترصد!!.

سألني الضابط بهدوء مهيب:

-لماذا ذهبت إلى شقة مالك العمارة؟ !!.. لا تحاول الكذب.. لقد سمع الجيران صراخك في شقته أثناء شجارك معه وعرفوا صوتك مباشرة!!.

يا لي من أحمق.. ظننت أنهم لا يعرفون صوتي كون علاقتي بهم سطحية كما كنت أردد بيني وبين نفسي.. المهم أنني ازدردت لعابي بعد أن جف حلقي تماما بسبب هذه الأجواء المتوترة.. ثم قلت بقلق:

-لن أحاول الكذب يا سيدي.. لقد ذهبت إليه لأنه رفع قيمة إيجار الشقة.. وحاولت التحدث إليه علني أقنعه بالعدول عن قراره.. لكنه ثار وغضب وأهانني و ...

أكمل عبارتي بلا مبالاة:

-لهذا قتلته؟؟!!..

لوحت بيدي في ذعر واضح وأنا أقول:

-لا.. لا.. لم أقتله.. لقد تحدثت إليه بمنتهى الهدوء في البداية.. لكنه ظل يتهجم علي ويشتمني..

ولم أحتمل هذا.. فرددت عليه بالمقابل.. واشتبكنا.. لقد كان هو البادئ بالشجار.. إنه ذو مزاج حاد جدا.. وتستطيع التأكد من هذا بسؤالك جميع من في العمارة!!.. ثم ...

رحت أشرح له بكل صدق ما حدث منذ لحظة وفاة مالك العمارة إلى اختبائي في غرفة السخّان.. وهروبي بعدها والعودة إلى شقتي.. ثم حديثي مع زوجتي.. بل وشرحت له أن عدم تسليمي لنفسي كان بسبب الخوف فحسب.. لأنني لم أمر بموقف كهذا في حياتي!!!.

أومأ الضابط برأسه ثم قال:

-لم نكن نعلم أنك كنت مختبئا في الشقة.. ظننا أنك هربت قبل أن يصل الجيران ويطرقوا الباب.. هذا خطأ فادح وقعنا به.. كان يجب علينا تفتيش الشقة جيدا والتأكد من أنك لست مختبئا فيها.. لكن.. الحمد لله أننا قبضنا عليك أخيرا رغم كل شيء.

كدت أن أرد عليه وأقسم مرة أخرى أنني بريء.. لكنه أشار إلي بصرامة أن أخرس!!.. ثم تجاهلني تماما وراح يحقق في قضايا أخرى ويتحدث عبر الهاتف عن أمور بعيدة كل البعد عن قضيتي.. حتى مرت 7 ساعات كاملة دون مبالغة!!!.. شعرت فيها أنني سأموت في أي لحظة من شدة القلق والتوتر والترقب والإرهاق.. قبل أن يتلقى الضابط مكالمة هاتفية بدا واضحا أنها أثارت اهتمامه كثيرا.. وراح يكتب شيئا ما على ورقة موجودة أمامه.. ليقفل السماعة بعدها ببطء.. ويفكر بشرود للحظات.

ثم.. نظر إلي فجأة وسألني بغموض:

-لماذا قتلت زوجة مالك العمارة؟؟!.

نهضت من مكاني مصعوقا.. وصرخت برعب حقيقي:

-ماذا؟؟؟!!!!!!!.. زوجة المالك؟؟!!!!!.. ماذا تعني؟ !!.. أنا لم أقتل أحدا.. أقسم أنني لم أفعل.. ثم.. مهلا.. هل تعني.. هل تعني أن زوجة المالك قد توفيت أيضا؟!!.

رد بقسوة:

-لم أقل إنها توفيت.. بل تعرضت للقتل!!!.

دمعت عيناي لسوء الحظ الغريب الذي يلازمني.. فأردفت بلوعة وقهر:

-سيدي.. أنا لم أقتل ذلك الرجل!!!.. الطب الشرعي سيثبت كلامي.. أما زوجته.. فأقسم لك أنني لا أعلم عنها شيئا.. ولم أعرف أنها تعرضت للقتل أصلا سوى الآن!!!.

قال ببرود:

-ربما قتلتها أثناء خروجك بعد أن كشفت المسكينة أمر اختبائك في شقتها.. ثم قمت بعد ذلك بالكذب علينا وبتغيير وقائع القصة.. أليس هذا ما حدث؟؟!!.

قلت بذعر وأنا ألوح بذراعي:

-أنا.. أنا لم أفعل شيئا.. إنني رجل شريف لم أدخل المخفر في حياتي.. أرجوك صدقني.. أقسم لك أنني ...

لم أكمل عبارتي.. إذ فوجئت بالضابط يبتسم فجأة.. يبتسم بود وبشكل غير متوقع!!!.. قبل أن يقول وسط نظراتي المتسائلة:

-المعذرة.. كان يجب أن أتعامل معك بهذه الطريقة حتى أرى ردة فعلك وأتأكد.. هل تعرف من اتصل بي للتو؟ !!.. إنه الطبيب الشرعي.. لقد تعمدت تركك هكذا في غرفتي طوال الساعات الماضية.. كنت أنتظر اتصالا هاتفيا من الطبيب الشرعي حول أسباب وفاة الزوجين.. فقد فوجئنا بوفاة الزوجة أيضا بعد أن قبضنا عليك بحوالي ساعة.. إذ عثر عليها جيرانك ميتة عندما قاموا بزيارتها للاطمئنان على حالها بعد موت زوجها.. كان تصرفا نبيلا منهم.. خاصة بعد معاملتها السيئة لكم وإصرارها الدائم مع زوجها على رفع الإيجار.. لكننا لم نخبرك بهذا.. كنا نريد أن نبحث في القضية أكثر.. وها نحن الآن عرفنا كل شيء.. المكالمة التي تلقيتها للتو ربطت كل خيوط القضية ببعضها!!.

رحت أنظر إليه مبهوتا منتظرا منه أن يكمل.. ليردف بابتسامة عريضة:

-يقول الطبيب الشرعي إن مالك العمارة مات مسموما!!!.

-ماذا؟!!!!.

صرخت كالملسوع.. فابتسم وهو يكمل:

-نعم لقد مات مسموما.. إنه يتناول بعض الأدوية بشكل مستمر.. وقد قامت زوجته بوضع سم بطيء المفعول في أدويته على أن يلقى حتفه بعد يوم أو يومين من تناوله.. وقد تعمدت الزوجة الذهاب إلى الشاليه حتى تكون حجة الغياب موجودة وتكون بعيدة عن الشبهات.. سيبدو الأمر حينها وكأن الرجل قد أصيب بنوبة قلبية!!!.. خاصة وأن السم الذي استخدمته الزوجة باهظ الثمن ومن الممكن أن يخدع الطب الشرعي بسهولة.. لولا وفاة الزوجة المفاجئ أيضا.. فهذا ما أثار شكوكنا وجعلنا نفحص الجثتين بدقة أكبر.

سألته بذهول:

-ماذا عن الزوجة؟ !!.. من قتلها؟ !!.. وكيف؟!!

رد مبتسما:

-قتلها زوجها؟!!!..

نظرت إليه بغباء.. فأردف قائلا:

-نعم.. قتلها زوجها.. كان كل منهما يخطط لقتل الآخر!!.. فقد قام الزوج -قبل أن يموت بالطبع -بوضع السم في خيط تنظيف الأسنان الخاص بزوجته!!!.. إنه نوع نادر جدا من السم المجفف.. حصل عليه الزوج بسعر باهظ أيضا.. كان من المفترض أن تنظف الزوجة أسنانها به كعادتها في كل ليلة.. وسيذوب السم وينزلق مع لعابها إلى جسدها ليسبب لها نوبة قلبية هي الأخرى!!!.. إن اكتشاف أمور كهذه مستحيل تقريبا كما أخبرتك لولا وفاة الزوجين بنفس الليلة ولنفس الأسباب التي توحي للوهلة الأولى وكأنهما أصيبا بنوبة قلبية مفاجئة.. هذا ما فتح أبواب الشكوك على مصراعيها.. فطلبنا من الطبيب الشرعي أن يفحص الجثتين مرة أخرى بكل دقة لنكشف بعدها تفاصيل ما حدث.. إنها صدفة غريبة جدا.. إذ كان كلا الزوجين يخطط لقتل الآخر لأسباب سنحقق فيها قريبا.. ربما هو الجشع والاستحواذ على الأملاك.. لا أعلم.. لكننا سنعرف بكل تأكيد بعد إجراء المزيد من التحريات.

تنهد طويلا أمام نظرات ذهولي التي بدأ يشوبها شيء من الفرح.. فقال وهو يمط شفتيه مستغربا:

-من سوء حظك أنك وقعت بين جريمتين دون أن تعلم.. عموما.. لقد انتهى كل شيء.. أنت حر الآن يا سيد (.....).. تستطيع العودة إلى منزلك.

يا إلهي.. لقد تلاعبوا بأعصابي حقا.. نهضت من مكاني غير مصدق أن القصة انتهت بهذه الصورة الغريبة.. هل يعقل أن تنتهي الأحداث بهذه الطريقة؟ !!.. هذا لا يصدق.. لا يصدق!!!.

خرجت من المخفر بخطوات بطيئة للغاية وبذهن شارد.. قبل أن أتذكر أنني تركت كل شيء خلفي.. وأن حياتي ستعود طبيعية مرة أخرى.. عندها فقط جريت.. جريت كما لم أجرِ من قبل.. حتى أنني نسيت أن أطلب من الشرطة إيصالي إلى شقتي.. لكن لا يهم.. سأتصل بإحدى سيارات الأجرة!!!.

وفي أقل من ساعة.. كنت في شقتي أحتضن زوجتي بحرارة وأخبرها بتفاصيل ما حدث.. لتتسع عيناها استغرابا لهذه القصة العجيبة.. وفهمَت أخيرا أنني وقعت بين جريمتي قتل كما أخبرني الضابط.

لقد أخبرتها أنني مقتنع تماما الآن باقتراحها في البحث عن شقة جديدة.. إذ لم أعد راغبا في الإقامة هنا بعد اليوم.. مهما تكبد هذا من مشاق ووقت كما كنت أقول في البداية.. لم أعد راغبا بالبقاء في مكان حدثت فيه جريمتا قتل ارتكبهما الزوجان بحق بعضهما بمصادفة غريبة شاء سوء الحظ أن أشهد تفاصيلهما.. جريمتا قتل وقعتا في ذلك الطابق المشؤوم.. الطابق الرابع.

العائد

عندما تقترب النهاية وتكون على وشك الموت.. تتذكر فجأة كل ما مضى من حياتك بومضات سريعة خاطفة.. هذا ما يقولونه دائما.. وهو في واقع الأمر صحيح تماما.. فأنا الآن أعيش نهايتي بالفعل.. لذا أجد (فلاشات) حياتي تمر في ذهني بسرعة.. وأتذكر ما حدث منذ حوالي 15 عاما.. وتحديدا في عام 2088م عندما تم الإعلان عبر وكالة أبحاث الفضاء الأمريكية (NASA) عن صنع مركبة فضائية قادرة على الذهاب إلى نقاط بعيدة جدا في الكون واستخدام الثقوب الدودية لاختصار المسافات.. وهو ما كان يعد مستحيلا في الماضي.. لكن.. هذه هي روعة العلم.. فما نظنه مستحيلا اليوم قد يصبح أحيانا كثيرة ممكنا في المستقبل.. والتاريخ مليء بالأمثلة على ذلك.

لقد كان الإعلان الذي نشرته وكالة أبحاث الفضاء الأمريكية يتضمن أيضا طلب متطوعين لارتياد تلك المركبة.. والسفر إلى الفضاء الخارجي سنوات طويلة تقترب من ال 15 عاما لاستكشاف الكون.. ولاكتشاف ما إذا كانت هناك كواكب صالحة للحياة.. ومن ثم التقاط صور لها وتحديد مكانها على الخرائط الفلكية.. بل وحتى الهبوط على سطح أحد تلك الكواكب لو سمحت الظروف.

لم يكن الأمر يتطلب شهادة علمية فحسب.. بل مواهب وقدرات عقلية في شتى المجالات.. باختصار.. كانوا يبحثون عن (ليوناردو دافنشي) جديد!!!.. رجل نابغة في مختلف العلوم يثير دهشة العالم بأكمله بعقليته الفذة.

وقد كنت أرى في نفسي تلك الشخصية بالفعل.. فرغم دراستي وحصولي على شهادة الدكتوراه في الفيزياء.. إلا أنني كنت متعدد المواهب.. وكان الجميع يراني نابغة أمتلك مهارات لا حصر لها رغم عدم تجاوز سني ال 37.. حتى إنني لم أتزوج بسبب ولعي الشديد ونهمي للعلم والمعرفة اللذين كانا يستقطبان كل اهتمامي ووقتي.. كما أنني إنسان انطوائي أصلا.. أقضي جل وقتي في القراءة والبحث العلمي بعيدا عن زحمة الحياة.. لذا وجدت أن الشروط تنطبق علي تماما للقيام بتلك الرحلة.. فلن أخسر الكثير في حالة رحيلي سوى والديّ الحبيبين اللذين سأبتعد عنهما لسنوات طويلة للغاية.. ولا أنسى اعتراضهما الشديد في البداية ورجاءهما المستمر كي أعدل عن رأيي.. لكني رجوتهما بالمقابل وتوسلت إليهما أياما طويلة للسماح لي بخوض هذه التجربة التي كنت أعتبرها حلم حياتي.

فهي فرصة العمر التي لن تتكرر أبدا على الأرجح لاستكشاف المجهول.. ولأرى ما لم يره بشر.. وأصل إلى نقاط من الكون لم يصل إليها أحد.. كما ترون.. الفكرة بحد ذاتها كانت مذهلة!!!.

وعندما تقدمت للاختبار.. وجدت أن فرصتي في النجاح هائلة.. فمن العسير للغاية أن نجد شخصا عبقريا متعدد المواهب ولا يمانع -في نفس الوقت- السفر إلى الفضاء الخارجي سنوات طويلة والانعزال عن العالم في رحلة محفوفة بالمخاطر في الفضاء الشاسع!!!.

وهذا ما جعل عدد المتقدمين لخوض الاختبار أقل من أصابع اليد الواحدة رغم الإغراءات الشديدة للحصول -عند العودة من الرحلة بنجاح- على منزل فاخر وراتب شهري مغرٍ للغاية مدى الحياة مع تأمين صحي شامل وغيرها من الامتيازات الأخرى.. لكن.. لم يكن هناك أحد يرغب في

الانتظار 15 عاما والمغامرة في حياته والبقاء وحيدا في الفضاء الخارجي ليحصل على كل هذا فيما بعد!!!.

لن أطيل عليكم التفاصيل.. فقد وقع علي الاختيار بعد سلسلة طويلة من الاختبارات القاسية والشائكة ووجدوا أنني الوحيد المؤهل لخوض تلك المغامرة.. مما عقّد الأمور وزاد من صعوبة المهمة كوني سأسافر دون رفيق.. ولم يكن هذا كل شيء.. إذ كان يتوجب علي أيضا خوض تدريبات بدنية وذهنية مرهقة للغاية لفترة طويلة من الزمن.. كما إنني عُزلت أياما طويلة أيضا عن العالم بأكمله في غرفة ضيقة للتأكد من تقبلي للوحدة دون بروز أي مشاكل نفسية على السطح.. قبل أن يراني المسؤولون جاهزا أخيرا لخوض تلك الرحلة المخيفة التي أعدوا لها حفلا هائلا وتغطية إعلامية استحوذت على اهتمام العالم بأكمله كونها أول تجربة حقيقية لغزو الفضاء.. أما أنا.. فقد اختلطت دموعي بدموع والديّ اللذين جاءا لوداعي.. على أمل أن نلتقي بعد 15 عاما ونكون جميعنا على قيد الحياة.

كانت الرحلة رهيبة بحق.. تعرضت خلالها لمخاطر لا تنتهي.. وكادت المركبة الفضائية التي أرتادها أن تتحطم تماما في مناسبات عديدة لولا ذكائي الشديد في الخروج من المآزق.. ولا أعتقد أنني شعرت يوما بالوحدة في تلك المركبة التي توجد فيها العديد من وسائل الرفاهية من الأفلام والأعمال الموسيقية والكتب.. ولا ننسى بالطبع مهمتي الرئيسية وكل ما يثير فضولي العلمي من غموض يحيط بهذا الكون.. فرحت أدرس النجوم والمجرات المتناثرة حولي وأسجل ملاحظاتي وأستكشف أبعد نقطة ممكن الوصول إليها من الكون.. حتى إنني عثرت على كواكب عديدة تصلح تماما للحياة.. بل وهبطت على سطح أحدها.. لكني لم أعثر فيه إلا على حياة بدائية للغاية.. ولم أجد كوكبا تقطنه كائنات عاقلة كما كنا نأمل!!!.

ولو كتبت كل ما تعرضت له وعايشته وتعلمته خلال تلك الرحلة لسطرت لكم مجلدات كاملة.. لذا سأتجاوز عن هذه النقطة.. لأنها ليست أهم ما في القصة.. فبداية القصة الحقيقية كانت بعد مرور حوالي 13 عاما على بقائي وحيدا في أحضان الكون.. أتساءل بيني وبين نفسي أحيانا كثيرة عن حال الأرض طوال فترة غيابي.. وعن حال والديّ أطال الله عمرهما.. حيث كانا هما شغلي الشاغل.. وكنت آمل أن أجدهما أحياء حين عودتي.. خاصة أنني تركتهما بصحة جيدة.. فكنت بالفعل أتحرق شوقا للقائهما مع اقتراب موعد وصولي إلى الأرض وبعد مرور تلك السنوات بعيدا عنهما.

لكن.. لم أتوقع للحظة أن أكتشف قبل وصولي إلى الأرض بعامين فحسب ومن خلال الجهاز الطبي الإلكتروني الذي تحويه المركبة أنني مصاب بالسرطان!!!.. لقد كان هذا خطأ فادحا وقعت به.. فالمفترض أن أجري فحوصات شاملة كل 6 شهور للتأكد من صحتي.. وقد قمت بذلك بالفعل في بدايات رحلتي.. لكني توقفت مع مرور السنوات وأهملت نفسي!!!.. المشكلة أن اكتشافي للسرطان كان متأخرا للغاية وبات علاجي مستحيلا في تلك المرحلة المتأخرة منه بعد أن استشرى في جسدي.. فعرفت حينها أن أيامي ستكون معدودة!!!.

كانت صدمة هائلة أصابتني بالصميم.. وشعرت أن كل ما حققته في حياتي وفي رحلتي هذه لا معنى له.. وأن الأقدار تسخر مني بعد أن نجوت من مخاطر عديدة لا حصر لها.. لأموت أخيرا مصابا بمرض خبيث بعيدا عن الجميع.. فستصل المركبة إلى الأرض بعد حوالي سنتين من الآن وهي تحوي جثتي.. أو بقايا جثتي بعد تحللها.

لقد كنت طوال السنوات التي أمضيتها بعيدا عن الأرض أدعو وأتضرع إلى الله أن أجد والديّ أحياء عند عودتي ليلتئم شملنا وأستمتع بعدها بتقاعدي.. وأن أشتري منزلا يطل على بحيرة جميلة هادئة وأقضي هناك ما تبقى من عمري وعمر والديّ.. لكن سخرية الأقدار جعلتني أصاب بهذا المرض الذي سيحرمني من لقائهما.. بعد أن كان شغلي الشاغل أن يكونا أحياء عند عودتي.. خاصة وأن موعد وصولي للأرض بات يقترب يوما بعد يوم.

أتذكر أنني بكيت لأيام طويلة.. إذ كنت أحتاج إلى معجزة حقيقية للبقاء حيا لحين وصولي.. وكان أكثر ما أفكر به خيبة الأمل التي سترتسم على وجه والديّ عندما يكونان بانتظاري ويعثران على بقايا جثتي.. لا يمكن أن أحتمل خيبة أملهما هذه حتى وإن لم أعشها.

ولكن.. هذا ما يميز العباقرة.. لحظات الإلهام التي تأتيهم كثيرا وتوحي لهم باختراعات جديدة وأفكار مبتكرة.. فقد طرأت في ذهني فكرة عبقرية وغريبة للغاية بعد اكتشافي للمرض بأيام قليلة.. فكرة صعبة التنفيذ لكنها ليست مستحيلة.. وتحتاج مني إلى سباق مع الزمن لإنجازها.

ما هي الفكرة؟ ؟!.. سألتقي بوالديّ رغم موتي!!!.. نعم.. لا يوجد مزاح في الأمر ولا يوجد أي خطأ مطبعي في عبارتي.. فقد تذكرت فجأة ذلك الإنجاز العلمي الذي تناقلته وسائل الإعلام وأثار ضجة هائلة في العالم قبل رحيلي إلى الفضاء بسنوات قليلة.. لقد كان هذا ضربا من الخيال في الماضي ومادة دسمة لأفلام الخيال العلمي.. لكنه أصبح حقيقة.. عندما نجح العلماء في صنع إنسان آلي يشبه البشر تماما ويجسّد فتاة صغيرة تبلغ من العمر حوالي 5 أعوام.

أتذكر ما قاله العلماء عن ذلك الإنجاز عندما صرحوا عبر وسائل الإعلام أن تلك الفتاة الآلية تتحرك وتتفاعل مع البيئة المحيطة بها شأنها شأن الإنسان العادي.. كما أنها مزودة ببشرة من السيليكون تتشابه بشكل كبير مع ملمس بشرة الإنسان.. بل إن عينيها تستطيعان أن ترمشا وتنظرا في جميع الاتجاهات.. ولا أنسى أنهم أضافوا إلى جلدها شبه البشري أربعة أجهزة استشعار جلدية عالية الحساسية.. ولم يكن هذا كل شيء.. فقد كانت تلك الفتاة الآلية تهمس وتتحدث وتتظاهر أيضا بقيامها بعمليتي الشهيق والزفير ([4]).. لذا راح العلماء وقتها يتحدثون بحماس عن أن هذا الاختراع سيفسح الطريق ليجعل الإنسان الآلي مشابها للغاية لنا.. لدرجة أنه سيخدعنا ذات يوم ويجعلنا عاجزين عن التمييز بينه وبين الإنسان الحقيقي.

أتذكر كل هذا.. والفكرة تكبر في ذهني شيئا فشيئا.. إنها تستحق المحاولة دون شك.. سأستخدم كل نبوغي وذكائي ومعلوماتي لصنع رجل آلي يشبهني تماما ويكون نسخة طبق الأصل مني!!!.. وهذا ليس مستحيلا.. فجهاز الكمبيوتر في مركبتي الفضائية يحوي دائرة معارف كاملة تشمل كل علوم الأرض.. سأبدأ من حيث انتهى العلماء.. سأحاول تطوير كل ما نجحوا في عمله لأصنع نسخة آلية طبق الأصل مني.

على الأقل سينعم والداي بلقائي.. لأنني سأجعل الإنسان الآلي قادرا على التفاعل مع البشر عاطفيا رغم الصعوبات العديدة المتوقعة كون عالم الانفعالات والعواطف البشرية شديد التعقيد.. لكني ما زلت أظن أن تحقيق هذا الأمر ممكنا.. خاصة لو حاولت أن أستمد فكرة صنع العقل الإلكتروني للإنسان الآلي من عقول الأطفال نفسها.. نعم.. فعقل الطفل ينمو يوما بعد يوم وهو يتعلم مما يدور حوله ويكتسب الخبرات إلى أن يصبح إنسانا ناضجا.. لذا سيكون شبيهي الآلي بدوره قابلا للتعلم واكتساب الخبرات.. وسأقوم بتلقينه بكل ما أعرفه أيضا.. الأمر يحتاج إلى عمل شاق للغاية كما هو واضح.. لكنه ممكن.. لدي في المركبة كل المواد التي قد أحتاجها لمشروعي

هذا.

لن أدخل في تفاصيل إضافية لن تهم أحدا سواي.. بل سأكتفي بالقول إنني بعد أيام طويلة مرهقة وعمل متواصل على مدار الساعة دون انقطاع تقريبا.. نجحت في صنع المستحيل.. إذ قمت بصنع رجل آلي بشرته الخارجية مستنسخة بالكامل مني بعد أن أخذت عينة من حمضي النووي (DNA) لأستنسخ نسيجي البشري.. ومن ثم تلبيسه لنسختي الآلية.. لقد تحدثت السينما في الماضي عن أمر كهذا.. وهناك فيلم قديم شهير جدا تدور فكرته حول رجل آلي مصنوع بهذه الطريقة ([5]).

وحتى لا أنسب الفضل كاملا لنفسي.. يجب أن أذكر أن استنساخ الأنسجة والأعضاء البشرية ليس أمرا جديدا.. إذ كان هذا مشروعا هائلا تحدث عنه العلماء منذ سنوات طويلة ووصلوا فيه إلى مراحل متقدمة للغاية ([6]) قبل رحيلي إلى الفضاء.

المهم.. ها أنا الآن بعد حوالي سنتين من العمل المتواصل.. أرى أمامي أخيرا شخصا يشبهني تماما وكأنه شقيقي التوأم.. لكنه في واقع الأمر إنسان آلي متطور جدا وضعت فيه كل نبوغي.. حتى بات يحمل ذاكرتي كلها!!!.. سيخدع ذلك الآلي جميع أهل الأرض حين يستقبلوني.. أهمهم والدي ووالدتي.. لن يكشف أحد الأمر.. أنا واثق من ذلك.. على الأقل سأرسم البسمة على شفاههما قبل أن يموتا.. هذا هو عزائي الوحيد.

لم يتبقَ على عودتي إلى الأرض سوى بضعة شهور.. لكن.. صحتي كانت في أسوأ حال ممكن.. إذ أصبحت على مشارف الموت بعد أن تغلغلت الخلايا السرطانية في جسدي وانتشرت حتى بت غير قادر على النهوض من فراشي!!!.

فكان جهاز الملاح الآلي هو من يقود المركبة الفضائية في طريقها إلى الأرض.. لكن هذا لم يكن يمنعني من النظر إلى ذلك الآلي بإعجاب هائل لعبقريتي التي ستموت معي.. يا إلهي.. يكاد أن يكون توأمي بالفعل!!!.

رحت أسأل الآلي بوهن شديد بسبب المرض لأطمئن على سير الأمور:

-أنت تعرف ما يجب فعله الآن.. أليس كذلك؟!

رد بانفعال بشري صادق وصوت يشبه صوتي تماما:

-بكل تأكيد يا سيدي.. عندما تموت.. سأضع جسدك في ذلك الحامض الذي صنعته حتى تتبخر تماما.. ثم سأخرج الحامض في فتحة تصريف المركبة.. ولن يعرف أحد أبدا أنك قد مت.. وعندما أصل إلى الأرض.. سأقوم بتسليم كل البيانات والعينات التي جمعتها أثناء رحلتك وأقدمها للمسؤولين.. وسألتقي بوالديك بالطبع.. وأعانقهما وأقضي معهما ما تبقى من سنوات عمرهما.. لا تخشَ شيئا.. لقد صنعتني جيدا!!!.

نظرت إليه بإعجاب وفخر متجدد.. كان مشهدا غريبا.. لكن.. لم يعد يبهرني شيء بعد ما رأيته طوال تلك السنوات.. كنت سعيدا للغاية لهذا الإنجاز.. لكني كنت قلقا أيضا.. فهناك احتمال كبير لا يمكن إغفاله أن يكون أحد والديّ أو حتى كليهما قد فارق الحياة ليضيع كل جهدي هباء.. آمل ألا يحدث هذا.. لكني لن أعيش لأعرف على كل حال.

طردت تلك الوساوس من ذهني.. وسألت الآلي أخيرا:

-تعرف جيدا أنك يجب أن تبكي وتقبّل يدي والدتي ووالدي.. وأن تمنحهما كل اهتمامك.. أليس كذلك؟!!.

رد بصوت يحمل ثقة بشرية خالصة:

-لا تخشَ شيئا يا سيدي.. لقد زرعت في عقلي الإلكتروني المشاعر البشرية والاستجابة الصحيحة لها.. سأكون أنت.. ولكن بصورة آلية لا يعرفها أحد.. تأكد من ذلك.. سأظل مع والديك إلى أن يموتا.. ثم سأخبر المسؤولين بعد موتهما عن حقيقتي حتى يقوموا بفحصي ويستفيدوا من عبقريتك في صنعي.

نظرت إليه للمرة الأخيرة.. ثم شعرت بشيء من الاطمئنان.. وأن مقاومتي للموت تضعف شيئا فشيئا بعد أن نخر السرطان جسدي واستشرى فيه.. إنني.. إنني أموت فعليا.. يا له من أمر محبط وحزين.. يعيش البشر ويملؤون العالم صخبا.. ثم يموتون ويأتي غيرهم وينساهم الجميع مع مرور الأيام.. وهكذا.. آمل أن يكون والداي أحياء حين يلتقيان بنسختي الآلية.. آمل أن يكونا أحياء.. ياااارب.. يااااااارب.

عزيزي القارئ.. بعد هذه الحادثة بشهور قليلة.. هبطت المركبة الفضائية على الأرض أخيرا وبعد رحلة استمرت 15 عاما كما علمنا.. وسط احتفالات هائلة حضرها كبار المسؤولين.. ونزل من المركبة رائد الفضاء الآلي الذي خدعت هيئته الخارجية الجميع.. و.. من بعيد.. لمح الناس شيخا بلغ منه العمر مبلغا مع زوجته.. كانا ينظران إلى رائد الفضاء ويبكيان بعد أن رأيا من ظنا أنه ابنهما أخيرا.

فركض رائد الفضاء الآلي نحوهما متجاهلا كل وسائل الإعلام.. وراح يبكي ويحتضنهما بحنان ويقبل أيديهما بنهم.. ثم أحاطهما بذراعيه ليمشي معهما دون الاكتراث إلى أي شيء آخر.. لم ينظر حتى إلى شكل العالم الذي تغير دون شك بعد سنوات طويلة من غيابه.. كل ما كان يهمه هو والداه فحسب.. لقد تصرف تماما كما صنعه بطل قصتنا.

ومن بعيد.. راح أحد المسؤولين يحدق بذلك المشهد المهيب.. يحدق برائد الفضاء وهو يحتضن والديه ويمشي معهما عائدا إلى البيت.. ثم سأل مستشاره بشيء من القلق:

-هل تعتقد أن الخدعة ستنكشف؟!.

رد المستشار بثقة:

-اطمئن يا سيدي.. لن يعرف رائد الفضاء أبدا أن والديه قد توفيا منذ سنوات.. وأنه الآن برفقة شخصين آليين!!!!!!.. لحسن الحظ أن علومنا قد تطورت كثيرا في السنوات الأخيرة.. وتمكّنا من صنع شيء كهذا.. سيظل الوالدان على قيد الحياة بضعة شهور ثم ننهي حياة أحدهما كي يبدو الأمر طبيعيا.. وننهي بعدها بسنة حياة الآخر حتى لا يشك ابنهما بشيء لو توفيا في يوم واحد مثلا!!!.. المهم أن ابنهما سيقضي وقتا كافيا وطويلا معهما كي لا يشعر بالذنب على تركهما كل هذه السنوات.. هذا أقل ما يجب أن نفعله من أجله.. سيكون كل شيء على ما يرام.. اطمئن يا سيدي!!!!!.

سرقة مكشوفة

عندما تسرق.. فعليك أن تسرق شيئا لا يجرؤ صاحبه على الإبلاغ عنه.. نعم.. كان هذا مبدئي عندما قررت -مع شقيقي- الدخول إلى عالم السرقة.. إذ رحنا نسرق اللصوص والمجرمين وبائعي الخمور ومروجي المخدرات ومخالفي القانون بشكل عام.. عالمون أنهم لن يجرؤوا أبدا على إبلاغ الشرطة.. خاصة أنهم يحتفظون بأموالهم في البيت غالبا ولا يودعونها في البنوك حتى لا ينكشف أمرهم.. مما يسهل علينا عملية سرقتهم.. فالبنوك كما نعلم جميعا تقوم بعمل تحقيقات واسعة ودقيقة حول المبالغ الكبيرة التي تودع في حسابها ([7]).

لقد كنت مع شقيقي مؤهلَين تماما لتلك النوعية من السرقات واقتحام البيوت.. خاصة بعد سنوات المراهقة القاسية التي عشناها مع زوج والدتي الذي كان سببا رئيسيا في هروبنا من البيت ابتعادا عن قسوته.. لننغمس بعدها تماما مع شلة من أصدقاء السوء ونترك المدرسة للبحث عن كسب المال بكل الوسائل غير المشروعة.. ابتداء من نشل المحافظ.. إلى سرقة السيارات وبيع أجزائها في السكراب.. حتى كبرنا مع مرور الأيام وفكّرنا بتغيير طريقتنا في السرقة لنكون بمأمن من رجال الشرطة.

لذا فقد بدأت مع شقيقي بتنفيذ خطتنا هذه.. ورحنا نبحث عن مخالفي القانون بشكل عام.. ومن ثم دراسة كل ما يتعلق بهم وكشف أسرارهم.. وسرقتهم في النهاية.. حتى إننا نجحنا أكثر من مرة في عمليات سابقة.. واستولينا على مبالغ كبيرة تتجاوز 100 ألف دينار دون أن يجرؤ أحد من الضحايا على إبلاغ الشرطة.

إلى أن جاء ذلك اليوم حين تعرضنا لخطر داهم بعد سرقتنا مبلغا من المال من أحد تجار المخدرات.. حين طاردنا في إحدى المناطق النائية حديثة العمران وأطلق علينا النار أكثر من مرة.. حتى أنه أصاب شقيقي في ساقه قبل أن نتمكن من الهرب.. وقد دفعنا يومها مبلغا كبيرا لأحد الأطباء كي يعالج شقيقي من إصابته دون أن يبلغ الشرطة كما يحتم عليه القانون ([8]).. لذا فقد اتخذت مع شقيقي قرارا هاما بعد تلك الحادثة.. أن نقوم بعملية واحدة أخيرة نكسب منها مبلغا هائلا ولن نحتاج بعدها إلى أي سرقات أخرى.

كانت خطتنا تتلخص بسرقة تاجر مخدرات محترف تمكن من خداع رجال الشرطة كثيرا حتى عجزوا تماما عن العثور على أي دليل ضده.. فهو في نظر القانون ليس سوى رجل أعمال يمتلك عدة شركات لتأجير السيارات.. بينما هي في واقع الأمر مجرد واجهة لعمله الحقيقي.. حتى إن اسمه متداول إلى حد كبير بين رجال الشرطة.. لكن ينقصهم الدليل للقبض عليه ومثوله أمام القضاء.. إنها المشكلة الأزلية التي يعجز بسببها رجال الأمن أحيانا كثيرة عن القبض على هؤلاء.. وهذا أمر طبيعي للغاية يحدث في جميع الدول تقريبا.. إذ تحيط بجميع كبار مخالفي القانون بطانة هائلة من حثالة المجتمع.. هؤلاء هم من يتم القبض عليهم بين الحين والآخر متلبسين بالجرم المشهود.. أما الكبار فهم رأس الأفعى الذين لا تصل إليهم إلا بصعوبة بالغة.

رحنا نراقب تاجر المخدرات هذا طوال 3 شهور.. لنعرف من يدخل ويخرج من بيته الفخم المحاط بسور مرتفع.. عدد أفراد أسرته.. الخدم.. إلخ.. بل وعرفنا أيضا كيف يدخل نقوده المشبوهة إلى البيت.. إنه يفعل هذا من خلال حقيبة شبيهة بحقيبة رجال الأعمال.. فهو يحملها

معه أحيانا أثناء خروجه من البيت في الصباح الباكر.. حيث لاحظنا من طريقة المشي أن الحقيبة تكون خفيفة جدا في ذلك الوقت مما يوحي أنها فارغة من الداخل.. قبل أن يعود إلى البيت في المساء ممسكا بالحقيبة ذاتها لكنه يمشي بطريقة مختلفة قليلا توحي بثقل ما يحمله.. هذا أمر لا يحتاج إلى ذكاء.. إنما إلى مراقبة ودقة ملاحظة فحسب.

لقد وضعنا خطة محكمة للتسلل إلى بيته وسرقة أمواله.. خاصة بعد أن اقترب موعد إجازة الربيع.. إذ كنا نتوقع بشيء من الثقة أن رجلا يمتلك ثروة كهذه لن يقضي العطلة في البيت.. بل سيسافر إلى الخارج مع أفراد عائلته.. أو يذهب إلى مزرعته.. عندها سنعرف ما نفعله!!.

انتظرنا أياما طويلة لم نتوقف فيها عن مراقبة البيت.. حتى حلت إجازة الربيع أخيرا.. ولم نكن مخطئين في تخطيطنا.. فقد رأينا جميع أفراد أسرته -بما فيهم الخدم -يضعون حقائب السفر في السيارة.. ومن ثم يأخذهم السائق إلى المطار دون شك.. لكن.. بقي تاجر المخدرات وحيدا في البيت على عكس توقعاتنا.. المشكلة أنه لم يكن بوسعنا الانتظار.. فربما سيبقى في بيته طوال الإجازة ولن يلحق بأسرته.. وسنضطر بعدها إلى الانتظار حتى إجازة الصيف علهم يسافرون جميعا.

ظللت أفكر مع شقيقي بما يجب فعله.. فاقترح أن نظل نراقب البيت وننتظر فرصة خروج الرجل خلال الأيام القادمة وقبل عودة أفراد أسرته.. ثم نتسلل إلى الداخل ونقوم بعمليتنا.. وهي فكرة تصطدم بأكثر من عائق.. فنحن لا نعرف الأرقام السرية لخزينته.. وسنقضي ساعات طويلة على الأرجح لفتحها.. لذا فقد طرأت في ذهني خطة أخرى أقنعت شقيقي بسهولة لتنفيذها.. وهي طرق الحديد وهو ساخن.. التسلل إلى البيت الآن والهجوم على الرجل وتكبيله.. ثم نطلب منه -تحت الضرب والتهديد بالسلاح -أن يعطينا رقم الخزينة السري.. وسنرتدي أقنعة تخفي هوياتنا بالطبع.. سنحاول أن ننهي كل شيء ونتسلل إلى الخارج دون انتباه السائق في حالة عودته.

إنها خطة بسيطة ومناسبة للغاية.. لدرجة أننا وضعناها قيد التنفيذ مباشرة.. فنحن نحتفظ بكل أدواتنا في مخبأ سري بدولاب السيارة.. ولا أنسى أن أذكر أننا كنا حريصين جدا على ألا نقتل الرجل.. لأن هذا سيفتح باب التحقيقات رغم أنف الجميع وقد يقود رجال الشرطة إلينا.. أما لو اقتحمنا البيت وقمنا بتقييد الرجل بالحبل كما خططنا.. فسيضطر أن يخرس ويدعنا نقوم (بعملنا) ولن يتفوه بعدها بحرف.. تماما كما حدث في بعض سرقاتنا السابقة!!.

اتخذنا قرارنا بعد خروج أفراد أسرته بقليل وأخذنا أدوات السرقة من السيارة التي قمنا بركنها بمسافة بعيدة نسبيا.. لنتوجه بعدها إلى سور البيت الذي تسلقناه بسرعة كبيرة آملين ألا يثير هذا انتباه أحد.

نزلنا من السور شاعرين أن المهمة لن تكون صعبة كثيرا.. خاصة عندما وجدنا باب البيت الداخلي مفتوحا كما هو الحال مع معظم البيوت في (الكويت).. فارتدينا أقنعتنا لنبدو كسراق البنوك الذين نراهم في الأفلام.. ومشينا بعدها بحذر داخل البيت محاولين البحث عن الرجل للإمساك به وتكبيله.

لحظات قليلة حتى صعدنا إلى الطابق العلوي بهدوء.. و.. وجدنا تاجر المخدرات في غرفة المكتب وهو يقوم بترتيب بعض الأوراق.. لنقتحم الغرفة سريعا.. ونقفز على الرجل مستغلين عامل المفاجأة التي شلت حركته تماما!!!.

كبّلنا بعدها يديه وقدميه بسرعة دون أن ينطق بحرف من هول الصدمة.. فأنا وشقيقي متمرسان

على أعمال (البلطجة) كما ترون.. وبعد لحظات قليلة.. تمكنا تماما من الرجل وأصبح جالسا أمامنا موثوق اليدين ينظر إلينا بذعر هائل غير مستوعب ما حدث.

قلت بعدها بصوت حرصت أن يكون صارما حازما خلف القناع الذي أرتديه:

-نحن نعرف أنك تاجر مخدرات.. ونعرف أنك تُخبئ أموالك في بيتك حتى لا تثير الشبهات.. لو أخبرتنا أين تحتفظ بأموالك فسنسرقها ونتركك لشأنك.. هذا وعد.. أما إذا لم تفعل.. فأقسم لك أننا سنخضعك لعملية تعذيب تجعلك تتوسل إلينا أن نقتلك!!!.. ثق أننا نمتلك أساليب مخيفة لن يكون آخرها إطفاء السجائر في جسدك.. وطبعا أنت لن تجرؤ على إبلاغ الشرطة بأي شيء لأن وجود مبالغ ضخمة في بيتك سيكشف أمرك ويقود الشرطة إليك.

خرس الرجل تماما أمام هذا الكلام المفاجئ.. فقد بدا له أننا نعرف جيدا ما نفعله ونعلم بأمر تجارته بالمخدرات.. لقد اختصرت عليه طريق المفاوضات والألاعيب التي قد يقوم بها.. ليرد أخيرا بذعر حقيقي:

-الأموال هنا.. في هذه الغرفة.. في الخزينة الموجودة خلف تلك اللوحة!!!

قال هذا وهو ينظر بذعر إلى لوحة جميلة لإحدى المدن.. لكني لم أكتفِ بتلك الإجابة.. بل سألته وأنا أصفعه بقوة ليعرف مدى قسوتنا:

-ما هو الرقم السري للخزينة؟!.. أم أنها تفتح بالمفتاح؟!.

رد بصوت متحشرج وقد احمر خده من قوة الصفعة:

-تفتح بالأرقام السرية.. الرقم هو (.....).

تبادلت نظرة ذات معنى مع شقيقي وقد شعرنا أننا نقترب كثيرا من النجاح.. ولكن.. حدث ما لم يكن في الحسبان!!!!.. مفاجأة قوية للغاية لا أجد لها أي تفسير!!!.. فبعد لحظات قليلة.. رأينا الرجل يشهق بقوة دون سبب.. ثم وقع على الأرض جاحظ العينين!!!.. أقسم لكم أن هذا ما حدث.. هكذا بكل بساطة!!!!.

أصبت مع شقيقي بذعر هائل ونحن نحدق به في غباء!!.. هل.. هل مات؟!.. ستكون مصيبة حقيقية.. اقتربنا من الرجل موثوق اليدين دون أن نجرؤ على لمسه من هول الموقف.. بل ظللنا نحدق به وبعينيه الجاحظتين اللتين تنظران إلى الهواء مع الملامح الجامدة الخالية من أي تعبير.. إنه لا يتنفس.. لقد مات من دون شك!!!.. مات من هول المفاجأة ربما.. يبدو أن قلبه لم يحتمل صدمة اقتحامنا بيته واعتداءنا عليه وسرقة أمواله بهذه السرعة.

ساد المكان صمت مهيب.. قبل أن يسألني شقيقي ببلاهة:

-هل.. هل مات؟!.

كان سؤاله غبيا للغاية.. فالأمر واضح لا يحتاج إلى سؤال.. إلا أنني تجاهلت سؤاله وأنا أنظر مصدوما إلى جثة الرجل.. إنني لم أرَ أحدا يموت أمامي من قبل.. أحاول أن أتمالك أعصابي.. وأزدرد لعابي بصعوبة وتوتر شديدين.. قبل أن أقول لشقيقي بصوت مرتجف:

-دعنا نفتح الخزينة ونأخذ المال ثم نهرب من هنا.. ربما كانت نوبة قلبية مفاجئة.. نحن لم نقتله.. تذكر هذا.. ولكن.. ولكن.. دعني أحل وثاقه أولا.. حتى تبدو وفاته طبيعية!!!.

تشجعت قليلا.. واقتربت من الجثة بحذر شديد.. وكأنني أخشى أن تنهض فجأة كما يحدث في أفلام الرعب.. ثم بدأت بفك قيوده محاولا ألا ألمسه رغم ارتدائي لقفازين.. فالخوف جعلني أشعر وكأن الجثة مصابة بالطاعون!!!.

انتهيت من حل وثاقه.. وتركته ملقى على الأرض.. لأتوجه مع شقيقي مباشرة إلى اللوحة التي أخبرنا عنها الرجل.. فأزحناها عن مكانها.. لنرى الخزينة الحديدية أخيرا.. وأتبادل مع أخي نظرة ارتياح عميقة بضعة ثوان.. قبل أن نبدأ بالعبث في قرص الأرقام السرية.. آمل ألا يكون كاذبا في الأرقام التي أعطانا إياها قبل موته وإلا ستكون كارثة.. إذ ستتطلب عملية فتح الخزينة حينها فترة طويلة كما علمتم.. ونحن نخشى أن يعود السائق في أي وقت ويكشف وجودنا.. لكن.. لحسن الحظ كانت الأرقام صحيحة.. و.. و.. تك تتك تتك!!!.

كان هذا أجمل صوت أسمعه في حياتي.. فقد انفتح باب الخزينة أخيرا.. ورأيت رزم هائلة من الأموال سببت لي رهبة ما بعدها رهبة!!!.. لتتسع ابتسامتي شيئا فشيئا إلى أن ملأت وجهي.. أما شقيقي فعانقني بقوة وقد شعر -على حد قوله -أننا انتقلنا في لحظة واحدة إلى أعلى درجات السلم الاجتماعي.

كنا نعمل بحماس هائل دون تعب ونحن نفرغ الخزينة ونضع المال في حقيبتين كبيرتين.. ورحت أخبر شقيقي بفرحة عارمة كيف أننا سنغادر البلد ونعيش حياة جديدة مليئة بالرفاهية في الخارج.. سنختار أحد البلدان التي لا تملك قوانين صارمة في موضوع غسيل الأموال.. حتى لا يحقق أحد في ثرائنا الغريب.. وسنشتري لكل منا فيلا جميلة.. ونبني مصنعا ضخما لصناعة ... لصناعة ... لا أعلم.. لكنه سيكون مصنعا لصناعة شيء ما يدر علينا مبالغ طائلة بكل تأكيد!!.

كما رحنا نستذكر حياتنا البائسة وكيف عانينا -شقيقي وأنا -من قسوة زوج والدتنا أيام الطفولة.. ومن صعوبة الحياة وكيف كنا نسرق المحفظات آملين بالقليل من المال وما يكفي لسد جوعنا.. وها نحن الآن أصبحنا من أصحاب الملايين فجأة..

لم نتوقف عن الثرثرة والمزاح والضحك.. إلا بعد أن أفرغنا الخزينة تقريبا وملأنا الحقيبتين بالمال.. وقد وجدنا أيضا بعض المستندات والأوراق التي تدين الرجل بشدة وتضعه في السجن لسنوات طويلة.. فلم نجد ضررا من سرقتها رغم موت الرجل.. فربما سنحتاجها فيما بعد.. من يعلم؟!!.

وقبل أن نخرج بلحظات.. ألقيت نظرة أخيرة على جثة الرجل الملقاة في زاوية الغرفة وقد أنسانا المال وجودها تماما دون أن نتذكرها سوى الآن.. لأتنهد بارتياح.. و.. نخرج أخيرا من البيت بسهولة متوجهين إلى شقتنا حيث بدأ الاحتفال الحقيقي هناك.. إذ رحنا نتصرف بعدها كالأطفال.. ونقفز فوق الفراش ونعانق بعضنا والدموع تملأ أعيننا بعد أن عرفنا أننا حققنا ضربة العمر.. خاصة بعد الساعات التي قضيناها في عد الأموال.. لنعرف أن المبلغ يتجاوز ال 3 ملايين دينار!!!.

ورغم أننا ذهبنا إلى غرفتنا وأطفأنا الأنوار واستلقى كل منا على فراشه استعدادا للنوم بعد هذا اليوم المرهق.. إلا أننا ظللنا نتحدث ونتحدث عن الوسيلة المناسبة لإخراج تلك الأموال من البلد.. ربما نشتري الذهب.. أو الألماس.. لن تكون هذه مشكلة.. فالجزء الأهم قد تم.. والباقي لن يكون بصعوبة ما حققناه.

ثم راح شقيقي يخبرني عن مواصفات فتاة أحلامه وكيف أنه سيبحث عنها بجهد.. إنه يفضلها

إسبانية أو إيطالية.. أما أنا فكنت أتحدث بهيام عن عشقي للشقراوات وعن الفيلا الجميلة التي سأشتريها مقابل بحيرة ما.. و.. تباطأت وتيرة حديثنا شيئا فشيئا مع اقتراب شروق الشمس.. قبل أن أشعر أنني أنساق إلى عالم الأحلام.

ولكن.. هل أنا أحلم.. أم أن هناك يدا قوية تهزني بعنف؟ ؟!.. لا.. أنا لا أحلم.. هناك من يهز جسدي بعنف بالفعل!!!.. استيقظت مفزوعا.. وإذا بالغرفة مليئة برجال لم أرَهم في حياتي من قبل وقد كبلوا شقيقي الذي راح يقاومهم بيأس وهو يحدق بي بحسرة.. يا إلهي.. إنهم رجال الشرطة!!!.. حاولت الاعتراض.. حاولت الإفلات وادعاء البراءة.. حاولت أن أتصنع الغباء وأسألهم عن سبب اقتحامهم لشقتنا.. لكن.. خرسنا تماما وتبخرت كل أحلامنا عن السفر والهجرة والشقراوات بعد أن وضعوا أمامنا الحقيبتين الممتلئتين بالأموال!!!.

و.. ها نحن في مخفر منطقة (النقرة).. نقف مقيدين ذليلين أمام الضابط.. ونظراتنا عشوائية خاوية من الحياة عالمين أن لا أمل لدينا بالنجاة.. لكن هذا لم يمنعني من طرح السؤال الذي كاد أن يصيبني بالجنون.. كيف كشفوا أمرنا بهذه السرعة؟ !!.. من الذي أبلغ عنا؟!.. كيف توصلوا إلى مكاننا في ساعات قليلة؟!.

وكأن الضابط قرأ أفكاري حين قال بصرامة لا تخلو من السخرية:

-إنكما سيئا الحظ إلى درجة لا تصدق.. أو ربما هي العدالة الإلهية التي أوقعت بكما مع تاجر المخدرات الذي نهبتما أمواله!!!.. لقد كنا نعرف أنه تاجر مخدرات.. لكننا لم نعثر على الدليل الذي يسمح لنا الحصول على إذن من النيابة لتفتيش منزله.. وها قد أتيتما لنا بالدليل الذي يدينه بعد أن عثرنا بحوزتكما على أمواله وأوراقه الخاصة.. بل وأوقعتما نفسيكما في يد العدالة.. إنها ضربة رائعة لنا.. وكأننا ربحنا اليانصيب في اصطياد الخارجين عن القانون.

نظرت إليه وقد رفعت راية الاستسلام.. قبل أن يسأله شقيقي بصوت باك:

-كيف؟!.. كيف كشفتم أمرنا؟!.

قال الضابط بتشف واضح:

-إنكما لم تعرفا معلومة مهمة جدا عن الرجل الذي اقتحمتما بيته.. وهذا ما جعلكما تظنان أنه مات بسكتة قلبية.. فالواقع أنه لم يمت!!!.. نعم.. الرجل مصاب بمرض نادر للغاية يطلق عليه اسم (الإغماء التخشبي).. إنها حالة مرضية يحدث على إثرها تخشب للعضلات مع تباطؤ شديد في عملية التنفس ونبضات القلب حتى ليبدو المصاب ميتا للوهلة الأولى!!!.. كما أنكما لم تعرفا أن المصاب بهذا المرض الغريب لا يفقد عادة حاسة السمع.. فقد كان الرجل يستمع لكل كلمة تقولانها أثناء إصابته بالإغماء التخشبي هذا.. وعرف الكثير عنكما حين كنتما تتحدثان بحرية كاملة أثناء نهب الخزينة ظنا منكما أنه مات ([9]).. إلى أن أخذتما أمواله وهربتما.

لم يكن هناك شيء لنقوله بعد تلك الصدمة!!!.. فتبادلت نظرات زائغة مع شقيقي الذي أجهش في البكاء فجأة وفقد سيطرته على نفسه.. أما أنا فسألت الضابط بعينين دامعتين:

-ولكن.. كيف تجرّأ وأبلغ عنا؟ ؟!.. كنت على يقين أنه لن يغامر بكشف أمره في الإبلاغ عن سرقة أموال حصل عليها بطريقة غير مشروعة!!!.

رد الضابط باستخفاف:

-إنه لم يبلغ عنكما كما تظن.. فقد عاد السائق إلى البيت.. وصعد إلى الضحية في غرفة المكتب ليطلب منه مبلغا من المال لشراء بطاقة تعبئة الوقود.. لكنه فوجئ بالرجل مرميا على الأرض.. فظنه ميتا أيضا.. لأنه سائق حديث العمل في هذا البيت ولم يكن يعلم أن الرجل مصاب بهذا المرض الغريب النادر.. فاتصل سريعا بالشرطة.. ومع تحرياتنا.. أبلغنا أحد الجيران أنه شاهد رجلين يخرجان من البيت وبيد كل منهما حقيبة كبيرة.. وعندما تم إسعاف صاحب البيت وإنقاذه.. حاصرناه بالأسئلة لأكثر من 3 ساعات دون أن يعترف.. فنحن نعرف جيدا الشبهات التي تدور حوله.. وسألناه عن هوية الزائرين اللذين شاهدهما جاره -وهما أنتما بطبيعة الحال -فادعى أنكما صديقاه!!!.

ثم أكمل ساخرا:

-لم يكن من العسير إثبات كذبه.. إذ طلبت منه الاتصال بكما وتأكيد كلامه.. لكنكما بالطبع لستما صديقيه.. ولم يكن مستعدا لتجهيز شاهدي زور يمثلان دوركما مثلا.. فاهتز موقفه كثيرا.. خاصة حين علم أنكما قد قمتما بسرقة الخزينة بالكامل بالإضافة إلى الأوراق التي تدينه.. فقد كانت تلك الأوراق بمثابة المسمار الأخير في نعشه والدليل القاطع على تورطه في تجارة المخدرات.. ليقع أخيرا في قبضتنا بعد أن عجز عن العثور على أي مخرج بسبب سرعة تتابع الأحداث في الساعات القليلة الماضية.. ويخبرنا بكل ما سمعه منكما أثناء حالة الإغماء التخشبي التي أصابته.

ساد المكان صمت متوتر بعد كل ما قيل.. ليردف الضابط ضاحكا:

-مجرد مرض نادر لا يعرفه معظم الناس تسبب في كشف الجريمة كاملة.. وفي كشف كل شيء.. فلولا رؤية السائق لصاحب البيت ملقى متخشبا على الأرض وظنه ميتا.. لما اتصل أصلا في الشرطة.. ولولا ذلك أيضا.. لما وقعتما في يد العدالة.

كانت هذه كلمته الأخيرة.. وآخر ما يمكن أن يقال في هذه القصة العجيبة.. قبل أن يدفعنا رجال الشرطة دفعا إلى الحجز على ذمة التحقيق.. وإلى مصير أسود لم أظن يوما أن سوء الحظ سيقودني إليه بهذه الطريقة الغريبة.. لقد حسبت حسابا لكل شيء.. لكن كان من المستحيل تماما أن أعرف عن إصابة صاحب البيت بذلك المرض اللعين الذي لم أسمع به من قبل.. وأنني قمت بعملية سرقة كشفت خلالها كل أسراري أمام جثة حية -إن صح التعبير -أثناء حديثي مع شقيقي.. فكانت سرقة واضحة المعالم رغما عن أنفي.. سرقة مكشوفة!!!.

هروب

عندما تم القبض علي منذ بضعة شهور بتهمة ترويج المخدرات.. كنت أعلم يقينا أن حياتي قد انتهت وأن حكم الإعدام آت لا محالة.. خاصة أنني قد ساهمت في إدخال كميات هائلة من المواد المخدرة إلى البلاد خلال السنوات الماضية كوّنت خلالها ثروة طائلة جراء ذلك.. مما تسبب بطبيعة الحال بتدمير مستقبل عائلات بأكملها.

ولم أخطئ في ظني هذا.. فقد حوكمت بغياب جميع أفراد عائلتي.. إذ لم يكن أحد منهم يشعر بأي تعاطف معي.. حتى زوجتي تجنبتني تماما كالطاعون.. وابتعدت وأبعدت أولادي عني كي لا أجلب لهم العار بعد أن كشفوا حقيقتي.. فعلمت أنني سأموت وحيدا.. خاصة بعد أن أصدر القاضي حكمه بإعدامي بالفعل بعد القبض علي متلبسا.. لأُنقل بعدها إلى السجن على أن يُنفذ الحكم بعد أسابيع قليلة.

كنت أثناء المحاكمة أتجنب النظر إلى الجميع.. مطرقا برأسي إلى الأرض.. وأتذكر كيف أنني أضعت حياتي ومستقبلي بيدي.. فقد كان كل شيء متاحا لي منذ بداية سن المراهقة بسبب غياب الرقابة.. أعلم أن هذا ليس عذرا.. لكني قمت باستغلال الفرصة بأسوأ صورة ممكنة.. عندما بدأت أخرج مع أصدقائي طوال الوقت وهم جميعا على شاكلتي.. فنتسكع في الأحياء السكنية القريبة.. ونفعل كل شيء تقريبا.. ابتداء من سرقة الصحف اليومية التي توضع عند البيوت.. وتخريب الممتلكات العامة والخاصة.. وانتهاء بتدخين السجائر.. نفعل كل هذا من باب الاستهتار وحب المغامرة وانعدام الرقابة فحسب!!!.

وبالطبع لم أكمل تعليمي.. فقد خرجت من المدرسة في المرحلة المتوسطة دون أن يكترث أحد من أفراد الأسرة أيضا.. فالبيت متكدس بالأولاد.. وأبي رجل كبير في السن من الجيل القديم.. يقضي وقته بأكمله تقريبا في زيارات الأصدقاء والأقارب.. أما والدتي فلم تكن أفضل حالا.. إذ تقضي وقتها كله بدورها في المطبخ وتجلس بعدها لتتحدث عبر الهاتف مع أم (فلان) أو الجارة الفلانية.. ليمر اليوم بأكمله دون أدنى اهتمام أو حتى السؤال عن أحوالي.. فكان من المعتاد أن أخرج من البيت في فترات الظهيرة ولا أعود إلا في ساعات الفجر الأولى رغم سني الذي لم يكن يتجاوز ال 14 في ذلك الحين.

وشيئا فشيئا.. انجرفت إلى عالم المخدرات.. وبدأت أتعاطاها.. قبل أن يقترح علي أحد الأصدقاء أن نقوم ببيعها ونكسب من ورائها ذهبا كما كان يدعي.. إنها قصة معتادة كما ترون.. تتكرر كل يوم وفي كل مجتمع بعناد غريب دون أن نتعلم منها.. حتى المسلسلات والأفلام العربية قد استهلكت تلك الفكرة وقتلتها قتلا.. فلا داعي لأصدع رؤوسكم بتفاصيلها.

المهم أنني وقعت أخيرا بعد سنوات طويلة من تعاطي المخدرات والاتجار بها.. وبعد أن نصب لي رجال المباحث الجنائية كمينا محترما سقطت على إثره بسذاجة رغم كل السنوات التي قضيتها في هذه (التجارة).. إذ يبدو أن الاستمرار بالجريمة سنوات دون أن تقع في قبضة القانون يولّد عندك نوعا من التراخي في أخذ الحيطة والحذر.. ليتم تحويلي بعد ذلك إلى النيابة العامة وإلى القضاء.. وها أنا الآن أنتظر مصيري أخيرا.. الإعدام شنقا.

ومع الأسف.. كان الأجدر بي أن أهرب من البلد حين بدأت الأموال تتراكم في رصيدي بإحدى دول

أمريكا اللاتينية.. لكن.. إنه الطمع دون شك.. ففي كل مرة كنت أقول إن العملية القادمة ستكون الأخيرة.. حتى ظللت أكرر هذه الجملة إلى أن أُلقي القبض علي لينهار كل شيء دفعة واحدة.

ما زلت أذكر الأيام القليلة التي تلت صدور حكم الإعدام والتي قضيتها في السجن منتظرا نهاية مصيري.. إذ كنت جالسا في زاوية الزنزانة طوال اليوم فلا أفعل شيئا سوى النظر إلى أبعاد أخرى متمنيا فرصة أخرى.. كنت أتخيل وأحلم أن تكون هناك وسيلة أُولد بها من جديد مثلا لأهتم بدراستي وأصبح إنسانا ناجحا.. لكن.. كيف ستأتي هذه الفرصة الأخرى؟ !!.. فما حدث غير قابل للإصلاح.. وحياتي الآن في نهايتها.. الغريب أنني لم أكن أخشى الموت بقدر ما كنت أرغب في الحصول على فرصة جديدة لأصحح كل أخطائي السابقة.. ليتنا نستطيع أن نمحو حياتنا السوداء بجرة قلم ونبدأ من الصفر.. ليتنا نستطيع!!!.. هكذا كنت أردد بيني وبين نفسي.. فأعيش أحلام اليقظة أحيانا.. وأحيانا أخرى أقرأ القرآن الكريم وأطلب من الله سبحانه وتعالى أن يغفر لي.. منتظرا النهاية باستسلام.

كان هذا قبل أن تتغير الأمور بشكل مفاجئ وتحدث تطورات خطيرة في قصتي!!!.. فقبل تنفيذ حكم الإعدام بحوالي أسبوع أو ربما أكثر قليلا.. فوجئت بزميلي في الزنزانة وهو يتحدث عن خطة بسيطة - لكنها فعالة - للهرب.. إلا أنه كان يحتاج إلى مساعدتي على حد قوله.. لذا راح يحاول إقناعي بحماس شديد بأن تلك فرصتنا الأخيرة في الهرب قبل تنفيذ حكم الإعدام.

في البداية لم أستمع إليه.. وظننت أنه يخرف بما لا يعلم.. لكنه بات يقضي وقته كله محاولا إقناعي بما سيفعله.. وأننا أمام فرصة لن تتكرر.. إذ راح يشرح لي كيف سنهرب من السجن وبعدها نخرج من البلد إلى (تركيا).. ومن ثم إلى أمريكا اللاتينية حيث سنختفي تماما عن الأنظار هناك.. وكانت الخطة تعتمد على رشوة سأدفعها إلى أحد الضباط المسؤولين في السجن.. والذي سيقوم بدوره ببعض الإجراءات التي تسهل عملية هروبنا.. يقول زميلي إن الفكرة قد طرأت في ذهنه حين أخبرته أنني أملك ملايين الدولارات في أحد بنوك أمريكا اللاتينية.. لذا فهو يحتاجني بشدة لأنه لا يملك المال لرشوة الضابط.

ويقول أيضا إنه تحدث مع أحد الضباط المسؤولين ووعده بمبلغ ربع مليون دينار ليسمح لنا بالهرب.. لا أعرف كيف جرؤ على هذا التصرف.. لكن.. يبدو أنه كالغريق الذي يتمسك بحبل الهواء.. الغريب أن تمسكه بحبل الهواء هذا قد جاء بنتيجة فعلية.. فقد اقتنع الضابط بذلك ووافق على كل شيء.. وهذا ليس أمرا غريبا.. فالفساد موجود في كل مكان كما تعلمون.. حتى في نفوس بعض ضباط الشرطة والسجانين.. ولا أنسى أن الضابط ذاته قد قام بإعداد العدة لإجراءات إدارية طويلة كي يكون بعيدا عن الشبهات أثناء عملية هروبنا.

لم يكن هذا كل شيء.. إذ راح زميلي يحاول إقناعي بعد ذلك ويرجوني أن آخذه معي بعد نجاح عملية الهروب إلى أمريكا اللاتينية على أن أعطيه جزءا من ثروتي هناك.. و.. أمام إلحاح زميلي.. وافقت أخيرا واقتنعت تماما بالفكرة.. لأنني ميت لا محالة.. فما الذي سيضرني لو استمعت إليه ونفذت خطته؟؟!!.. ربع مليون دينار ليس بالمبلغ الكبير بالنسبة لي.. إنني أمتلك أكثر منه في خزانتي الحديدية في شقتي السرية التي كانت بمثابة غرفة العلميات ونقطة تجارتي وإبرام الصفقات.. تلك الشقة التي لا يعلم بأمرها أحد حتى الآن سوى صديق واحد فقط أثق به تماما.. ولن يكون الأمر عسيرا أن أقوم بالاتصال بصديقي هذا لإخراج المبلغ من الخزينة وإيصاله إلى الضابط.. والذي سيقوم بدوره بتسهيل عملية هروبنا من السجن.. ومن ثم تهريبنا إلى خارج البلد أيضا من خلال جوازات سفر مزورة أعدها لنا بنفسه.

تتساءلون ما الذي يجعل زميلي يثق بي؟ ؟!.. لأنني خياره الوحيد وأمله الأخير.. فلو قمت بخيانته وخداعه فهو لن يخسر شيئا.. وسيعود إلى حكم الإعدام الذي ينتظره أيضا.

والواقع أنني لم أكن أنوي أصلا أن أخون زميلي.. فلن يضرني شيء لو أخذته معي وتناصفت معه أموالي في الخارج.. بل وربما سنكون شركاء في مشروع تجاري نبدأ به حياتنا الجديدة في أمريكا اللاتينية.. يجب أن أبتعد عن جشعي الذي أودى بي إلى الإعدام بعد أن كانت الفرصة متاحة لي للهرب والهجرة.

وهكذا بدأت الاستعدادات لعملية الهروب.. حيث تمكنت من تسليم المبلغ إلى الضابط من خلال صديقي الذي أخبرتكم عنه.. وبالطبع لم أخشَ أن يخل الضابط بالاتفاق ويغدر بنا.. لأنه يعلم أننا سنكشف حينها كل شيء.. وسنفتح باب التحقيقات على مصراعيه.. إذ ستضعه المباحث الجنائية في هذه الحالة تحت المراقبة.. ولو ظهر عليه الثراء المفاجئ.. فسينتهي أمره تماما.. ولا ننسى جوازات السفر المزيفة التي سيوفرها لنا والتي ستكون دليلا خطيرا ضده.. دعكم من أن صديقي قد سجل كل ما دار بينه وبين الضابط من خلال هاتفه النقال دون أن يعلم الأخير بشيء.. فلا توجد إذا أي مشكلة من هذه الناحية.. هناك ضمانات عديدة بهذا الشأن.

عندما حان اليوم الموعود للهرب.. وقبل تنفيذ حكم الإعدام بأيام قليلة.. تمكن الضابط من تهريب مسدس صامت إلى زنزانتي -وهذا جزء من الاتفاق -مع نسخة من مفتاح الزنزانة.. على أن نفتح القفل بأنفسنا في وقت متأخر من الليل.. ونتسلل بعدها إلى الخارج بهدوء دون أن نلفت انتباه أحد.. ولو كشف أحدهم أمرنا فلن يكون هناك بدا من استخدام المسدس.. سيصبح هذا أمرا حتميا.. ثم نتوجه بعد ذلك إلى الساحة الخلفية متسترين بالظلام.. حيث سيتعمد الضابط أيضا إخلاء تلك الساحة لدقيقتين أو أكثر كي نتمكن من عبورها.. ومن ثم تسلق السور الذي تعلوه الأسلاك المعدنية الشائكة!!!.

وكانت هذه الخطوة الأصعب في عملية الهروب.. فمن المستحيل تقريبا عبور ذلك السور العالي بسرعة دون أن تصيبنا الأسلاك المعدنية بالخدوش والجروح.. لكن.. كل هذا لا يساوي شيئا على أية حال أمام الحرية والهرب من حكم الإعدام.

وبالفعل.. جرت الأمور تماما كما خططنا لها في تلك الليلة.. فخرجنا من مبنى المساجين بهدوء شديد دون أن ينتبه أحد لحسن الحظ.. فالمحكوم عليهم بالإعدام يتم عزلهم في زنزانة بعيدة عن باقي المساجين وصخبهم.. أتذكر هذا وأنا أركض بكل قوتي مع زميلي متجهين إلى الساحة الخلفية للسجن.. وإلى ذلك الجدار اللعين والمشكلة الرئيسية في عملية الهروب!!!.. إنه مرتفع.. لكنه قديم للغاية وقد امتلأ بالنتوءات المتناثرة والتي ستساعدنا على التسلق.. كما أن حمض الأدرينالين الذي يتدفق في دمائنا من خطورة ما نفعله سيجعل منا أبطالا في الوثب من دون شك!!!!

و:

-توقفا.. ماذا تفعلان؟!!!.

اللعنة.. لقد كشف الحراس أمرنا كما يبدو!!!.. لكن.. كان رد فعل زميلي سريعا إلى درجة مخيفة.. إذ التفت مباشرة وأطلق النار سريعا.. ثوانٍ قليلة قبل أن أجد حارسين واقعين على الأرض والدماء تفور منهما.. يا إلهي.. لقد.. لقد ارتكب زميلي جريمة جديدة.. وهو المحكوم عليه بالإعدام في قضية قتل أيضا.

نظرت إلى الحارسين المتكورين على الأرض وأنا أشهق بقوة وقد نسيت تماما عملية الهرب.. إلا أن زميلي -الذي يبدو أنه اعتاد على القتل – احتفظ برباطة جأشه وراح يجرني من ذراعي بقوة وهو يحثني على الاستمرار.. إلى أن وصلنا إلى السور المرتفع.. فطلب مني أن أصعد على أكتافه لأبدأ بتسلق الجدار.. وبالفعل.. تسلقته في ثوان وسرعة لم أظن يوما أنني أمتلكها.. ثم مددت يدي إلى زميلي لأساعده على التسلق.. و.. هووووب.. ها نحن الآن نقف على الجدار.. يجب أن نقفز لنكون خارج أسوار السجن.. ستكون القفزة مؤلمة.. ولكن يجب أن نفعل هذا سريعا.. لا وقت للألم الآن.. سنتألم لاحقا.. سنشعر بالرضوض وربما الكسور لاحقا.

قمت بالقفز سريعا.. فوقعت على الأرض بقوة دون أن أشعر بأي ألم من هول الموقف.. نهضت بعدها بسرعة ورحت أنظر إلى زميلي الذي ما زال متوقفا على الجدار قبل أن أسمع أصواتا كثيرة بدأت تخرج من داخل حدود السجن.. يبدو أنهم كشفوا أمر هروبنا.. فقلت هامسا وأنا أعض على شفتي:

-أسرع.. اقفز بالله عليك..

حاول زميلي أن يقفز.. ولكن.. السياج الحادة علقت بثيابه.. إنه يفقد توازنه.. رحت أحدق بما يحدث بذعر حقيقي وأنا أراه يتعثر ويسقط من على الجدار ليرتطم رأسه في الأرض بقوة!!!.. هرعت ناحيته والعرق يتصبب مني.. فوجدته فاقدا للوعي وقد تفجرت الدماء من رأسه حتى بات منظره مخيفا للغاية!!!.. لا أعرف لماذا لم أفكر بتركه وحيدا والهرب بجلدي.. ربما لأنني لم أعتد أبدا رؤية الدماء.. ربما لأن رؤية شخص فاقد الوعي يمتلئ وجهه ورأسه بالدماء حرك جزءا من إنسانيتي.. لا أعرف السبب.. لذا ظللت أحاول إنعاشه كالمجنون.. قبل أن يفتح عينيه أخيرا ويتأوه.. لينهض بعدها وهو يترنح بقوة.. فأسندته على كتفي.. ورحنا نركض بكل قوتنا مبتعدين عن السجن.. إلى أن وصلنا إلى إحدى حاويات القمامة حيث ترك لنا صديقي -الذي أوصل الرشوة إلى الضابط - ثيابا عادية تساعدنا على الاختلاط بالناس بدلا من ثياب السجن مع هاتف نقال ومبلغ صغير من المال يكفي لإيصالنا إلى شقتي السرية.

أبدلنا ثيابنا سريعا.. واتصلنا بإحدى شركات سيارات الأجرة.. ثم رحت أساعد زميلي وأزيل الدماء التي ملأت وجهه.. وقمت بلف رأسه ب (شماغ) لإيقاف النزيف.. لقد كان وجهه شاحبا للغاية بسبب جروحه وكميات الدماء التي خسرها.. وبدا أنه يحتاج إلى عناية طبية عاجلة.

لم ننتظر طويلا.. قبل أن تصل إلينا سيارة الأجرة وتأخذنا إلى شقتي التي ما إن وصلت إليها.. حتى عثرت على جوازاتنا المزورة التي تركها لنا الضابط تحت أرضية المدخل بالقرب من الباب.. مما ترك لدي شعورا بالاطمئنان من أن عملية الهروب في طريقها إلى النجاح.

دخلنا الشقة سريعا.. ليقع زميلي أرضا مباشرة متأثرا بجراحه.. فأغلقت الباب خلفي سريعا.. ورحت أحاول إسعافه بتوتر.. لكنه لم يهتم لما أفعله.. بل راح بالمقابل يهمس بهدوء مهيب ويطلب مني أن أقترب منه لأنه يريد أن يخبرني بأمر هام على حد قوله وهو غير قادر على الكلام بصوت مرتفع بسبب جروحه الغائرة.

اقتربت ناحيته بتعاطف شديد محاولا سماع كلماته وأنا أمسح بنفس الوقت الدماء التي تسيل من على رأسه.. فهمس بأذني متألما:

- يا صديقي.. أشكرك كثيرا على مرافقتك لي.. وعلى كل ما فعلته من أجلي.. ولكن لا تتعب نفسك.. أظن أن هناك نزيفا داخليا.. أشعر أنني سأموت.. اسمعني جيدا أرجوك.. أعتقد

أننا ارتكبنا خطأ فادحا بهروبنا وإطلاقنا النار على 2 من حراس السجن.. يجب أن نعود ونسلم أنفسنا للشرطة!!!.

اتسعت عيناي استغرابا.. وصحت بعصبية بالغة:

-ماذا؟!.. هل جننت يا رجل؟ !!.. بعد كل هذا الجهد وكل الأموال التي دفعتها لذلك الضابط؟!.. تريدني أن أسلم نفسي للموت مرة أخرى؟!.. لماذا؟!.

قال وهو يلهث بشدة:

-يا صديقي.. إنني أحتضر.. وربما هذا ما يجعلني أرى حولي أشياء لم أرها من قبل.. إن ما أراه مخيفا لا يمكن أن أصفه لك!!!.

ثم اتسعت عيناه رعبا فجأة وهو يكمل مرتجفا بشكل ملحوظ ومخيف للغاية:

-يا إلهي.. ارحمني يا رب.. ارحمني.. لا أريد أن تكون آخرتي بهذه الصورة.. تذكر يا صديقي العذاب الذي ينتظرنا بعد الموت؟؟!!.. أموالك لن تحميك من آخرتك.. تذكر أن هذه الدنيا بأكملها لا تساوي عند الله سبحانه وتعالى جناح بعوضة.. صدقني.. لو كنت أملك القدرة على العودة إلى السجن وتسليم نفسي لفعلتها الآن!!!.. لو كنت ترى ما أراه في هذه اللحظة لشعرت بذات الندم!!!!.. يا رب.. سامحني.. سامحني يا رب.. أتوب إليك وأستغفرك!!!!.. يا صديقي.. هناك عقاب مخيف ينتظرني كما أرى حولي.. لا أدري إن كان باب التوبة ما زال مفتوحا.. يارب.. أتوب إليك وأستغفرك ياااارب.

كانت هذه آخر كلماته!!!.. ولا أخفي عليكم أن الموقف بأكمله قد صدمني تماما وأصابني بالصميم.. بل وسبب لي رعبا ما بعده رعب.. حتى إنني ظللت ألتفت يمينا ويسارا بضياع باحثا عن تلك الأشياء التي رآها زميلي قبل موته.. كان هذا يفوق احتمالي.. بل ويفوق احتمال أي إنسان.. فما مررت به اليوم مهولا لا يوصف.

إنني لم أرَ أحدا يطلق النار على آخرين ويرديهم قتلى كما فعل زميلي قبل ساعات قليلة!!!.. ولم يمت أحد بين يدي كما حدث لزميلي أيضا حيث تلوث جسدي بأكمله بدمائه.. والأهم من كل هذا.. كلامه المخيف قبل موته!!!.. كلام يجعلنا ندرك ما ننساه طوال الوقت.. أننا سنلقى خالقنا في نهاية حياتنا.. حيث ينتظر المفسدون -من أمثالي- عذابا يشيب لهوله الولدان.. عندها لن تفيدنا أموالنا وذنوبنا.. يا إلهي.. ما الذي كان يراه زميلي قبل احتضاره؟ !!.. اقشعر بدني بقوة عندما تذكرت هذا الكلام.

كان الموقف عصيبا بحق.. ووجدت نفسي أبكي بحرقة شاعرا بندم لم أشعر به في حياتي.. هل.. هل أشعر بنداء الضمير الآن؟!.. أعتقد ذلك.. وإلا لماذا أشعر أن علي العودة إلى السجن وتسليم نفسي مرة أخرى؟؟!!!!.. ربما لأنني أرى أن الحياة بأكملها لا تساوي عند الله جناح بعوضة فعلا!!.. وأن ما رآه زميلي في لحظة احتضاره كان مخيفا مهولا لا أريد أن أراه بدوري عندما أموت.. ماذا استفاد زميلي من كل ما فعله في حياته؟ !!.. ماذا كانت نهايته؟!.. وكيف سيكون عقابه عند الله سبحانه وتعالى؟ !!.. أما أنا.. فكم من روح أزهقت؟!.. كم من شاب دمرت حياته؟!.. كم من أسرة ضاعت بسببي وبسبب تلك المخدرات اللعينة؟؟!!.. إن الأموال التي أمتلكها في الخارج أموال حرام.. سيلعنها الله إلى الأبد.

هكذا كنت أفكر وأنا أنظر إلى جثة زميلي.. قبل أن أبكي وأبكي دون توقف.. ثم أمسح دموعي بحزم

واضح.. وأتخذ قراري أخيرا.. نعم.. سأسلم نفسي إلى الشرطة.. هذا أقل ما يجب فعله.. لعل الله يسامحني على ما فعلته في حياتي.. سأتوب إليه وأصلي ليلا نهارا إلى أن تتم عملية إعدامي.

نهضت من مكاني شامخا.. قبل أن أخرج من الشقة.. ورحت أمشي في الشوارع شاعرا بصفاء نفسي لم أشعر به من قبل رغم بقع الدم المتناثرة على ثيابي والتي لم ينتبه لها أحد بسبب خلو الشوارع من المارة في مثل هذا الوقت.. هل ذلك الصفاء الذي أشعر به هو من علامات التوبة؟ !!.. لا أعلم.. إنني لم أتب إلى ربي من قبل!!.

طلبت سيارة تاكسي مرة أخرى من الهاتف النقال.. ولا أعرف كم من الوقت مضى قبل أن أجدها أخيرا أمام مكان اتفاقنا.. توجهت إليها ودفعت للسائق كل النقود التي بحوزتي كي يقبل بأخذي إلى السجن مرة أخرى.. غير مكترث بمنظر ثيابي التي لوثتها الدماء والتي لا أعلم إن كان السائق قد انتبه إليها.. ويبدو أن المال قد لعب دوره معه.. إذ أخذني بعد ذلك دون أن ينطق بحرف.. وانطلق بسيارته إلى أن وصلت أخيرا إلى مبنى السجن الذي هربت منه منذ ساعات قليلة.

لم تكن حالة التأهب والترقب هناك مفاجئة بعد كل ما فعلته مع زميلي.. إلا أنني رغم كل شيء.. نزلت من السيارة بهدوء شديد.. وتوجهت إلى بوابة السجن.. فما أن رآني الحراس حتى انقضوا علي بسرعة وكبّلوني دون أن ينطقوا بحرف أمام استسلامي التام لهم.. بعدها حملوني إلى غرفة أحد الضباط المسؤولين.. لم يكن نفس الضابط الذي ساعدنا على عملية الهرب.. بل ضابط آخر أعلى منه رتبة كما يبدو.. و:

-قبل أن أسألك أيها الوغد لماذا هربت.. أريد أن أعرف أولا.. لماذا عدت وسلمت نفسك؟!!.

قلت بانكسار دون أن أتمالك دموعي:

-أشعر بالذنب يا سيدي.. أريد أن يسامحني الله على كل ما فعلته في حياتي.. إنني لم أحتمل رؤية الدماء تنزف من رأس زميلي بسبب سقوطه من على سور السجن وارتطام رأسه بالأرض.. لقد ساعدته على الهرب معي وأخذته إلى شقتي.. إلا أنه لم يتمكن من الصمود أكثر.. يبدو أن جراحه كانت غائرة.. فلقي حتفه هناك.. لكنه تحدث إلي قبل موته ونصحني بالتوبة إلى الله.. وأن أستسلم لحكم القضاء.. لعل الله سبحانه وتعالى يسامحني على ما فعلته.. سأعترف بكل شيء.. حتى بمكان أرباحي من تجارة المخدرات وبمكان جثة زميلي في شقتي السرية.. وأنا الآن بين أيديكم افعلوا بي ما تشاؤون.. إنني بين أيديكم.. بين أيديكم.. بين أيديكم!!!.

رحت أردد هذه الجملة وأنا أدفن وجهي بين راحتي كفي.. لكني فجأة.. توقفت عن البكاء.. وشهقت بقوة وأنا أنظر إلى الضابط دون أن أفهم نوع العبث الذي يمارسه معي.. إذ مط شفتيه وقال باستغراب شديد:

-لا أعرف ما دهاك أيها الأحمق.. إن صديقك لم يهرب معك كما تدّعي.. فقد سقط من على سور السجن وارتطم رأسه بالأرض بالفعل.. لكنه مات سريعا متأثرا بجراحه.. ولم ينهض ويهرب معك!!!!.. أي خدعة تحاول ممارستها؟؟!!.. إن كنت تريد أن تدّعي الجنون فاعلم أن هذا لن يفيدك!!.

أعتقد أن هذه الكلمات كانت أشد وطئا على نفسي من حكم الإعدام نفسه.. فقد انتفضت من مكاني بحدة.. ومسحت دموعي وأنا أنظر إلى الضابط والدهشة تقطر من وجهي.. قبل أن أهتف بصوت مرتفع للغاية وبعصبية حقيقية:

-أي هراء هذا؟؟؟!!.. لقد سلمت نفسي الآن.. فلا داعي للتلاعب بي بهذه الصورة الغبية!!!.

احمرت عينا الضابط وهو يقول بصرامة:

-تأدب عندما تتحدث إلي أيها الحقير.. إنني لا أكذب.. فما قلته لك هو ما حدث بالفعل وأنت تعلم هذا جيدا!!!.

لم أتمكن من النطق بحرف.. فقد جف لعابي فجأة.. وخفق قلبي حتى كاد أن يثب من جسدي.. مهلا.. الدماء.. الدماء التي لوثت ثيابي عندما كنت أحاول إسعاف زميلي.. رحت أنظر إلى ثيابي.. إنها.. إنها نظيفة.. أين ذهبت الدماء؟؟!!.. ظللت أبحث في ثيابي عن أي أثر لتلك الدماء.. فأمسكني الضابط من قفاي.. وجرني جرا إلى غرفة أخرى.. حيث عرض علي تسجيل كاميرات المراقبة لمحاولة هروبنا!!!.

يبدو أن الضابط الذي اتفقنا معه قد أخلى هذه الغرفة بطريقة أو بأخرى أثناء عملية هروبنا.. لهذا لم يرانا أحد نهرب حينها.. بالطبع لم يكن بإمكانه أن يمسح التسجيل أو يوقف الكاميرات عن العمل لأن هذا سيدينه مباشرة.. ولكن.. ليس هذا المهم.. بل ما أراه من خلال جهاز التسجيل!!!.. إنني أرى نفسي أقفز من جدار السجن.. ثم.. أرى زميلي وقد تعلقت ثيابه بالسياج الحديدية.. و.. ها هو يقع على الأرض.. ورأيت نفسي أهرع إليه وأحاول إنعاشه في حين لا يبدي أي استجابة.. قبل أن أتركه وأنهض وحيدا هاربا من أسوار السجن!!!!!!.. لكني كنت أتحدث إلى الهواء.. وأتصرف كأنني أساعد شخصا مصابا على الهرب معي!!!!!.

هل كان هذا الموقف أكثر المواقف صدمة في حياتي؟!!!!.. كيف أصف شعوري لكم؟ ؟!.. هل هو الذهول؟!.. هل هو الإحساس بالجنون؟؟.. لا أعرف.. لا أعرف.. لقد رأيت دليلا واضحا على جنوني.. هل توهمت هروب صديقي معي وتوهمت أنني أتحدث إليه وأنني هربت معه طوال ذلك الوقت؟ !!.. هل أنا مصاب بمرض نفسي؟ ؟!.. هل أثر استخدامي للمخدرات على عقلي بعد كل هذه السنوات؟ !!.. هل.. هل.. علامات استفهام لا حصر لها.. حتى إنني لا أجد ما أقوله!!!.

ومع صمتي وذهولي أمام ذلك الدليل الدامغ على وجود خلل ما في عقلي.. قال الضابط باشمئزاز:

-لا أعرف أي لعبة تمارسها.. ولا أفهم سبب عودتك وتسليم نفسك.. ولا أفهم أيضا سر كذبك الواضح بشأن الهرب مع زميلك.. لا يهمني كل هذا.. فالمهم الآن أنك ستأخذ جزاءك كاملا بعد أن تسببت مع زميلك اللعين بإصابة اثنين من حراس السجن.. لحسن الحظ أنهما لم يلقيا حتفهما.. المهم أننا سنجري معك تحقيقا كاملا لمعرفة كيفية هروبك.. ثم ستأخذ العدالة مجراها وسنضع حبل المشنقة حول رقبتك.. إنك تستحق هذا بكل تأكيد.. إنها....

لم أستمع إلى الباقي.. بل كان فمي مفتوحا وعلامات الاستفهام ظلت تتوافد إلى ذهني دون توقف.. هل أنا مجنون؟!.. هل أنا مصاب بعقدة نفسية؟!.. كيف لم أكتشف جنوني سوى الآن؟ !!.. أم.. ربما أنا لا أعاني من أي مرض.. وأن من هرب معي في واقع الأمر هو شبح زميلي؟؟!!.. هل كان شبحا بالفعل؟ !!.. لا أعرف.. لا أعرف.. لا أعرف..

ماذا حدث بعد هذا؟ ؟!.. لقد كنت مصرا على أقوالي بالطبع.. رغم أنهم لم يصدقوني.. كما اعترفت لهم أيضا بكل شيء يخص ذلك الضابط الذي ساعدنا على الهرب.. فتمكنوا من القبض عليه سريعا -كما سمعت- بعد أن كان يعد العدة بدوره للهرب خارج البلد.. وهو الآن يواجه مصيره.

أما أنا.. فلم يتغير شيء بحقي.. لم أملك ما يكفي من لإثبات أنني مريض نفسي.. لأنني لم أكن يوما مريضا نفسيا طوال السنوات التي تاجرت فيها بالمخدرات.. لذا فلم يستمع أحد إلى توسلاتي وصراخي.. وها أنا الآن أقترب من حبل المشنقة.. إنهم يضعونه حول رقبتي بعد أن تم وضع ذلك الغطاء الأسود اللعين على وجهي.. وما زلت حتى اللحظات الأخيرة من حياتي أتساءل عن أسرار هذه القصة العجيبة.. لا أعرف إن كان من هرب معي شبح زميلي.. أم أنني كنت مجنونا طوال الوقت وقد ظهر جنوني على السطح للتو.. أم أن كل ما حدث عقاب إلهي تم بطريقة غيبية أجهلها.. تساؤلات عديدة شغلت عقلي لآخر لحظات حياتي وجعلتني غير مبال بحكم الإعدام.. وبعملية الهروب.. الهروب الذي فشل بفعل قوة مجهولة.. قوة لا أفهمها!!!!.

الصفقة

كنت في طريقي متجها إلى البيت في وقت متأخر للغاية تاركا زوجتي مع أهلها في الشاليه.. الدموع تترقرق في عيني ولا يمنعها من الانهمار سوى الخجل بسبب وجودي مع السائق الذي راح يقود السيارة بهدوء شديد وسط الشوارع شبه الخالية في مثل هذا الوقت.. غير عالم بالنار التي تشتعل في قلبي بعد الإهانات المتواصلة التي أتلقاها يوميا من زوجتي وأهلها.

أفكر في حياتي بعد الزواج وكيف تسيطر زوجتي على كل شيء فيها بسبب ثرائها الفاحش.. كنت أظن أن زواجي من فتاة غنية سيحل كل مشاكلي.. لكني لم أنتبه إلى نقطة بالغة الأهمية.. وهي أن هذا الزواج غير متكافئ على الإطلاق وقد جردني تماما من رجولتي.. فزوجتي متعالية جدا بسبب الفارق الاجتماعي بيننا.. لذا فهي تتخذ جميع القرارات في حياتنا دون اللجوء إلي.. بل تتعمد إهانتي أحيانا كثيرة.. خاصة حين تكون مع أهلها.. وهذا ما حدث قبل قليل في الشاليه وجعلني أعود إلى البيت في هذا الوقت المتأخر شاعرا بإهانة لا حد لها بعد أن اتخذني الجميع مادة للسخرية والمزاح!!!.. حتى أن شقيقها الوغد راح يناديني مازحا: ((زوج الست)) كما يقولون في المسلسلات العربية كناية عن الرجل الذي تفوقه زوجته قوة ومالا وسلطة.

لذا لم أحتمل البقاء معهم.. فاعتذرت للجميع برغبتي في العودة إلى البيت متعللا أنني متعب قليلا وأحتاج البقاء وحيدا بعيدا عن أجواء المرح في الشاليه.. ولا أنسى كلمات السخرية من شقيق زوجتي ذاته الذي قال بكل وقاحة:

-لماذا أنت متعب؟!.. أنت لا تنجب فلا يوجد ما يقلقك بشأن تربية أطفالك!!!.. ولست أنت من يعيل زوجتك.. بل هي من تعيلك!!.

وما يثير غيظي أنه محق.. فأنا أسكن مع زوجتي في بيت اشترته بأموالها.. فهي بنت العائلة المعروفة التي تنزوي عائلتي خجلا أمامها.. والأهم من كل هذا.. أنا لا أنجب!!!.. نعم.. لقد اكتشفنا بعد الزواج بسنوات قليلة أنني مصاب بعقم يمنعني من الإنجاب.. مما جعلني أفكر كثيرا في موضوع الطلاق.. لكني أعود وأتذكر واقعي الأليم.. ووضعي المادي البائس.. والمؤخر الذي لا أملك نصفه.. فأخرس وأستمر في حياتي معها ذليلا مهانا.. ونعود إلى نقطة البداية بهذا الحوار العقيم!!.. ماذا؟ ؟!.. تسألون لماذا لم تطلب زوجتي الطلاق وتتنازل عن المؤخر؟ ؟!.. أعتقد أنها ترفض فكرة الطلاق أساسا لأنها تكره كثيرا لقب (مطلقة) وترى أنه عار على المرأة ونموذج للفشل.. سمعتها تقول ذلك في أكثر من مناسبة.. وأعتقد أن لديها الشعور الجميل بالتفوق والقوة حين أكون تحت قبضتها.. إنها غريزة بشرية يمتلكها كل منا حتى وإن كنا لا ندري.

أقول هذا الكلام وأنا أجلس وحيدا في غرفة النوم بعد عودتي من الشاليه وعدم احتمالي لوقاحة أهل زوجتي كما علمتم.. أشاهد التلفاز دون صوت وبعين خاوية منتظرا لحظات النعاس.. و.. انقطعت أفكاري فجأة عندما سمعت ذلك الصوت الغريب في الطابق الأرضي!!!!.. هل عادت زوجتي؟ !!.. لا أعتقد.. إن البيت خال تماما.. فالخادمة في الشاليه.. والسائق أعادني بالسيارة إلى البيت وعاد بها مرة أخرى إلى الشاليه أيضا.. فمن الذي أحدث ذلك الصوت؟!!.

شعرت بشيء من التوجس.. فنهضت بهدوء لإغلاق جهاز التلفاز.. ثم توجهت إلى باب الغرفة بحذر شديد.. ورحت أدير مقبض الباب ببطء.. هل.. هل يوجد لص في البيت؟ ؟!.. هذه الأمور

لا تحدث كثيرا في (الكويت).. فتحت باب الغرفة فجأة شاعرا بتوتر شديد في أعماقي.. لأصطدم فجأة برجل مقنع!!!!.

كان ينظر إلي بدهشة بالغة وكأنه لم يتوقع وجودي في البيت.. لكنني تصرفت بسرعة بديهة لم أظن يوما أنني أمتلكها.. خاصة مع عدم امتلاكي الشجاعة اللازمة لهذه المواقف.. فقد قمت بالانقضاض عليه فجأة وسط شهقاته.. ورغم أنه حاول مقاومتي بكل قوته.. إلا أنني طرحته أرضا وكبلت حركته بسرعة بالغة.. خاصة وأنني أكبر منه حجما وأطول قامة كما هو واضح.. مما أشعرني بشيء من الثقة.. فرفعت غطاء وجهه رغم محاولاته العديدة لمنعي.. لأفاجأ بشاب في العشرينيات من العمر ينظر إلي وعلامات الخوف تطغى على ملامحه!!!.

أمسكت به من ثيابه وأجبرته على النهوض.. ثم قلت له بصرامة وشجاعة اكتسبتها من خوفه الواضح:

-ماذا تفعل هنا أيها الحقير؟!.. هل جئت لتسرقنا؟!.

لم يرد.. بل نظر إلي بذعر للحظة.. ثم انهار فجأة وراح يتوسل إلي أن أدعه يذهب لحال سبيله.. لكني تمسكت بثيابه وسألته بقسوة:

-يبدو أنك ظننت أن البيت خالٍ.. لكنك فوجئت بوجودي.. أليس كذلك؟!.. نعم أيها الوغد.. حظك السيء جعلني أعود مبكرا لأجدك هنا وأقبض عليك.

قلت هذا وقمت بسحبه بكل قوتي إلى غرفة المكتب وسط توسلاته.. ثم دفعته إليها دفعا ودخلت معه لأقفل الباب وأضع المفتاح في جيبي شاعرا بنشوة القوة أول مرة منذ فترة طويلة.. لذا وجدت أنه لا مانع من الاستمتاع بهذه اللحظات قليلا قبل الاتصال بالشرطة.

سألت اللص المنكمش في زاوية الغرفة بصرامة واضحة:

-لماذا جئت إلى هنا أيها الوغد؟!.. ما الذي تريد سرقته؟!.. أخبرني بكل شيء الآن!!!.

رد بصوت متحشرج:

-سأخبرك بكل شيء.. لكن أرجوك اتركني أذهب ولا تتصل بالشرطة.. لقد.. لقد كنت أراقب هذا البيت منذ فترة.. وتتبعت السائق الذي وجدته يذهب إلى المسجد القريب باستمرار.. فقمت بالمواظبة على الصلاة في نفس المسجد.. وشيئا فشيئا تعرفت على السائق.. ورحت أكذب وأعرض عليه أن يعمل في بيتي.. فقط لأكسب وده وثقته.. لكنه كان يرفض بسبب الأجر المحترم الذي يحصل عليه هنا.. وحاولت بعدها أن أستدرجه بالكلام ليخبرني أنكم جميعا ذاهبون هذا الأسبوع إلى الشاليه وأن البيت سيخلو تماما.. فوجدتها فرصة مناسبة للسرقة.. لكنني.. لكنني فوجئت بوجودك هنا.

هززت رأسي وابتسمت بتشف.. ثم قلت مهددا:

-سأتصل بالشرطة.. إياك أن تتحرك.. أستطيع أن أسحقك في لحظة كما حدث منذ قليل.

راح يتوسل إلي ألا أفعل.. بل وكاد أن يقبل قدمي.. لكني لم أكترث.. فتوجهت إلى سماعة الهاتف وأنا أحدق به بصرامة.. ثم رفعت السماعة.. و.. تجمدت في مكاني أمام نظراته المذعورة.. ورحت أنظر إليه وقد التمعت عيناي فجأة شاعرا أن هذا اللص قد هبط علي من السماء.. لا أعرف لماذا خطرت في ذهني تلك الفكرة الغريبة.. أنا لا أفكر عادة بتلك الطريقة.. هل أستطيع أن أفعل شيئا

كهذا؟ !!.. وضعت السماعة بحزم.. ما زلت أحدق باللص.. وأنا أفكر.. وأفكر.. وأعيش صراعا مع نفسي.. أما هو فراح يحدق بي بدوره باستغراب واضح.. قبل أن يقول:

-ماذا تفعل؟!.. لماذا تنظر إلي بهذه الطريقة الغامضة؟!.

أخذت نفسا عميقا.. قبل أن أحسم أمري وأقول بشيء من التوتر:

-سأعرض عليك أمرا.. بمثابة الصفقة!!!.. صفقة ستعطيك أملا بالنجاة.. بل ستجني من ورائها بعض المال أيضا.. ما رأيك؟!!.

بدا لي وكأنه تنفس الصعداء بعد أن وجد ما قد يبدو له مخرجا كي لا يقع في قبضة الشرطة.. فراح ينظر إلي بترقب كي أكمل كلامي.. ثم:

-أريدك أن تقتل زوجتي!!!!..

اهتز جسده بقوة.. ثم قال بدهشة:

-مهلا.. مهلا.. أنا لص.. لكني لست بقاتل.. أنا لم أقتل أحدا في حياتي.

قلت بصرامة:

-حان الوقت لتفعل.. أريدك أن تقتل زوجتي.. وسأعطيك 30 ألف دينار مقابل ذلك.. فكر فيما ستكسبه.. سأدعك تذهب إلى حال سبيلك ولن أبلغ الشرطة عنك.. بل وسأعطيك هذا المبلغ نظير قيامك بما طلبته منك.

شعرت أن كلامي أثار انتباهه كثيرا.. فسألني بصوت مرتجف:

-ومتى تريدني أن أقتل زوجتك؟!.. الآن؟!.

سكت طويلا وأنا أفكر بعمق شديد.. ثم قلت ببطء وذهني يحيك خطة بسيطة للغاية لا تحتاج إلى ذكاء.. لكنها فعالة ومذهلة بنفس الوقت:

-ليس الآن.. زوجتي ليست هنا.. ستقتلها الأسبوع القادم بعد عودتها من الشاليه.. سأخرج ليلتها من البيت لقضاء بعض الوقت مع أصدقائي حتى يكون لدي شهود على وجودي بمكان بعيد عن الجريمة.. فالشبهات ستتجه ناحيتي مباشرة دون شك لأني سأرث منها مبلغا ضخما في حال موتها.. المهم أنني سأترك الباب الخارجي مفتوحا.. وستدخل أنت إلى البيت وتتجه إلى نافذة المطبخ التي سأتركها مفتوحة أيضا.. هذه أمور تحدث في كل بيت ولن تثير شكوك رجال الشرطة.. ثم ستتجه أخيرا إلى الطابق العلوي حيث غرفة النوم.. وستدخل لتطعن زوجتي بسكين حاد أكثر من مرة إلى أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.. وتهرب بعدها سريعا.. إنها عملية سهلة التنفيذ.. فقط يجب عليك أن تتمتع بالشجاعة اللازمة لارتكابها.. سيكون عليك أيضا أن تسرق مجوهرات زوجتي وتهرب.. إنها ضربة عصفورين بحجر.. سيظن رجال الشرطة أن من قتل زوجتي مجرد لص متسلل.. وستجد أيضا أن مجوهرات زوجتي التي ستسرقها تساوي 10 آلاف على الأقل.. بالإضافة إلى ال 30 ألف التي وعدتك بها.

يا إلهي.. وجدتها بالفعل فكرة رائعة وأنا أخبره بتفاصيلها.. أشعر أن الأفكار تتواصل في ذهني بشكل غريب.. سألني برهبة:

-لماذا لا تقتلها أنت؟ !!.. ثم.. كيف تعلم أن الشرطة لن تكشف أمري؟!.

قلت مبتسما وكأنني مجرم عتيد متمرس على ارتكاب جرائم القتل والتخطيط لها:

- أنا لا أستطيع أن أقتلها.. لأن الشكوك ستتجه ناحيتي مباشرة كوني زوجها وأحد ورثتها كما أخبرتك.. خاصة وأن علاقتنا الزوجية ليست على ما يرام وجميع أقاربها يعلمون ذلك.. أما أنت.. فالشرطة لن تكشف أمرك لسبب بسيط للغاية.. إذ لا توجد بيننا أي علاقة مسبقة.. كيف سيضعك رجال الشرطة في قائمة الشبهات في هذه الحالة؟!!.

لا أصدق أن هذا الكلام يخرج مني.. تسلل هذا اللص إلى بيتي فتح لي الباب لأفكر بطريقة جديدة مغايرة تماما لطبيعتي.. قد تكون فرصة العمر ويجب استغلالها خير استغلال!!!.

سألني بعدها بحذر وقد شعرت أن لعابه سال تماما للحصول على ال 30 ألف دينار:

-وكيف أعرف أنك ستسلمني المبلغ؟!.. ربما أقتل زوجتك ولا أحصل منك على شيء.

قلت بابتسامة عريضة:

-هذا تحديدا ما كنت أفكر به منذ لحظات.. سأسلمك غدا نصف المبلغ كي تطمئن تماما.. 15 ألف دينار.. وسأنتظر بعدها إلى يوم الخميس القادم كي تنفذ التزامك من الاتفاق وتقتل زوجتي.. وأنا واثق أنك ستفعل كل ما طلبته منك ولن تغدر بي وتهرب.. إنها طبيعة النفس البشرية.. هناك النصف الآخر من المبلغ.. بالإضافة إلى مجوهرات زوجتي التي ستسرقها.. وأنت لن تضحي بكل هذا.. أليس كذلك؟!!.

نظر إلي طويلا وكأنه يزن الأمر بعقله.. ثم قال بحزم:

-حسنا.. سأفعلها.

خفق قلبي بقوة.. وقد شعرت أنني أمام فرصة رائعة.. ثم أردفت مؤكدا:

- كما قلت لك.. ستأتي إلى البيت يوم الخميس القادم بعد منتصف الليل بقليل.. ستدخل من نافذة المطبخ وتتجه إلى غرفة النوم لتطعن زوجتي حتى الموت وتسرق مجوهراتها.. خذ وقتك.. فلا يوجد أحد في البيت سوى الخادمة والسائق.. لن ينتبه السائق لدخولك لأنه ينام مبكرا.. أما الخادمة فغرفتها بعيدة عن غرفة النوم ولن تشعر بشيء.. بل وستكون نائمة أيضا في تلك الساعة.

رد وكأنه يفكر في كل الوسائل التي قد أغدر به فيها:

- وما الذي سيمنعك من إبلاغ الشرطة عني إذا قتلت زوجتك؟!.. هناك احتمال كبير أن تفعلها وتغدر بي.

قلت بحنق بسبب غبائه الواضح:

-لأنك ستخبر الشرطة بكل شيء حينها.. فأنت تعرف الآن أن زوجتي غنية وأنني وريثها.. ولا بد أن السائق قد أخبرك بما هو أكثر من ذلك عندما التقيته في المسجد.. وبكل تأكيد ستثار الشبهات حولي.. ولن أحصل على ورث زوجتي بسهولة.. بل أنا واثق أن أهل زوجتي سيوكلون جيشا من المحامين ضدي على أنني القاتل المحتمل لها.. وقضايا كهذه لن تنتهي بسرعة.. يا عزيزي.. أنا لا أريد موت زوجتي فقط.. بل أموالها أيضا.

نظرنا إلى بعضنا طويلا.. ثم هز رأسه موافقا أخيرا.. واتفقت معه على تسليمه المبلغ غدا بالفعل!!!.. كما أخذت منه رقم هاتفه النقال بعد أن أبلغته بأنني سأتصل به من أحد المحلات

التجارية كي أحدد له المكان الذي سنلتقي به.. واتصلت بعدها بهاتفه النقال مباشرة لأتأكد من أنه لم يكذب ويعطيني رقما خاطئا مثلا.. ثم أخذت منه الهاتف ومسحت تاريخ المكالمات الواردة حتى لا يظهر رقم هاتفي على شاشته.. ولم أنسَ أن أمسح كل بصماتي من على هاتفه.. إنني أتصرف بطريقة احترافية أخافتني أنا شخصيا!!!.

تمت الأمور بسلاسة في اليوم التالي.. إذ التقيت به حسب الاتفاق وسلمته نصف المبلغ.. تماما كما وعدته.. فقد قمت ببيع بعض مجوهرات زوجتي على مجموعة من محلات الذهب لأوفي النصف الأول من قيمة الصفقة.. عالما أن زوجتي ستموت بعد أيام قليلة من الآن وقبل أن تنتبه إلى فقدان مجوهراتها.

مرت بعدها الأيام دون أن يحدث فيها ما يستحق الذكر سوى القلق والانتظار والترقب خوفا من حدوث أي خلل مفاجئ في خطتي قد يكشف كل شيء.. إلى أن جاء اليوم الموعود أخيرا.. يوم الخميس.. حيث خرجت من البيت في العاشرة مساء بعد أن ودعت زوجتي ببرود شديد له دلالة واضحة على علاقتنا الزوجية.. وذهبت للقاء مجموعة من أصدقائي للعب الورق.. ولا أنكر بالطبع أنني بذلت جهدا خارقا للتصرف على سجيتي أمام الجميع محاولا أن أعطي لمسة من المرح تدل على أنني لا أعاني أية مشاكل.. لقد كنت أنفذ دوري من الخطة ببراعة كما ترون.

كان الوقت يمر بطيئا للغاية.. كحال من ينتظر أمرا بالغ الأهمية.. أسترق النظر إلى الساعة بين الحين والآخر.. منتظرا أن تصل عقارب الساعة إلى الثانية فجرا.. إلى أن حان الوقت أخيرا بعد عذاب الانتظار.. فاستأذنت أصدقائي الرحيل متعللا بالنعاس الشديد الذي سيطر علي.. لكن في واقع الأمر.. كان الرعب يدب في قلبي.. حتى راح جسدي يرتجف بأكمله حال خروجي.. وظللت أردد طوال الطريق كالمجنون:

-يا إلهي.. هل فعلها وقتل زوجتي أخيرا؟!.. هل فعلها وقتل زوجتي أخيرا؟!.

لم يكن الأمر سهلا على الإطلاق.. فرغم أنني خططت وأعددت العدة لكل شيء.. إلا أنني لست قاتلا بالفطرة.. ولم أرتكب جريمة قتل من قبل.. لذا فقد بدا الأمر صعبا للغاية.. تدور تلك الخواطر السوداء في ذهني إلى أن وصلت أخيرا إلى البيت وركنت سيارتي بهدوء محاولا التصرف بشكل طبيعي للغاية.

نزلت أخيرا وتوجهت إلى باب البيت.. ثم رحت أمشي إلى غرفة النوم والعرق ملأ جسدي من شدة التوتر.. من المفترض أن أرى زوجتي ميتة الآن مصابة بعدة طعنات والدماء تملأ السرير.. لن يكون الأمر سهلا.. يجب أن أكون جاهزا لهذا المشهد المخيف.

وصلت أخيرا إلى غرفة النوم.. ففتحت الباب بهدوء شديد.. هناك نور بسيط في الداخل.. إنه نور النوم الخافت الذي لا ننام عادة من دونه.. إن زوجتي تحت اللحاف لا أرى منها شيئا.. ترى هل قتلها؟!.. أم أنه لم ينفذ وعده واكتفى بالعربون الذي أخذه مني وهرب؟!.. لا أعلم.

ها أنا أقترب من اللحاف.. أرفعه ببطء شديد.. و.. ارتج جسدي بعنف هائل.. فقد رأيت زوجتي والدماء في كل مكان حولها بالفعل.. لقد فعلها الوغد.. لقد قتلها!!!.. يا إلهي.. رحت أبكي كالأطفال بسبب التوتر ورهبة الموقف رغم أن الرجل نفذ حرفيا ما طلبته منه.

مرت بضع دقائق تمالكت نفسي فيها.. ثم أخرجت هاتفي النقال وبيد مرتجفة طلبت رقم النجدة.. لأخبرهم بصوت باك أنني عدت من سهرتي مع أصدقائي ووجدت زوجتي مقتولة.

نصف ساعة أو ربما أقل.. حتى تحول البيت إلى خلية نحل بعد أن التمت حوله سيارات الشرطة مع الإسعاف.. ورأيت بعض الجيران الذين انتبهوا لهذه الضوضاء وقد تجمهروا بفضول شديد حول البيت يريدون معرفة ما يجري رغم الوقت المتأخر.. فتحت الباب ليدخل مجموعة من رجال الشرطة ورجال الإسعاف.. ووجدت رجلا يرتدي الزي الوطني وتبدو على ملامحه علامات الخطورة.. حيث صافحني بتوجس وأخبرني أنه أحد رجال المباحث.. ثم سألني بهدوء:

-أين هي زوجتك؟!.

أشرت له إلى الطابق الأعلى بوجه شاحب وعينين دامعتين.. فأشار بدوره إلى رجال الإسعاف للصعود إلى الأعلى.. قبل أن يستأذنني ويلحق بهم سريعا وهو يطلب مني بكلمات سريعة ألا أبرح مكاني!!!.

انتظرت دقائق طويلة.. حتى شعرت بعدم قدرتي على الانتظار أكثر.. فحاولت الصعود.. لكن أحد رجال الشرطة الموجودين في الدور الأرضي منعني من ذلك.. لأقف في مكاني حانقا والقلق يلتهم كل ذرة من جسدي.. قبل أن ينزل ضابط المباحث أخيرا.. وينزل من بعده رجال الإسعاف حاملين نقالة تحوي جسدا تمت تغطيته بالكامل باللحاف الأبيض في مشهد مخيف أصابني بالصميم.

طلب مني ضابط المباحث بعدها أن نذهب سويا لنجلس ونتحدث.. ثم سألني وهو ينظر إلى عيني مباشرة:

-كيف ومتى اكتشفت ما حدث؟!.

أخبرته بوصولي إلى البيت في وقت متأخر بعد أن أمضيت السهرة مع مجموعة من أصدقائي.. ثم الصدمة المروعة بوجود زوجتي مقتولة في فراشها.. فقال باهتمام:

-لقد استيقظ السائق للتو لأن غرفته قريبة من الباب الخارجي وقد شعر بضوضاء دخولنا بعد اتصالك بنا.. لكنه لم يفدنا كثيرا. فماذا عن الخادمة.. أين هي؟!.. وهل لك أن تبلغنا بأرقام أصدقائك الذين تقول إنك قضيت الليلة برفقتهم؟!.. المعذرة.. ولكن يجب أن نتأكد.

هذا متوقع بالطبع.. فأخبرته بمكان غرفة الخادمة في الدور الثالث.. وأن عليهم إيقاظها من نومها لأنها لم تشعر بشيء على الأرجح.. ثم أعطيته أرقام هواتف أصدقائي.. و.. ساعتان أو أكثر قبل أن ينتهي الضابط من كل أسئلته ويقول بحزم:

-لا تنسَ أن تخبر أهل زوجتك عما حدث!!!.. وهناك أمر آخر.. لن يرى أحد جثة زوجتك قبل أن ننتهي من عملنا.. سنفحص جثتها جيدا في الطب الشرعي عل هذا يساعدنا على كشف القاتل.. هذا من حقنا كما تعلم.

هززت رأسي بأسى وقد تذكرت مهمة إبلاغ أهل زوجتي بما حدث.. ولا داعي من إصابتكم بالملل.. أنتم تعرفون كيف تبكي الأم.. وكيف ينتحب الأب على موت ابنته.. وكيف يقسم الأشقاء أنهم سينالون من القاتل أينما ذهب.. والصدمة التي أصابت الجميع من تعرض ابنتهم للقتل وهي نائمة آمنة في بيتها.. خاصة أن أمورا كهذه لا تحدث في بلدنا.. وبالطبع كانت نظراتهم المسمومة لي واضحة للغاية.. وكأن الجميع يتهمني بشكل غير مباشر بأنني القاتل وينتظرون فقط نتائج التحقيقات لتؤكد ذلك.. وما أغاظني أكثر أن شكوكهم في محلها!!!.

لكني رغم كل شيء.. كنت أتصرف بصورة طبيعية تماما.. كحال أي زوج ملتاع حزين على مقتل زوجته.. لأنني كنت على يقين أن رجال الأمن يراقبونني بشكل أو بآخر.. فقد عرفوا كل تفاصيل

زواجنا أثناء تحقيقاتهم.. عرفوا أنني سأرث مبلغا ضخما من المال.. وعرفوا أن علاقتي بزوجتي لم تكن على ما يرام.. هذا ما أخبرتهم به بنفسي.. وهو أفضل من الكذب عليهم واكتشاف الحقيقة من خلال عائلة زوجتي مثلا.

تركتهم يرحلون وقد ظننت أن الأمور تسير بأفضل صورة وكما خططت لها.. لكن.. تحولت القضية إلى مسار آخر مختلف تماما بعدها بيومين فقط.. عندما فوجئت باستدعاء رسمي من المخفر للتحقيق معي.. لا أنكر أنني شعرت بقلق لا حدود له يومها.. فأنا أخبرت الشرطة بكل ما لدي.. لماذا يتم استدعائي مرة أخرى؟!.. هل استجد أي شيء؟!.. هل كشفوا أمري؟!.. ولكن.. لو كشفوا ما حدث فلن أستدعى.. بل سيأتون إلى منزلي مباشرة للقبض علي.. لا أعلم.. يجب أن أذهب بنفسي لأستطلع الأمر.. فلا يوجد حل آخر.

كانت الخواطر تلتهم عقلي أثناء طريقي إلى المخفر.. أتساءل إن كان ذلك الرجل الذي قتل زوجتي قد ارتكب حماقة ما وكشف أمرنا.. لقد كنت حريصا للغاية في تعاملي معه.. بل إنني لا أعرف حتى اسمه.. إذ طلبت منه عدم إخباري بأي معلومات عنه كي لا تفلت من لساني دون قصد.. وطلبت منه ألا يتصل بي إطلاقا.. على أن نلتقي بعد مرور أسبوع من قتل زوجتي كي أسلمه باقي المبلغ في مكان وموعد محددين اتفقنا عليهما مسبقا.. نعم.. إلى هذا الحد كنت حذرا.

ظلت تلك التساؤلات في عقلي إلى أن وصلت أخيرا إلى المخفر.. وبدا أن الضابط مستعد لاستقبالي.. فجلست أمامه ونظرات الاستفزاز واضحة في عينيه.. وكأنه متمرس عليها كي يثير غضب المشتبه بهم ويفقدهم صوابهم علهم يكشفون ما لديهم.

بعد لحظات من الصمت المتعمد.. قال الضابط:

- لقد أجرينا تحقيقات عديدة مع الجيران حول الجريمة التي اتضح أنها قد حدثت بين الساعة التاسعة والثانية فجرا.. وهي فترة غيابك عن البيت.. ولكن أخبرنا أحد جيرانك أنه شاهدك تدخل البيت خلال تلك الفترة تحديدا ثم خرجت مسرعا بعدها.. فكيف تقول إنك كنت عند أصدقائك طوال الوقت ولم تتركهم أبدا؟!!.

كان هذا آخر ما أتوقع سماعه.. فقلت وقلبي يخفق بقوة:

- لقد كنت مع أصدقائي طوال تلك الساعات بالفعل ولم أعد إلى البيت إلا بعد الثانية فجرا لأكتشف وقوع الجريمة.. فاتصلت بكم فورا.. أقسم لك أن هذا ما حدث.. تستطيع أن تسألهم!!!.

قال بحزم:

- لقد فعلت.. وأخبروني أنك كنت معهم طوال الوقت كما تقول.. ولكن.. ربما طلبت من أصدقائك أن يكذبوا من أجلك.. هذا احتمال لا يمكن إهماله.. خاصة بعد أن اتضح الآن وجود تناقض كبير بين أقوالك وأقوال جارك الذي يقسم ويصر أنه شاهدك قادما بسيارتك في الحادية عشرة مساء تقريبا لتدخل البيت بتوجس مريب.. ثم تخرج بعدها بحوالي ربع ساعة عائدا إلى أصدقائك ربما.. يقول جارك إنه كان موجودا في بيته ورآك حينها من شباك غرفته.. فماذا تقول؟؟!.

ما الذي يقوله هذا الأحمق؟ ؟!.. أنا لم أعد إلى البيت إطلاقا قبل الثانية فجرا.. هززت رأسي مرة أخرى بعنف.. وقلت له نافيا:

- جاري مخطئ.. مخطئ تماما.. ربما رأى شخصا آخر يدخل البيت فظنه أنا.. ربما رأى القاتل

نفسه!!!!.

قلتها بثقة لأنني صادق في هذه النقطة.. لكن الضابط رد بقسوة:

-وهل سيأتي القاتل بسيارة تشبه سيارتك أيضا؟ ؟!.. ثم.. هناك أمر آخر سأخبرك به.. أرجوك أن تتماسك.. فالأمر شديد الحساسية.. هل.. هل كنت تعلم أن زوجتك تخونك؟!.

نهضت بفزع عند هذه النقطة.. وشعرت أن المفاجآت السوداء تنهمر علي دون انقطاع.. حتى إن عينيّ قد اتسعتا على الآخر.. قبل أن أقول بدهشة:

-زوجتي كانت تخونني؟!.. كيف علمت بذلك؟!.

رد بغموض:

-لنا مصادرنا الخاصة كما تعلم.. أمور كهذه لا تخفى على رجال الشرطة!!.. المهم أن هذا دافع هام جدا لقتلها.. ربما اكتشفت خيانتها لك فأردت أن تثأر لشرفك.

سألته بحدة والشرر يتطاير من عيني:

-أي هراء هذا.. من تظن نفسك؟؟.. إنك تتهم زوجتي بالخيانة.. ثم تتهمني بقتلها؟!.

قال بصرامة:

-نعم.. مصادرنا مؤكدة بخصوص خيانة زوجتك لك.. كما أن جارك يقول إنه رآك في الوقت الذي تدعي فيه أنك كنت عند أصدقائك.. ولو وضعنا في الاعتبار أنك المستفيد الأول دون منازع من موتها انتقاما لعرضك ولتحصل على جزء من الميراث.. ستكون أمامنا جريمة واضحة تتجه كل خيوطها إليك.. خاصة بعد أن علمنا منك شخصيا أن علاقتك بها كانت سيئة للغاية.. كل الشبهات ضدك كما ترى.

خرست تماما بعد كلامه هذا وغرقت في خواطر لا تنتهي.. هل أنا مصاب بمرض نفسي مثلا كي آتي إلى البيت وأقتل زوجتي دون أن أشعر بذلك.. هذا لا يمكن أن يحدث.. ولو حدث فإن أصدقائي الذين قضيت ليلتي معهم سيتذكرون أمر خروجي والعودة إليهم دون شك.. لا.. هذا افتراض سخيف للغاية.. لقد رأى جاري القاتل وظنه أنا.. لا يوجد تفسير آخر.. نعم أنا أطول قامة من القاتل.. نعم أنا أضخم منه جسديا.. لكن في وقت متأخر من الليل ومن مسافة بعيدة.. قد تخدع تلك الأمور البصر.. مهلا.. ماذا عن السيارة؟!.. هل السيارة خدعت جاري أيضا؟!.. لا يمكن أن يكون القاتل قد دبر سيارة شبيهة بسيارتي حتى يخدع الجميع ليبدو وكأنه أنا؟ ؟!.. بل ولماذا يفعل كل هذا أصلا؟!.. أشعر أن هناك أمورا مريبة تحدث في الخفاء.. من الذي يدبرها؟؟!.

مرت تلك الخواطر في ذهني سريعا.. قبل أن يقطعها الضابط ويقول بنبرة لا تخلو من التهديد:

-لا داعي أن أخبرك أنك ممنوع من السفر إلى أن ننتهي من التحقيق في هذه القضية.. أنت المشتبه به الأول الآن.. لكني ما زلت أبحث عن الدليل القاطع.

قال هذا وطلب مني الخروج!!!.. هكذا بكل بساطة.. نهضت غاضبا وخرجت من غرفته بخطوات سريعة وأنا أرتجف بشكل واضح أمام الجميع.. ما الذي يحدث هنا؟!.. شخص ما يحاول توجيه تهمة قتل زوجتي لي بشكل مباشر.. من الذي سيفعل هذا؟!.. وذلك الضابط الوغد بدأ يصدق أنني قاتل زوجتي!!!.. نعم قتلتها.. ولكن بصورة غير مباشرة.. فكيف تحول الأمر إلى

اتهام مباشر بالقتل!!!.

عدت بعدها إلى البيت مهموما حزينا خائفا وأنا أفكر بأبعاد هذه القضية.. هناك أمر لا أفهمه.. هناك لغز هائل في هذه القضية.. يجب أن أعرف ما يحدث حولي.. ولكن كيف؟!.. هل القاتل هو من يعبث بي بهذه الصورة؟!.. لماذا؟!.. لماذا يريد أن يلصق بي التهمة؟!.. لماذا يتكبد كل هذا العناء؟!.. إنه بعيد تماما عن الشبهات.. بل ولا يوجد أي رابط بينه وبيني.. لماذا؟ !!.. لماذا؟ !!.. أسئلة كثيرة معلقة دون إجابة.

في صباح اليوم التالي.. كنت جالسا في صالة المنزل أفكر بما حدث وما سيحدث.. قبل أن تبلغني الخادمة بوجود زائر.. وإذا به أحد أصدقائي.. لقد جاء المسكين ليقدم لي واجب العزاء.. فأنا لم أقم عزاء رسميا حتى الآن لأننا لم ندفن زوجتي بعد كما تعلمون!!.. ففي جرائم القتل أو حتى عند وجود اشتباه بجريمة قتل.. يحق لرجال الطب الجنائي الاحتفاظ بالجثة بضعة أيام وفحصها بالكامل علهم يكشفون شيئا عن هوية القاتل ([10]).

استقبلت صديقي واحتضنته بحرارة مفرغا كل انفعالاتي.. ودار بيننا حديث طويل حول الحادثة.. قبل أن يتنحنح.. وبدا كأنه سيقول أمرا محرجا للغاية:

- المعذرة.. كنت أنوي إخفاء الأمر عنك في البداية.. لكني الآن لا أجد بدا من إخبارك.. فقد يساعد هذا في الكشف عن قاتل زوجتك.

تحفزت حواسي أمام هذا الكلام.. فأكمل صديقي بقلق:

-هل.. هل تعرف أن زوجتك كانت تخونك؟!.

نظرت إليه باستغراب هائل!!.. كيف يعرف صديقي بالأمر؟!.. هل يعلم الجميع بذلك سواي؟ !!.. نقلت إليه تساؤلي.. قبل أن ينظر إلي بأسف ويقول:

-أعترف لك أنني رأيت زوجتك بالصدفة منذ شهرين تقريبا في السيارة برفقة شاب بين المجمعات السكنية في منطقة (الجابرية).. ورأيتهما يترجلان من السيارة متجهين إلى عمارة سكنية فاخرة وهي تضحك معه بعبث واضح.. ثم تبعتهما دون أن يشعرا بي.. لأجدهما وقد صعدا إلى الطابق الخامس.. لقد كانت تخونك بكل تأكيد.. فلا يوجد تفسير آخر.. لكني لم أخبرك حينها بسبب حساسية الموضوع.. أرجوك تقبل اعتذاري لذلك ولا تلمني.. خاصة أنني أبلغت الشرطة بالأمر.. فنحن نتحدث هنا عن جريمة قتل كما تعلم!!.

هكذا إذا عرف رجال الشرطة بمسألة خيانة زوجتي!!!.. لم أرد على كلامه.. فقد كانت ملامحي تنطق بدلا من لساني وأنا أشعر بإهانة لا حد لها بعد ما فعلته تلك الحقيرة.. لقد كانت تستحق القتل بكل تأكيد.. يجب أن ألتقي بذلك العشيق وأعرف إن كان هو الخصم الذي يحاول ضربي في الخفاء.

طلبت بعدها من صديقي عنوان ذلك المجمع السكني.. فوصف لي المكان.. ولم أكذب خبرا.. إذ خرجت من البيت مسرعا بعد أن طلبت منه المغادرة.. فلا وقت لدي للمجاملات.. لكني شكرته بحرارة على ما فعله من أجلي.. ومن المؤكد أنه سيتفهم ارتباكي وتصرفاتي غير اللائقة بعد ما أخبرني به للتو.. أمامي الآن مهمة خطيرة.. معرفة هوية ذلك الوغد الذي يحاول لفت انتباه الشرطة إلي بصورة واضحة.. إن كان هو عشيق زوجتي.. أم القاتل.

نصف ساعة قبل أن أجد نفسي أمام العمارة السكنية.. لأسأل حارس الأمن عن قاطني شقق الدور

الخامس.. فعرفت بوجود شاب يعيش وحيدا في إحدى الشقق.. إنه هو دون شك.. أنا في الطريق الصحيح إذا.. وضعت في يد حارس الأمن مبلغا من المال.. وأخذت المصعد سريعا إلى شقة ذلك الشاب.

التقطت أنفاسي.. ثم رحت أطرق باب الشقة وأنتظر.. أحدهم يقترب من الباب وينظر إلي من خلال العين السحرية.. ليسود المكان صمت مهيب.. ترى هل يعرفني؟ !!.. إنه يفتح الباب في تلك اللحظة.. وكانت الصدمة!!!!!.. إنه الرجل ذاته الذي عقدت معه صفقة قتل زوجتي!!!!.. يبدو أنه هو العشيق المزعوم نفسه.. هذا لا يصدق.. ما الذي يحدث هنا؟ !!.. أنا لا أفهم شيئا.. ربما توقعتم أن يكون عشيق زوجتي هو اللص نفسه الذي أبرمت معه تلك الصفقة.. أما أنا فلا.. أمور كهذه لا يمكن تخمينها في عالم الواقع.

لم أنتظر منه أن يدعوني إلى الدخول.. بل دفعته دفعا ودخلت شقته سريعا وأنا أغلق الباب خلفي بوجه محتقن غاضب.. ثم قلت بحقد الرجل الشرقي على شرفه:

-أنت عشيق زوجتي أيها اللعين؟!.. أنت عشيقها وقاتلها بنفس الوقت؟!.. يبدو أن كل ما أخبرتني به كان كذبا.. إنك لم تكن تراقب البيت كما كنت تقول.. بل أنت تعرف كل خبايا أسرتي بسبب علاقتك مع زوجتي.. لماذا اختارتك زوجتي؟!.. ما الذي تملكه أنت ولا أملكه أنا؟!.

لم يبدُ لي أنه تأثر كثيرا بمفاجأتي له.. بل تمالك نفسه سريعا.. وقال باستهتار:

- نعم.. أنا عشيق زوجتك.. إنني أصادق الثريات وأضحك عليهن وأسرق نقودهن.. فأخبرهن بمعلومات خاطئة عني وأدعي أنني أيضا من عائلة معروفة.. بل وأخصص ميزانية لصرفها على الهدايا التي أعطيها للثريات لأشعرهن بالأمان.. ثم أضرب ضربتي بعدها بشهور قليلة وأقوم بسرقتهن بوسائل مختلفة.. فأخرج من كل علاقة بمبلغ كبير من المال.. وقد التقيت بزوجتك صدفة في أحد المحلات التجارية الفخمة بمجمع (الصالحية) وحاولت التودد إليها لكني لم أنجح.. فتتبعتها بسيارتي أثناء خروجها من المجمع وعرفت مكان سكنها.. ثم رحت أراقب البيت وأتتبع زوجتك يوميا.. فكانت تفاجأ بملاحقتي لها في كل مكان محاولا التودد إليها.. فلديّ إصرارا ليس عند الكثيرين.. حتى إنني نجحت أخيرا.. ونسجت شباكي حولها وكسبت ودها.. بل وكسبت ثقتها الكاملة مع مرور الأيام.. لتخبرني بعد أن توطدت علاقتنا أنكم ستذهبون جميعا إلى الشاليه.. فقمت باستغلال الأمر واقتحمت المنزل لسرقة مصوغاتها.. لكني فوجئت بوجودك.. وأنت بالطبع لم تكن تعرف شيئا عن كل هذا.. فظننتني مجرد لص.

سألته بعينين متسعتين على الآخر:

-ولماذا وافقت على قتل زوجتي؟!..

رد ببرود لا يتناسب أبدا مع الخوف الذي شعر به حين قبضت عليه في بيتي.. ربما لأنه ليس تحت رحمتي الآن:

-أنا لم أقتل أحدا من قبل.. لكني وجدت صفقتك مغرية بحق!!!.. كما أنني وجدت فيها ثغرة رائعة لم تنتبه أنت إليها.. إذ كنت أنوي ابتزازك.. نعم.. فمن المفترض أن نلتقي بعد أيام قليلة من الآن لأستلم باقي المبلغ.. أليس كذلك؟!.. حسنا.. كنت سأطلب منك باقي المبلغ الذي اتفقنا عليه مع جزء من نصيبك من الميراث وإلا سأضعك في قائمة الشبهات.. بل ووضعتك في قائمة الشبهات بالفعل كنوع من التحذير لما أنا قادر على فعله.. إذ سرقت سيارة حرصت جيدا أن

تكون شبيهة تماما بسيارتك.. وجئت بأحد أصدقائي الذي لا تختلف بنيته الجسمانية عنك كثيرا.. وطلبت منه أن يقود تلك السيارة ويركنها أمام بيتك.. على أن يدخل بعدها البيت حتى يبدو من بعيد وكأنه أنت.. فيبقى في الساحة الداخلية للبيت بعض الوقت ليخرج بعدها مرة أخرى.. حتى يعطي إيحاء لكل من يراه من الجيران أنه أنت.. فعلت كل هذا حتى تعلم أنه من السهل جدا أن أضع خيوطا إضافية في يد الشرطة للإيقاع بك إذا لم تخضع لشروطي.. كنت سأخبرك بكل هذا في لقائنا القادم.. لكنك سبقتني ووصلت إلي!!!.

قلت ببرود أثار استغرابه:

- هل تظن أنك ستفلت بهذه السهولة؟!.. إنك في مأزق هائل الآن.. ألم تسأل نفسك كيف وصلت إليك؟!.. لقد رآك صديقي وأنت تأتي إلى هنا برفقة زوجتي.. فعرف مكان سكنك وأخبرني بالعنوان.. بل وأخبر الشرطة أيضا.. ولا شك أنهم سيصلون إليك قريبا ليجروا تحقيقات طويلة معك.. ولا تنسَ أن شخصا مثلك تلاعب كثيرا بالنساء الثريات سيثير الشبهات لدي رجال الشرطة.. هذا أمر مؤكد.. وعندها لن يصدق أحد رجلا عابثا محتالا مثلك.. بل سيصدقون رجلا مثلي لم يرتكب أي جريمة في حياته.. أليس كذلك؟!.

نظر إلي بقلق حقيقي وقد شعر أنني على حق تماما.. ثم.. حدث آخر ما توقعته.. إذ هجم علي فجأة وهو يصرخ:

-أيها اللعين!!.

ثم اشتبك معي!!!.. بالطبع هو يشعر بالقوة الآن لأنني في شقته.. وليس كما حدث في المرة السابقة عندما قبضت عليه متلبسا في بيتي وكان ضعيفا هشا يرجوني أن أتركه يذهب لحال سبيله.

لكني استغللت الفارق البدني بيننا لأعود إلى صوابي بعد مفاجأته لي.. فدفعته بكل قوتي لأبعده عن طريقي.. ثم اتجهت ناحية الباب أحاول الخروج من شقته كي لا أتورط في المزيد من المتاعب معه.. إذ وجدتها في واقع الأمر فرصة ذهبية إذا تركت الأمور على ما هي عليه.. فوصول الشرطة إلى هذا الرجل سيبعد كل الشبهات عني.. وسأبلغهم أنني لم أرَ عشيق زوجتي من قبل سوى الآن بعد أن أبلغني صديقي أن زوجتي كانت تخونني.. وهذا ما جعلني أزوره.. فكرة رائعة كما ترون.

لكن.. ما إن فتحت الباب محاولا الخروج.. حتى وجدت ضابط المباحث أمامي برفقته مجموعة من رجال الشرطة!!!.. تجمدت تماما في مكاني.. وسمعت شهقة قوية أطلقها عشيق زوجتي.. يبدو أنهم كانوا على وشك طرق الباب قبل أن أفتحه أنا.

وأمام نظراتنا المذهولة.. قال ضابط المباحث بلهجة آمرة:

-اقبضوا على هذا الرجل!!.

لا.. لم يكن يقصدني أنا.. بل يقصد عشيق زوجتي!!!.. فانقض عليه رجال الشرطة فجأة وكبّلوه وسط اعتراضاته وقسمه بأنني أنا الفاعل الحقيقي وليس هو.. لكن الضابط ابتسم بسخرية وهو ينظر إليه.. ثم قال لي بجدية وبلهجة يشوبها بعض الاعتذار:

-مبروك.. لقد كشفنا القاتل.

ثم أشار بيده إلى عشيق زوجتي وهو يقول:

-إنه هو.. هو القاتل.. و.. المعذرة.. الواقع أنه ليس قاتلا بالمعنى الحرفي.. فما فعله ليس قتلا.. بل شروعا في القتل.

نظرت إليه دون فهم.. فأكمل قائلا:

-نعم يا سيدي.. لم تكن جريمة قتل.. بل مجرد محاولة قتل.. لأن زوجتك لم تمت!!!!.

اتسعت عيناي ذهولا وأنا أقول:

-ماذا؟؟!!!!!!!.. زوجتي لم تمت؟؟؟!!!.. ماذا تعني؟!.. أي هراء هذا؟!!!.

رد مبتسما بثقة:

-لقد كانت زوجتك بين الحياة والموت عندما أخرجناها من بيتك في ذلك اليوم.. لكني طلبت من رجال الإسعاف والطبيب عدم إبلاغ أحد بذلك!!!.. وأبقينا الأمر سرا.. ثم وضعناها في المستشفى بالعناية المركزة وهي في حالة خطرة.. كنت أريد أن أحتفظ بهذه الورقة دون علمك لأنني -أصدقك القول -كنت أظنك أنت الفاعل.

سألته بحدة وقلبي يخفق بعنف:

- كيف تخفي عني بقاء زوجتي على قيد الحياة دون أن تخبرني؟ !!.. هذا ليس من حقك.. أن تعرف ذلك جيدا!!!.

رد بلهجة يشوبها الاعتذار:

-إنك محق تماما.. القانون لا يسمح لنا أن نخفي عنك أمرا كهذا ([11]).. وهو أمر سأعاقَب عليه بكل تأكيد لو تقدمت أنت أو أحد أفراد عائلة زوجتك بشكوى ضدي.. لكني قمت بهذه المغامرة على مسؤوليتي ونتاج خبرتي الطويلة ظنا مني أن إخفاء هذا الأمر قد يساعدنا على كشف أمرك كون الشكوك كانت تتجه بأكملها إليك.. لقد تغير كل شيء بعد أن استيقظت زوجتك قبل ساعات قليلة وبعد اجتيازها مرحلة الخطر.. فأخبرتنا باسم القاتل.. لذا جئنا لنقبض عليه!!.

لا يمكن.. هذا مستحيل.. مستحيل تماما.. لا أصدق أن هذا ما حدث.. لا يمكن أن أفعل كل ما فعلته لتعود زوجتي إلى الحياة بعد ذلك وكأن شيئا لم يكن!!!.. هل يعقل أن تعبث بي الأقدار بهذه الصورة؟ !!.. لقد مررت بمغامرة صعبة للغاية دون أي جدوى.. هذا يفوق احتمالي!!!.. لا أنكر أن دموعي قد انهمرت من هول ما حدث.. ليربت الضابط على كتفي مهدئا وهو يقول:

-أعرف.. أعرف أنك سعيد لنجاة زوجتك.. أنصحك ألا تفكر بطلاقها بسبب خيانتها لك.. فقد مرت بتجربة قاتلة نجت منها بأعجوبة.. اذهب إليها.. وتحدث معها.. لقد كتب الله لها حياة جديدة.. ربما كان هذا لسبب وحكمة لا نعلمها.. تذكر ذلك!!!.

ثم أردف مبتسما بحرج:

-لن تشكوني إلى السلطات بسبب إخفائي أمر نجاة زوجتك من جريمة القتل.. أليس كذلك؟!!.

نظرت إليه وأنا أمسح دموعي.. ثم صافحته ووعدته أنني لن أفعل.. ليبتسم بدوره ممتنا ويتركني وسط حيرتي وتساؤلاتي.. ويخرج مع رجال الشرطة ومعهم عشيق زوجتي الذي ظل يصرخ ويتوعد ويخبرهم أنني القاتل الحقيقي.. لكن.. لا يوجد أي دليل لديه.. خاصة مع شهادة زوجتي التي تحسم القضية تماما!!.

أما أنا فتوجهت بذهن مشوش مرتبك إلى المستشفى.. حيث وجدت زوجتي هناك منهكة.. واهنة.. ضعيفة.. وعشرات الخراطيم تتصل بجسدها.. و.. ما إن رأتني حتى أجهشت في البكاء وهي تطلب مني أن أسامحها وتخبرني كم كانت ظالمة في معاملتها لي.. وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد كتب لها عمرا جديدا ستستغله حتما خير استغلال.. مع كلام كثير رائع يوحي أن مشاكلي ستحل إلى الأبد.

لكني رغم كل شيء.. لم أتحدث ولم أتفوه بحرف.. بل كنت أنظر إليها مفكرا بشرود.. ماذا سأفعل؟!.. هل أستمر معها وأنسى ما فات؟!.. لا أدري.. إنني عاجز عن اتخاذ أي قرار رغم أنها ظلت تتوسل بصعوبة شديدة بسبب إصاباتها البالغة والأجهزة التي تحيط بها من كل صوب.. قبل أن يدخل أفراد أسرتها فجأة.. ويلتف حولها والداها وأشقاؤها ويعانقونها بلهفة وقد شعروا أن ابنتهم عادت إلى الحياة بعد أن تقبلوا تماما فكرة موتها.

أما أنا.. فقد أصبحت بطل العائلة الجديد بلا منازع بعد أن عرف أهل زوجتي بما جرى وشعروا بالذنب بسبب ظنونهم في أنني قاتل ابنتهم.. لكن الآن اتضحت براءتي.. وتبين لهم فداحة أفعالهم السابقة وطريقة تعاملهم معي.. خاصة بعد أن لاحظوا تصرفاتي عندما ظننا جميعا أن زوجتي قد قتلت.. ورأوا انهياري نفسيا ونمو لحيتي ودموعي التي لم تتوقف.. لقد كنت ممثلا بارعا كما ترون.. فكل تلك التصرفات جعلتهم يتأكدون أنني أحب زوجتي رغم كل ما فعلته بي!!!.

ولا ننسى أيضا أنهم عرفوا جميعا بأمر خيانتها لي.. وأنها محظوظة كي يحتفظ بها زوجها رغم ذلك.. لذا فقد تبدلت معاملتهم لي تماما.. وأصبح ارتباطي بابنتهم مهما الآن درءا لفضيحة ستطال عائلتهم بأكملها.. فبات الجميع يحاولون كسب ودي طوال الوقت وينظرون إلي باحترام بالغ.

إلا أنني كنت أبتسم في أعماقي لعدم دراية أحد بسري الخطير.. وأنني وراء الأحداث كلها منذ البداية.. لكن الظروف خدمتني كثيرا لأبتعد عن القضية وكأن شيئا لم يكن.

والآن.. تنتظرني حياة جديدة مع زوجتي بعد أن قررت أن أغفر لها كل ما فعلته.. حتى خيانتها.. نعم.. آلاف الرجال يخونون زوجاتهم يوميا.. ثم يطلبون المغفرة إذا ما انكشف أمرهم.. فلماذا لا يسامح الرجل زوجته أيضا؟ !!.. خاصة وأنني واثق أن زوجتي قد رأت ما لم يره أحد بعد أن تعرضت للطعن حتى الموت.. لكنها نجت بأعجوبة.. وأن كل شيء في قصتي تلك قد توج بالنجاح.. سوى الصفقة التي عقدتها مع عشيق زوجتي والتي لم يعرف أحد بأمرها.. تلك الصفقة التي فشلت فشلا ذريعا.. ونجحت بدلا منها صفقة أخرى.. صفقة الأقدار التي لم يكن لي يد في أحداثها.

الرجل الذي لا يخسر أبدا

أعرف جيدا أن القمار مرض اجتماعي قد يصل بالإنسان إلى مرحلة الإدمان.. وربما يتطلب علاجا نفسيا صارما للتخلص منه.. لكني لم أطلب يوما علاجا لإدماني على القمار.. ربما لأنني بارع للغاية بما أفعله.. فأنا مقامر بالفطرة.. ومن يراني أمارس أي نوع من أنواع القمار سيعرف مباشرة أنني محترف بالفطرة أيضا.. تماما كما نميز المحترف من الهاوي حين يتفحص أحدهما رسم تخطيط القلب أو المخ.. أو عندما نميز التاجر عن طريق عده السريع للمال على عكس الإنسان العادي الذي يعد المال بشيء من البطء.

أعلم ما سيدور في أذهانكم!!!.. ستقولون إن القمار بكل أنواعه محرّم شرعا وإنني إنسان غير سوي.. مع ديباجة لا تنتهي من النصائح.. والواقع أن هذا لا يهمني إطلاقا.. فحب القمار في دمي.. حتى إنني حاولت التوقف عنه كثيرا في البداية.. لكني عجزت.. إلى أن أدركت منذ حوالي 10 سنوات.. أنه الوسيلة الوحيدة التي أعرفها لكسب المال خاصة بعد أن احترفت كل أنواع القمار تقريبا ومارستها وتدربت عليها جيدا وأصبحت مولعا بها إلى درجة الإدمان كما أخبرتكم في البداية.

وبالطبع فإن أمرا كهذا لا يمكن إخفاؤه عن الناس.. فمع مرور الأيام.. انتشرت سمعتي بين أقاربي.. وعرف الكثيرون منهم بعشقي المبرح وإدماني للقمار.. حتى إن العديد من الفتيات رفضن الزواج مني.. خاصة بعد أن يسأل أهاليهن عني.. ويعرفون أنني مقامر محترف تسبب القمار في ابتعادي عن دراستي وعدم مزاولتي لأي مهنة.. لذا ابتعد أقاربي عني شيئا فشيئا.. إلى أن أصبحت وحيدا تماما.. لكن هذا لم يهمني كثيرا أيضا!!.

ومع مرور الأيام.. كونت لنفسي ثروة لا بأس بها تبعدني عن كل هموم الحياة.. حتى إن المال لم يعد الهدف الرئيسي بالنسبة لي.. بل رؤية الهزيمة في عيون المنافسين مهما كانت خبرتهم.. حتى بات العديد منهم يتجنبونني بعد أن تغلبت عليهم وأخذت أموالهم بجدارة في مناسبات عديدة.. بل وأجبرت بعضهم على بيع بيته بسبب الشيكات التي وقّعوها لي لعدم توفر سيولة مادية معهم.

بالطبع لم أكترث لتوسلاتهم بإعادة ما كسبته لهم.. فما أن أقضي على خصومي.. حتى أدير لهم ظهري وأبحث عن خصم جديد!!.. وهكذا كانت عجلة الانتصارات تدور وتدور دون أن يوقفها أحد في ذلك العالم السفلي الذي يجهل الكثيرون وجوده في (الكويت).. عالم القمار!!!. كنت أبحث طوال الوقت دون كلل عبر الانترنت أو من خلال معارفي عن منافسين جدد لأقضي عليهم وأستمر على القمة.. إلى أن سمعت يوما عن ذلك الرجل الغامض!!!.. رجل يكبرني سنا.. ويعشق القمار أكثر مني كما يقال عنه.. ومحترف من الطراز الأول.. حتى إنه لم يخسر في حياته إطلاقا.. وهذا أمر بالغ الغرابة.. فلا بد للإنسان أن يخسر مرة واحدة على الأقل!!!.. أنا -على سبيل المثال- لم أخسر منذ سنوات.. لكني خسرت في بداية مشواري في عالم القمار قبل أن أتعلم وأكتسب الخبرة والمهارة مع مرور الأيام!!!.

أما هذا الرجل الغامض.. فهو أسطوري بكل المقاييس كما سمعت عنه.. إذ بدأ ممارسة القمار منذ حوالي 15عاما.. ولعب مع أكثر من 85 شخصا طوال تلك السنوات.. حيث تغلب عليهم جميعا.. ولكن.. القمار الذي كان يمارسه لم يكن من خلال لعب الورق.. بل بلعب (الروليت الروسي)!!!.. وهي لعبة مخيفة تعتمد على وجود مسدس لا يحوي في خزانته سوى طلقة واحدة.. ويتبادل المتبارزان تصويب المسدس إلى رأسيهما وضغط الزناد.. حتى تكون الطلقة من نصيب

أحدهما وتصيبه في مقتل.. هذا هو الروليت الروسي المعروف.. لا بد أن ينتهي بوفاة الخاسر كما ترون!!.

لكن.. سمعت أيضا أن الرجل قد وضع لمساته الخاصة على لعبة الروليت الروسي هذه -وإن كانت اللعبة تنتهي بوفاة الخاسر أيضا -إذ كانت طريقته المبتكرة تعتمد على وضع مسدسين على منضدة دائرية.. أحدهما يحوي رصاصة صوتية فحسب والآخر محشو برصاصة حقيقية.. ويوضع كل مسدس في ناحية.. ثم تدور المنضدة حتى تتوقف تلقائيا.. ثم يأخذ كل متبارز المسدس الذي أمامه ويطلق النار على الآخر!!!.. وبطبيعة الحال فإن من يحصل على المسدس المحشو هو الذي يكسب الرهان.. إذ سيطلق النار على الخاسر ويكون هو الفائز.. هكذا بكل بساطة!!.

لقد تحريت الدقة حول هذا الأمر.. وسألت عن هذا الرجل.. فعرفت أنه فاحش الثراء.. ومن عائلة معروفة ذات نفوذ مخيف.. إلا أنه شديد الغموض.. ولا يظهر أبدا لوسائل الإعلام.. وعرفت أيضا أنه دائما ما يأخذ جثة الخاسر ويرميها في مكان ناء بعيدا عندما يكسب رهانه.. ليحتار رجال الشرطة طويلا في كشف ملابسات جريمة القتل دون أن يتوصلوا إلى شيء.. إذ لا توجد أي علاقة مسبقة بين ذلك الرجل الغامض وأي من منافسيه.. فهو لا يلتقي بهم إلا في ساعة لعب القمار وتحت شروط صارمة ومحددة.

لقد أثار هذا الرجل جنوني بالفعل.. وشعرت أنه أسطورة حقيقية في عالم القمار.. خاصة بعد أن عرفت أنه بارد الأعصاب إلى حد لا يصدق.. نظراته جامدة.. لا يبتسم أبدا.. مما جعلني أتوق شوقا للقائه ومنازلته رغم ترددي الشديد في البداية.. إذ لم أقامر من قبل على حياتي نفسها!!!.. إنها المرة الأولى.. فدائما ما تدور مقامراتي حول المال.. المال فحسب.

ومع مرور الأيام.. ألقيت ترددي خلف ظهري شاعرا أن هذا الوغد يصفعني بقوة على قفاي كل يوم دون أن يعلم!!!.. فأنا الأفضل.. أنا الأفضل دون منازع في عالم القمار.. لذا.. اتخذت قراري النهائي.. سأنازل هذا الرجل.. وسأهزمه.. كيف؟ !!.. لا أعلم.. لكني أمتلك مقدرة تخيف الجميع.. بل وتخيفني أنا شخصيا بعض الأحيان.. مقدرتي تتمثل بدقتي الشديدة وقياسي الصحيح للأمور.. أشعر أن لدي فراسة لا تخطئ.. وربما هي الثقة التي اكتسبتها طوال السنوات الماضية.. خاصة أنني ألعب القمار تحت شروط صارمة وقواعد وضعتها لنفسي كي لا يتشتت تركيزي إطلاقا.. مثل إغلاق الهاتف النقال.. وعدم تناول المأكولات والمشروبات بتاتا أثناء اللعب.. والاحترام الشديد للخصم دون الخوف منه.. ثم يأتي التركيز الشديد والانسلاخ تماما عن حياتي الخاصة.. وهذا المطلب الأخير ليس بالأمر اليسير.. لكني أفعلها بسهولة الآن بعد سنوات من الممارسة وأجواء الترقب.. فأنا مدمن.. ومحترف بنفس الوقت.. هل نسيتم؟!!.

ما زلت أتذكر الترتيبات الهائلة التي قمت بها لمنازلة هذا الرجل الأسطوري.. ولا أنسى أيضا أن هناك ترتيبات مماثلة من جانبه.. إذ تبين ذلك من الاتصالات الهاتفية الكثيرة التي تلقيتها من أناس يعملون لديه ليبلغوني بتفاصيل اللعبة وكيفية وصولي إلى مكان المنازلة!!!.. لأشعر أن هذا الرجل منظم جدا ويعرف ما يفعله.. فزاده هذا احتراما في نظري.

المهم أن الرجل قد حدد موعدا للقائي في مزرعته الفخمة!!!.. وهي جزء من ممتلكاته الكثيرة.. كان الموعد بعد حوالي أسبوع.. فوجدتها فرصة مناسبة للتركيز والتفكير قبل يوم المنازلة الكبرى.. إذ رحت طوال ذلك الأسبوع أحاول ترتيب أفكاري.. بل وحياتي نفسها.. محاولا إيجاد طريقة للفوز

في لعبة الموت هذه.. ففرصة الفوز ٥٠٪ للطرفين كما هو واضح.. والأمر قد لا يعتمد على المهارة لو نظرنا إلى الأمر للوهلة الأولى.. بل على الحظ فحسب.. لكن.. هذا الرجل ربح حوالي 85 منازلة كما علمنا دون خسارة واحدة.. إذا لا بد أن هناك سرا في عدم خسارته.. سرا خطيرا سأكتشفه بنفسي!!.. هذا ما أراهن عليه.

كان المبلغ المرصود للقمار نصف مليون دينار.. نعم.. مبلغ هائل بالتأكيد.. وهو المبلغ الذي يعرضه ذلك الرجل دائما على مبارزيه.. حتى إنني أجريت حسبة بسيطة لعدد المرات التي قامر فيها.. ووجدت أن مجموع المبلغ الذي ربحه أكثر من 40 مليون دينار كسبها من فوزه المستمر في لعبة الروليت الروسي!!!. وهكذا رحت أتدرب أكثر وأكثر طوال الأسبوع قبل المنازلة الكبرى.. أعيش أجواء هادئة طوال الوقت حتى أكون في قمة تركيزي أثناء تواجدي معه.. أحاول أن أجد ثغرة للتغلب عليه.. أردد بيني وبين نفسي أن هذا الرجل إذا لم يخسر ولو مرة واحدة طوال تلك السنوات.. فهذا يعني أنه يمارس خدعة ما.. ربما في عملية تدوير المنضدة نفسها.. ربما الشخص الذي يقوم بتدوير المنضدة يفعلها بصورة محددة تجعل المسدس المحشو بالرصاصة الحقيقية يستقر دائما أمام ذلك الرجل.. لا أعلم.. لكني سأكشف كل شيء بنفسي.. لقد هزمت أعتى المقامرين.. حتى في البلدان الغربية.. ولن يقف في طريقي هذا الأحمق مهما بدا مخيفا!!!.

بعد حوالي أسبوع.. كنت في منطقة (الفنطاس) في الموعد المحدد حيث مكان المنازلة.. لأجد نفسي متوقفا أمام بوابة كبيرة أعطت المزرعة هيبة بالغة!!!.. فما إن توقفت بسيارتي.. حتى خرج أحد الحراس من الجاليات العربية كما بدا لي.. ليقول باحترام بالغ:

-شكرا لقدومك في الموعد يا أستاذ.. إن سيدي ينتظرك في الداخل.. تفضل.

قال هذا وابتعد سريعا ليفتح البوابة.. فدخلت بسيارتي إلى داخل المزرعة لأجد نفسي في حديقة مذهلة لم أتخيل أن أرى مثلها في (الكويت).. تصميم زراعي رائع.. نباتات نادرة لم أكن أعلم بوجودها من قبل.. هذا الرجل أسطورة حية بالفعل!!!.. لكن.. لن أجعله يبهرني.. إنني صاحب الكلمة العليا.. سأتذكر هذا جيدا.

توقفت بسيارتي أخيرا أمام بيت فخم للغاية يقع في وسط المزرعة كما بدا لي.. ونزلت متوجها إلى المدخل الرئيسي مرتديا بذلة رسمية.. ممسكا بحقيبة تحوي التزامي من الرهان.. حتى فتح لي الباب مجموعة من الرجال الذين يرتدون بدورهم البذلات الرسمية.. فبدوا وكأنهم رجال عصابات المافيا الذين نراهم في الأفلام!!!.. لكني رغم ذلك لم أهتز أبدا.. فهؤلاء لن يضربوني ويسرقوا أموالي مثلا.. لقد تحريت جيدا عن هذا الرجل.. وعرفت أنه مدمن للقمار كما علمنا.. ويفعل ما يفعله من أجل المتعة فقط.. خاصة أنه تجاوز مرحلة الثراء وجمع المال.. تماما كما هو الحال معي!!!.

اصطحبني الرجال باحترام بالغ إلى قبو البيت دون أن أبدي أي انفعال جراء الأثاث الفاخر الموجود حولي.. حتى وجدت نفسي فجأة أمام باب خشبي لا يقل ثمنه عن ثمن سيارة ربما!!!.. فطرق أحد الرجال الباب بهدوء واحترام شديد.. لأسمع بعدها صوتا هادئا عميقا من الداخل يسمح لي بالدخول.. و.. ما إن دخلت.. حتى وجدت غرفة كل ما فيها ينطق بالبذخ الشديد.. غرفة مؤثثة على نحو رائع بالفعل وتنم عن ذوق رفيع.

أما أكثر ما شدني فهو تلك المنضدة الدائرية الفخمة.. والمسدسان الموجودان عليها.. وذلك الرجل ممتلئ الجسد والذي يرتدي الزي الوطني (الدشداشة) مع نظارة أرى من خلالها عينين مخيفتين ثاقبتين.. أعتقد أنني رأيت هذا الرجل من قبل.. ربما شاهدت صورته في الصحف أو

نشرات الأخبار.. لكن لا أحد يعرف شيئا عن عالمه السفلي بطبيعة الحال.. وهناك أيضا 3 أشخاص لا يقلون شأنا عن ذلك الرجل ويبدو أنهم ضيوف عنده.. أو ربما شهود.. أمر طبيعي أن يأتي بشهود ليبهرهم.. وربما ليقوموا بالرهان على منازلتنا.. مهلا.. إنني.. إنني أعرف أحد هؤلاء الشهود.. فهو مسؤول كبير في البلد أيضا.. لكن.. لم أكترث لكل هذا.. بل أخذت نفسا عميقا مهيئا نفسي لخوض أهم مقامرة في حياتي.

نظر إلي الرجل طويلا دون أن ينطق بحرف.. أشعر أنه عندما ينظر إلي.. فكأنه ينظر إلى عقلي.. و.. تحدث أخيرا ليقول بهدوء شديد:

-مرحبا بك في مزرعتي.. إنني دائما أبحث عن المقامرين المحترفين وأهزمهم واحدا تلو الآخر!!!.. ولكن.. أنت أول مقامر يبحث عني ويعثر علي.. وهذا يدل على أنك محترف بالفعل.. كما أنك شجاع للغاية يا رجل.. لقد قمت بدوري بتحريات واسعة عنك.. فكان ما عرفته مبهرا!!!.

قلت له بشيء من الفخر:

-كل ما سمعته عني صحيح تماما.. أنا لم أخسر أي مقامرة أو رهان منذ حوالي 10 سنوات رغم المرات الكثيرة التي قامرت فيها.. إنك تجلس أمام أسطورة في عالم القمار.. ثق في ذلك!!!.

قلت كلامي هذا حتى يعرف أن مزرعته لا تبهرني -وإن فعلت في واقع الأمر -وأنني قابلت أناسا مثله من قبل.. إلا أنني كذبت أيضا في هذه النقطة.. إذ لم ألتقِ بأحد مثله من قبل.. لكني أريده أن يهابني ويضع لي ألف حساب.. لست أنا من ينبهر بخصمه.. فليعِ هذا الوغد كلامي جيدا.

قطع الرجل تسلسل أفكاري حين قال ما توقعته:

-أنت تعرف قوانين اللعبة.. إنه روليت روسي.. ولكن مع لمساتي الإضافية الخاصة.. سيقوم خادمي بتدوير المنضدة الدائرية بكل قوته.. ثم سيتركها تدور وتدور إلى أن تتوقف تماما.. ليأخذ كل منا أقرب المسدسين إليه ويطلق النار على الآخر.. ولو خسرت.. فسأتخلص من جثتك وأرميها في بقعة نائية.

سكت قليلا قبل أن يكمل بسخرية:

-كما هي العادة!!.

تنهدت.. ثم قلت بشيء من الصرامة:

-المعذرة.. لكني سأدير المنضدة بنفسي.. إذا لم يكن هناك غش في موضوع تدوير المنضدة فلن يهمك من سيقوم بهذه المهمة.. أليس كذلك؟!.. هناك نقطة أخرى تثير اهتمامي.. كيف تغلبت على 85 منافسا في السابق ورميت جثثهم في الصحراء دون أن يثير ذلك أي ضجة إعلامية؟!!!.

قال بغموض:

-بخصوص النقطة الأولى.. فلا مانع لدي.. تستطيع أن تدير المنضدة بنفسك.. أما سؤالك الثاني.. فهذا أمر طبيعي.. لقد تغلبت على 85 خصما على مدى 15 عاما.. ولم أقتلهم جميعا في عام واحد مثلا.. ثم إن جرائم القتل لم تعد شيئا غريبا في مجتمعنا كما تعلم.. والآن.. يجب أن أرى المال بنفسي.. أريد فقط أن أتأكد من أمانتك وكلمتك.

وضعت الحقيبة التي جلبتها معي على المنضدة.. والتي تحوي نصف مليون دينار كما تعلمون.. وهو بالمناسبة أكبر مبلغ أراهن عليه في حياتي.. ففتح الحقيبة ليتأكد من المبلغ.. وأخذ ورقة

عشوائية من فئة ال 20 دينارا.. ثم راح يقربها من ضوء الغرفة.. قبل أن يبتسم برضا.. ويضع الحقيبة جانبا.. ليأمر بعدها أحد رجاله أن يأتي بحقيبة أخرى تحوي التزامه من الرهان دون شك..

لحظات قبل أن يضع أحد رجاله حقيبة فاخرة أمامي.. فتحها لأراها مليئة بالمال بالفعل.. فهززت رأسي برضا أيضا.. قبل أن يقول الرجل بصوته الواثق:

- ستنهض الآن لتقوم بتدوير المنضدة بنفسك كما طلبت.. ثم ستجلس سريعا على كرسيك.. وسننتظر لحظة توقفها.. عندها لا بد أن يختار كل منا أقرب مسدس إليه.. ثم يرفعه في وجه الآخر ويطلق النار!!!.

قلت له بصرامة:

- كيف أعلم أنك لا تعرف المسدس المحشو بالرصاصة الحقيقية؟!..

قال مبتسما:

-المسدسان متشابهان تماما كما ترى.. وحتى لو كانا مختلفين.. فالمنضدة هي التي ستحدد أيا منا سيمسك بالمسدس المحشو بالرصاصة الحقيقية.. أليس كذلك؟ !!.. ثم إنني سأجعلك تطلق النار علي أولا.. هذا ما أفعله مع كل خصومي!!!.. فإذا اتضح أن رصاصة مسدسك فارغة.. حينها سأضغط أنا على زناد مسدسي.. كما ترى.. ستكون أنت من يقوم بتدوير المنضدة.. وستأخذ أنت المسدس الذي يستقر أمامك لتضغط زناده أولا.. أنا لا أمزح.. هذا ما سيحدث بالفعل.

قلت وقد بدأ القلق يساورني لأول مرة:

- ولكن.. كيف ستجعلني أختار المسدس قبلك؟!.. أليس هناك احتمال بسيط أن أختار أنا المسدس ذا الرصاصة الحقيقية وليس أنت؟!!.

رد بهدوء يشوبه الغموض:

- هذا جائز جدا وليس مجرد احتمال بسيط.. فأنت تملك نسبة الفوز بحوالي ٥٠٪.. إننا أمام فرصتين متساويتين.. لهذا نحن نلعب القمار.. أليس كذلك؟!!.

لم أقتنع إطلاقا بكلامه هذا.. إذ رحت أفكر بعمق.. وأتأكد من المسدسين الموجودين على المنضدة!!!.. أمسك كل منهما على حدة وأقلبه في يدي.. لا أعتقد أنني سأشعر بثقل المسدس المحشو بالرصاصة الحقيقية.. لأنها مجرد رصاصة واحدة لن تغير شيئا من وزنه!!!.

ظللت بضع دقائق أنظر بكل دقة إلى المسدسين.. في حين راح هو يرمقني دون أي ملل.. وكأنه اعتاد هذه الأمور.. ثم:

-آه المعذرة.. لم أقم بضيافتك!!.. ماذا تشرب؟!.

قلت له بحذر بالغ دون أن أنظر إليه:

-لا شيء.. لا أريد شيئا.. إنها أحد شروطي الصارمة.. لا مأكولات.. ولا مشروبات أثناء لعب القمار أو قبله بساعة!!!.

كنت أرصد كل شيء في الغرفة قبل أن نبدأ.. وأنظر حولي بدقة شديدة.. إنني أجلس أمام منضدة دائرية مخملية فخمة.. تشبه تلك التي نراها في صالات القمار.. حيث أجلس أنا من ناحية.. ويجلس هو في الناحية المواجهة.. هناك 4 من رجاله في الغرفة مع 3 شهود آخرين يجلسون على

منضدة بعيدة نسبيا عنا ويراقبوننا بصمت.. يا إلهي.. غريبة هي تلك اللحظات التي تسبق العاصفة.. أستطيع أن أسمع نسمات الهواء من شدة تركيزي.. ولكن.. تذكرت فجأة أمرا هاما:

-مهلا.. ما الضمان أنني سأحصل على المال وأخرج بسلام؟!.. كيف أعرف أن رجالك لن يقتلوني إذا اخترت أنا المسدس المحشو؟!.. ربما سيطلقون علي النار حينها لتأخذ بعدها المال وترمي جثتي في الصحراء!!.. وستكون أنت بعيدا عن الشبهات كون أنه لا توجد أي علاقة بيننا كما كنت تقول!!!.

رد وكأنه متوقع هذا السؤال:

-وهل فعلت أنا أمرا كهذا من قبل؟!.. أنا واثق أنك قد سألت عني جيدا!!.. وواثق أيضا أنك تعرف سمعتي جيدا.. إنني رجل فاحش الثراء.. وما أفعله ليس من أجل المال.. بل لأنني أحب المقامرة.. أحبها كثيرا.. وخاصة الروليت الروسي.. إنني أعشق لحظات الترقب والقلق هذه.. أحب أن أراها في وجه خصومي.. أنت مدمن قمار مثلي وتعرف ما أتحدث عنه يا رجل!!!.

نظرت له متفهما.. ثم نظرت حولي.. و.. اتخذت قراري أخيرا.. إذ نهضت بحزم لأقوم بتدوير المنضدة.. ثم عدت لأجلس على الكرسي المقابل للرجل.. وراحت المنضدة تدور.. وتدور.. وتدور!!!..

أما أنا فرحت أفحص المسدسين بعين خبيرة وهما يدوران مع المنضدة.. أحاول معرفة المسدس المحشو بالطلقة القاتلة.. يا إلهي.. إنه أصعب رهان أخوضه في حياتي.. ولو نجحت فسأصبح أسطورة حقيقية في هذا العالم السفلي.

ها هي المنضدة تتباطأ قليلا وأنا أنظر إليها بدقة شديدة.. لماذا لا يخسر هذا الرجل أبدا.. لماذا؟!!.. ما زلت أطرح ذلك السؤال دون أن أجد له إجابة!!.. ثم.. توقفت المنضدة أخيرا!!!!.. ورحنا ننظر إلى بعضنا بهدوء شديد يخفي تماما مشاعرنا الحقيقية.. فحسمت أمري.. والتقطت المسدس الذي استقر أمامي وصوبته إلى الرجل.. ثم.. ثم أطلقت النار!!!.. و بووووم!!!!.

شعرت بأن قلبي سيسقط في قدمي.. فقد أطلق مسدسي رصاصة خالية!!!.. يا إلهي.. الرجل ما زال جالسا ينظر إلي بثقة وغرور شديدين.. سأخسر الرهان لأول مرة منذ 10 سنوات.. والأهم من ذلك أنني سأخسر حياتي نفسها!!!..

نظرت إليه بعين مذعورة وكأنني فأر وقع في مصيدة.. أما هو.. فقد التقط المسدس الذي استقر أمامه بثقة شديدة وهدوء غريب.. وصوبه نحوي وهو يقول:

-لا داعي للخوف من صوت رصاصتي.. فالرصاصة التي تقتلك لن تسمع صوتها!!.

عزيزي القارئ.. لا يمكن أن تعرف تلك اللحظات إلا إذا مررت بها.. اللحظات التي يعرف فيها المرء أنه ميت لا محالة.. إنها لحظات غريبة لا تتجاوز عادة بضع ثوان.. ولكن ملايين الخواطر والأفكار تمر في ذهنك خلالها!!!.. إذ راح عقلي لا شعوريا يراجع الأحداث بأكملها.. ويراجع المكان بأكمله أيضا.. هل هي خبرة السنوات السابقة التي جعلتني لا أثق في أحد وأملك تلك الدقة الرهيبة من الملاحظة؟!..

فقد ابتسمت فجأة بسخرية واضحة وأنا أنظر إلى عيني الرجل مباشرة.. حتى إن المسدس تخاذل في يده.. ليسألني بدهشة:

- لماذا هذه الابتسامة الساخرة الغبية؟ !!.. لقد خسرت الرهان أيها الأحمق.. ألا تفهم؟ !!.. ستموت الآن!!!.

قلت بهدوء شديد:

- لم أخسر الرهان.. بل أنت من خسر!!!.. إنك يا عزيزي تغش.. تغش بوقاحة وبطريقة بسيطة للغاية لا يمكن أن تخطر ببال أحد.. حقا أن أصعب الأمور أسهلها كما يقولون.. لهذا لم يكشف أحد أمرك من قبل.

نظر إلي بتوتر شديد.. وقد شعر أنه سيتلقى أول هزيمة في حياته.. فأكملت بذات الصرامة:

- إنها طريقة سهلة وطريفة للغاية لا يمكن أن ينتبه لها منافسك بسبب بساطتها الشديدة!!!.. فعندما رفعت المسدس في وجهي.. راحت عشرات الأفكار والخواطر تدور في ذهني.. أحاول أن أبحث عن مخرج سريع قبل أن تطلق علي النار وتقتلني.. إلى أن ومض الحل في رأسي فجأة!!.. ففي جزء من الثانية.. فكرت في رجالك في الغرفة.. ماذا يفعلون؟ ؟!.. هل لهم أي دور بما يحدث؟ !!.. لماذا يقف اثنان منهم خلفي؟ !!.. هذا السؤال هو الذي أنار لي الطريق وكشف الوسيلة البسيطة التي تتبعها في الغش.

بدا واضحا أنه تخاذل تماما عندما قلت هذا الكلام.. فعرفت أنني كشفته بالفعل وأن استنتاجي سليم تماما.. لأكمل بثقة:

- إنني واثق الآن أن كلا المسدسين الموجودين على المنضدة يحويان رصاصة فارغة أصلا.. لا يوجد مسدس محشو برصاصة حقيقية.. أليس كذلك؟!!!.. لهذا لم يتغلب عليك أي من خصومك السابقين وكنت تكسب في كل مرة.. أو فلنقل إنك كنت تخدعهم في كل مرة.. فأنت ترفع المسدس في وجه خصمك وتضغط الزناد.. لكن.. مسدسك أيضا خال من الطلقات الحقيقية كما علمنا.. فلا يمكن أن تقتله أنت.. إن من يقتل خصومك في واقع الأمر أحد رجالك الواقفين خلفي!!!.. فأنت تضغط الزناد معتمدا على العامل النفسي بشكل كبير.. إذ ستتجمد نظرات خصمك إلى مسدسك المصوب إليه.. فتضغط أنت الزناد.. وفي نفس اللحظة.. يطلق أحد الرجلين الواقفين خلفي النار من مسدس صامت كان يخبئه في جيبه على الأرجح.. فيضع يده في جيبه ويوجه المسدس إلى الخصم دون أن ينتبه أحد إلى ذلك بسبب نظرات الترقب التي ستتملك الجميع وهم يحدقون بك وبمسدسك.. ثم يطلق رجلك النار في نفس لحظة ضغطك على الزناد.. أليس هذا ما تفعله؟ !!.. وبالطبع لن ينتبه الشهود أيضا إلى كل هذا.. فبسبب وقوف رجلك خلفي مباشرة مما يعني قرب المسدس الصامت من ظهري بطبيعة الحال.. فإن الرصاصة ستخترق ظهري وتصل إلى بطني.. لأنزف عندها من بطني ومن ظهري.. ولن ينتبه أحد من الشهود إن كانت الرصاصة قد انطلقت من الخلف.. أو من الأمام!!!.

سكت أخيرا بعد سيل الكلام الذي ألقيته على مسامعه.. وراح قلبي يخفق بقوة فرحا.. في حين نظر إلي الرجل طويلا.. قبل أن يقول بحزن بالغ وقد شعرت أن عمره قد تضاعف فجأة:

- سنوات طويلة في عالم القمار.. سنوات طويلة في الروليت الروسي لم أخسر فيها يوما.. وكونت منها ثروة هائلة دون أن يكشفني أحد.. وها أنت الآن تفعلها بكل بساطة وتهزمني!!!.. حقا هناك دائما مرة أولى لكل شيء.. ولكن.. ما الذي يجعلك تظن أنني سأعطيك المال وأسمح لك بالخروج؟ ؟!.. لماذا لا أقتلك وأستفيد من مالك؟!.

لم أخشَ تهديده المبطن هذا.. بل قلت بالمقابل وبشيء من الثقة:

-انتبه إلى ما تفعله يا رجل.. في عالمنا السري لا توجد عقود ومواثيق.. فكل ما نفعله مجرّم وممنوع قانونا.. ومصدر الثقة الوحيد بيننا كخصوم في عالم القمار الكلمة.. الكلمة فحسب!!!.. أنت تعرف هذا جيدا.. فلولا الكلمة.. لانهار عالمنا بأكمله.. وأنت أعطيتني كلمتك.. وكما سمعت عنك.. فأنت رجل لا تحيد عن كلمتك أبدا.. ورغم أنك قد غششت مع 85 منافسا في السابق.. لكني أفهم جيدا أن من له حيلة فليحتال.. والمقامرة عموما قد تعتمد أحيانا على الاحتيال.. وليس دائما على الحظ أو المهارة كما يظن بعض الحمقى.. وأعتقد أن المقامر لا يفترض به أن يمانع الخسارة.. خاصة إذا كانت الخسارة عادلة!!!.

نظر إلي بعينين ضيقتين.. ثم قال بإعجاب شديد:

-أنت على حق.. وأنا لم أفكر لحظة في قتلك.. نحن مقامران ونفهم جيدا أن المال لم يعد المهم.. بل الفوز.. الفوز وحده!!!.. والأهم من ذلك أنني أحب أن أرى الترقب والقلق في ملامح منافسي كما تقول.. إنها متعة حقيقية لا يمكنني أن أقاومها.. وهذا ما يشعر به كل مقامر.. المهم الآن أن علي ابتكار طريقة جديدة بسيطة أكسب فيها رهاناتي القادمة.. فأنت كشفت كل شيء وهزمتني.. بل إنك أول من يهزمني.. أهنئك.

ساد المكان صمت طويل.. ونظرنا إلى الشهود الذين لم ينطقوا بحرف طوال الوقت.. قبل أن ينهض أحدهم من مكانه فجأة ويقفز فرحا مهللا:

-أنا الوحيد الذي راهن بفوزك أيها الشاب.. أنا الوحيد الذي شعرت أنك ستكسب هذه المرة.. لا أدري لماذا.. أحسست أنك لن تكون صيدا سهلا.. لقد جعلتني أكسب مبلغا ضخما راهنت به هذين الشاهدين.. أنا وأنت الكاسبان الوحيدان الليلة.. حقا أنها ليلة عمر.. لقد عشت معكما لحظة بلحظة.. وشعرت أنكما خطفتما أنفاسي في هذا الرهان.

قال هذا ونظر إلى الشاهدين اللذين راهنا ضدي.. واللذين بدت عليهما نظرات الإحباط والغضب.. وأخرج كل منهما دفتر الشيكات الخاص به.. وراحا يكتبان له التزامهما في هذا الرهان.

نظرت إليهما مبتسما.. ثم نظرت إلى صاحب المكان.. إلى الرجل الذي هزمته.. والذي ابتسم بود لأول مرة وصافحني باحترام بالغ.. لينظر بعدها إلى رجاله نظرة ذات معنى.. فأسرعوا ليخرجوا الحقيبة من تحت الطاولة.. تلك الحقيبة الفاخرة المليئة بالمال.. التزامه في الرهان.

شكرته بثقة.. وألقيت التحية على الجميع.. ثم خرجت وبيدي حقيبتان.. تلك التي أتيت بها والتي تحوي أموالي.. وحقيبة الرجل الرهيب المخيف الذي خسر الرهان أخيرا.. الرجل الذي لم يخسر أبدا.. قبل هذه المرة!!!.

(تم الكتاب بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات..

الملاحظات

[←1]

(1) كما هو واضح من الاسم.. فإن القنبلة المنزلية هي القنبلة التي يصنعها الإنسان باستخدام مواد بسيطة ومتاحة في كل مكان.. مثل سوائل التنظيف وبعض الأسلاك والبطاريات المنزلية.. وقد انتشرت طريقة صناعة تلك النوعية من القنابل من قبل بعض الإرهابيين ورجال المقاومة في الدول المحتلة أو من قبل الجماعات الثائرة على حكوماتها.. علما بأن طريقة صنع تلك النوعية من القنابل أصبحت متاحة وسهلة للغاية من خلال شبكة الإنترنت مع الأسف الشديد.

[←2]

(2) كل ما ذكر عن عملية غسيل المخ حقائق لا جدال فيها مهما بدت لكم غريبة.. علما بأن عملية غسيل المخ وإن كانت قديمة.. فإن أسسها العلمية لم تتضح إلا في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين حيث بدأت الخطوة الأولى على مخ الحيوانات في معمل العالم الروسي (بافلوف) بتجربة الجرس الشهيرة التي مارسها على الكلاب.. أما بالنسبة للإنسان.. فقد استندت عملية غسيل المخ إلى الحقيقة العلمية التي تقول إن الإنسان عندما يتعرض إلى ظروف قاهرة وصعبة تصبح خلايا مخه شبه مشلولة عن العمل والمقاومة.. بل وستصبح عاجزة عن الاحتفاظ بما اختزنته من عادات ومعلومات.. لدرجة أن مقاومته للأذى والتهديد الواقع عليه قد ينقلب إلى تقبل أشد واستسلام أسرع لعادات وأفكار جديدة أخرى تناقض تماما أفكاره ومبادئه الحقيقية.. وهذا من عجائب النفس البشرية بالتأكيد.

[←3]

(3) (متلازمة كورساكوف) (Korsakov’s syndrome) هو مرض حقيقي رغم غرابته.. وهو يصيب الإنسان نتيجة لنقص مزمن في مادة الثيامين (فيتامين B1) في الدماغ.. وقد حمل هذا المرض اسم طبيب الأعصاب الروسي (سرغي كورساكوف) الذي اكتشفه عام 18.. وكل الأعراض المذكورة عنه في القصة حقيقية.. ويرجع سبب المرض إلى التسمم الذي يصيب الجهاز العصبي من حالات إدمان الخمر.. أو بسبب بعض السموم كالرصاص والزرنيخ.. وتعتبر مشكلة هذا المرض الرئيسية هي التدمير الذي يحدثه في خلايا وجزيئات الدماغ والجهاز العصبي.. وهذا لا يمكن علاجه مع الأسف الشديد.. حتى لو تم تزويد المريض بذلك الفيتامين.. فتدمير خلايا الدماغ يجعل أمر العلاج الكلي صعبا للغاية ويكاد أن يكون مستحيلا.

[←4]

(4) كل المعلومات المذكورة عن الإنسان الآلي الذي تم صنعه على هيئة فتاة صغيرة حقيقية تماما.. وهناك صور عديدة متداولة في الإنترنت لتلك الفتاة الآلية.. كما توجد لها أيضا لقطات فيديو في موقع (YouTube) الشهير.

[←5]

(5) يتحدث هنا عن فيلم (Terminator) الشهير.

[←6]

(6) للعلم فقط فإن مشكلة نقص الأعضاء البشرية كانت - وما زالت - شغل الأطباء الشاغل.. فمن يحتاج قلبا على سبيل المثال.. سيضطر إلى الانتظار لفترة طويلة للغاية كي يجد متبرعا.. وقد يموت على الأرجح من دون أن يعثر على قلب جديد.. لذا فقد فكر العلماء باستنساخ الأعضاء البشرية.. فيتم استنساخ قلب وكبد وكل عضو بشري قد يحتاجه الإنسان.. ثم يُحفظ ما استنسخ في ما يسمى ب (بنك الأعضاء البشرية) علّه يحتاج يوما إلى استبدال أحد أعضائه التي قد تتعرض للتلف نتيجة مرض ما أو لأي سبب آخر. وقد بدأت التجارب بالفعل حول هذا الأمر.. ففي البداية.. راح العلماء يسعون لاستنساخ الأكباد.. فأخذوا خلية كبدية واحدة.. وتمكنوا بواسطة عقاقير خاصة أن يحولوها إلى كبد كامل جديد!!.. ولأن الأكباد المستنسخة تحمل نفس السمات والجينات الوراثية للكائن الأصلي.. فقد نجحت عمليات زرعها في أصحابها نجاحا ساحقا.. فانتقل العلماء إلى الخطوة التالية سريعا.. وهي استنساخ القلوب.. لكن واجهتهم صعوبات بالغة في ذلك.. فالقلب ليس كالكبد.. إنه عضو شديد التعقيد.. ذاتي الحركة كثير الحجرات.. لذا فتجارب استنساخ القلوب لم تنجح بعد ولم تؤت ثمارها.. لكن.. ما زال العلماء يحاولون حتى يومنا هذا.

[←7]

(7) حقيقة

[←8]

(8) حقيقة

[←9]

(9) الإغماء التخشبي مرض حقيقي.. ومن أعراضه الهيئة الجامدة.. تخشب الأطراف.. فقدان السيطرة على العضلات.. وتباطؤ وظائف الجسم الحيوية مثل التنفس ودقات القلب.. تماما كما حدث في قصتنا هذه.. ومع كل أسف.. ففي الماضي البعيد وقبل تطور الطب.. دُفن العديد من الأحياء الذين كانوا يعانون من هذا المرض ظنا أنهم موتى.. وقد يخلط البعض بين (الإغماء التخشبي) و(الغيبوبة).. إلا أن الفارق شاسع بين الاثنين.. ففي الغيبوبة يفقد المريض وعيه تماما ولا يكون جسده متخشبا كما في حالات الإغماء التخشبي.. كما أن الغيبوبة مرتبطة غالبا بإصابات أو خلل في المخ على عكس الإغماء التخشبي الذي لا يفقد خلاله المصاب حاسة السمع والإحساس بما يحيط به من أحداث.. ولا ننسى أن نذكر أيضا أن الغيبوبة من الممكن أن تستمر بضعة أيام وتمتد أحيانا إلى سنوات.. أما الإغماء التخشبي فيحدث عادة لعدة ساعات تمتد إلى عدة أيام كحد أقصى.

[←10]

(10) حقيقة بالطبع.

[←11]

(11)حق